الأنثروبولوجيا الثقافية

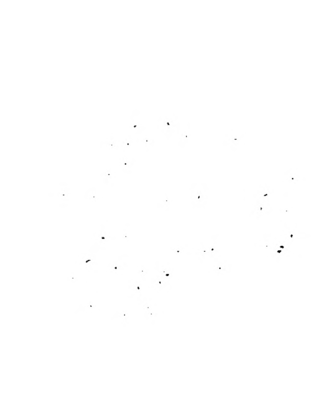
Mngool.com

تأليف
دكتور فاروق مصطفى اسماعيل
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الاسكندرية



الإهداء

إلى انجي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

هـذه محاولة فى وضع كتاب للانثربولوجيا الثقافية دفعنى اليها إحساس بحاجة المكتبه العربيه إلى مثل هـــذا النوع من الكتابة ، ولاشك أن مجال الانثربولوجيا بصفه عامة ، والانثربولوجيا الثقافية بصفة خاصه تحتـاج إلى المزيد من الجهود المخلصه ، بعد أن اتضحت أهمية هذا العلم فى شتى المجالات على النحو الذى سوف نشير اليه بعد قليل ، فضلا عن الرغبة الملحة لدى الانسان للتعرف على طبيعته الانسانية وثقافاته المختلفه ، وعلى الرغم من تعدد المحاولات من جانب العلماء فانهـا تستهدف أولا وأخيراً محاولة فهم الانسان فى ماضيه وحاضره من منظور كلى .

ولقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقدم فكرة مبسطة قدر استطاعتى عن الأنثربولوجيا ونشأتها ونموها وفروعها المختلفه ومجالات كل فرع منهـا ، ثم عرضت للمنهج فى الأنثربولوجيا الثقافيه والاثنولوجيا بصفة خاصة ،معتمدا إلى حد كبير على تجربتى الذاتية فى الأبحاث الميدانية التى قمت بها أو شاركت فيها ، ولم يقتصر تركيزى على المنهج وإنما أمتد لمعالجة مفهوم الثقافة والنظرية الثقافيه والتنوع الثقافى ، واستكمالا للفائدة المرجوة عرضت لثقافتين أحدهما مجموعه قبائل الدنكا فى السودان والأخرى لقبيلة التيف فى نيجيريا ، محاولا القاء الضوء وموضحاً التفاوت الواضح فى الظروف البيئية والبناء القبلى والعائلى والنشاط البشرى والضبط الاجتماعى فضلا عن نسق المعتقدات ، هنـا يجب الاشارة إلى أنى مدان بكثير من الفضل للمادة الأثنوجرافيه التى اتاحها لى عدد

من الباحثين والعلماء ، وأخص بالذكر منهم فى معالجتى للدنكا Dr. francis Deng وزير الدولة للشئون الخارجية فى حكومة السودان الحالية وخاصه كتابه القيم Dinka and Their Songs و Dr,Lienhardt فى كتابه الممتاز Divinity and Dxperience, The religiou of the Dinka وأخرون ممن كتبوا عن مجموعة قبائل الدنكا سواء من القـدامى أو المحدثين ، وكذلك Dr Bohannon وزوجته السيدة Lura وآخرون ممن كتبوا عن التيف .

ولقد حاولنا بين الحين والآخر أن نحشد عدداً غير قليل من الأمثلة لتوضيح الفكرة التي أحاول معالجتهاحتى يمكن لدارس الانثربولوجيا أن يعى ويستوعب ما أريد توضيحه ، فضلا عن أن الأكثار من هـــذه الأمثلة يعطى الفرصة للمقارنه ، وبالتالى يثير تساؤل القارىء عن أسباب هذا الاختلاف والتباين على هذا النحو أو ذاك .

ولقد كانت معالجتنا لقبيلتى الدنكا والتيف إنما تستهدف إلقاء المزيد من الضوء على هاتين الثقافتين، كيف نفكر كل منها، نظرتها إلى العالم الخارجى، وكيفيه إدراكها له ، الأمر الذى يتيح للقارىء فى الانثربولوجيا قـدراً من المعرفة المتمثلة في مفاهيم أو أفكار جديدة أو قدراً من الحقائق المتاحه عن مثل هذه الشعوب أو الجماعات ، وهذا سيظل بصورةأو أخرى هدفاً كان ومازال يسعى اليه الأنثربولوجيون فى كل مكان ، كيف تنظر كل ثقافه إلى عالمها فى صدق ويقين ، كيف تتغير هذه النظرة مع المتغيرات المحلية أو كنتيجه للظروف المتغيرة المحيطه ، وإنى أعتقد أن هذه المحاولة المتواضعة يمكن أن تفيد طالب الانثربولوجيا ذاته سواء فى حياته الخاصه أو من حيث نظرته للعالم الذى يعيش فيه،وليدرك فى نهايه المطاف أن الإنسان اينما كان انما يعتمد على سلوك

مكتسب ثقافيا لتحقيق احتياجاته ومواجهه المشكلات التى يصادفها ومحاولة التغلب عليها ، وطالما كنا نقابـل هـذه الاحتياجات المتشابه بوسائل ثقافيه مغايرة فإن ثمه أسباب لهذا التغاير أو الاختلاف، قد يكمن في الظروف البيئيه أو المعرفه التكنولوجيه المتاحة أو الاتصال الثقافى أو نسق القيم السائد ...الخ

وبعد فإنى أرجو أن تكون محاولاتى المتواضعه قد أثمرت وقدمت للقارىء فى الانثربولوجيا بعض ما كانت تفتقر اليه المكتبة العربية ، ولا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر العميق إلى أسرة الهيئة المصرية العـامة للكتـاب ـــ فرع الأسكندرية وإلى أسرة مطبعة الجيزة على ما لمسته فيهم من تعاون صادق وجهد إيجابى مشكور فى إخراج هذا الكتاب فى فترة وجيزة ، أسأل الله التوفيق .

فاروق مصطفى اسماعيل

الأسكندريه في ١٦ يوليو ١٩٧٩



الفصل الأول

- التعريف بالانثربولوجيا
- فروع الانثربولوجيا

يقصد بكلمة الانثربولوجيا Anthropology علم الانسان، وإذا أردنا معرفة أصل الكلمة من الناحية الايتمولوجية Etymology(*) نجد أنها تعني دراسة الانسان وأفعاله ومناشطه، والكلمة كما يبدو ترجع إلى أصول يونانية Anthropos أي الانسان و Logos أي الدراسة، فالانثربولوجيا هي دراسة الانسان، ولاشك أن هذا التعريف يحتاج وعلى حد تعبير كروبر A.L. Kroeber الي مزيد من الايضاح ليصبح أكثر تحديدا وأكثر دقة طالما لانستطيع الزعم بأن علوم أخرى مثل الفسيولوجيا Phyiology أو علم وظائف الأعضاء (**) أو علم النفس (***) يمكن اعتبارهما جزءا من الانثربولوجيا أو علم الانسان لانهما يوجهان اهتماماتها الى الانسان أيضا، بيد أن هناك فارق جوهري يميز الانثربولوجيا عن اهتمامات هذين العلمين يتمثل أساساً فى أن الانثربولوجيا تهتم بدراسة الانسان كأنساق اجتماعية فى حين تتجه الفسيولوجيا وعلم النفس الى دراسته كأنساق فردية، وهذا مادفع Kroeber وآخرون الى القول

(*) أي الدراسة التي تهتم باصول الكلمات وتاريخها .

(**) العلم الذى يتناول موضوعات وثيقة الصلة بالوظائف الطبيعية للجسم، بنائه وعملياته كما يشير الى الملامح أو الخصائص الغير طبيعية أو المرضية [نسبه السكر Glucose فى الدم ص ٦٠ : ١٨٠ مج، وجود السكر بنسبة أقل أو أعلى من هذا المعدل يعتبر بمثابة حالة مرضية أو مؤشر على وجود المرض.
Pocket Medical Dictionary (Twelf th Edition) .

(***) العلم الذى يهتم بدراسة سلوك الانسان سواء النشاط الحركى الظاهر كالمشى والكلام والجرى والاكل أو النشاط الباطن كالتفكير والتذكر والانفعال . . [د. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، الطبعة ( )، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٣ ص ٢٠] .

بأنها تهتم بالانسان وأعماله وسلوكه في جماعاته المختلفة وسلالاته المتباينة . وأيا كان الأمر فإن هذا التعريف شائع لدينا في مصر والدول العربية وبعض الدول الأوربية وأمريكا ، في حين نجد أن بعض الدول الاوربية الأخرى يأخذ فيها العلم معنى مغايراً أكثر تحديداً ، إذ تعني الانثربولوجيا لديهم دراسة الخصائص أو الملامح الفزيقية للانسان ، ويفضل الكثير من الباحثين التعريف الأول ، دراسة الانسان وأفعاله ومناشطه ،[1] لأنه أكثر شمولا ، كما أنه يلقى الضوء على الانسان من كافة النواحي الاجتماعية والثقافية والفزيقية . ويمكن القول أن الانثربولوجيا إنما ترتبط بين طرق العلوم البيولوجية والفسيولوجيه Physiology والوراثة Genetics والتشريح Anatomy والاجنة Embryology ، وطرق العلوم الاجتماعية أو الانسانية Humanities مثل علم الاجتماع Sociology وعلم النفس Psychology والتاريخ History والجغرافيا البشرية H. Geography والايكولوجيا البشرية H. Ecology[2]

---

(١) يذهب الدكتور حسن شحاته سعفان الى أن الجغرافيين العرب دأبوا على تسمية هذا العلم منذ ثلاثين سنة باسم الدراسات البشرية باعتقاد منهم أن كلمة بشر تشير الي الجوانب الفطرية أو السلالية في الانسان وهي تتفق مع المميزات العامة لموضوع الانثربولوجيا ، ويؤثر كثير من الباحثين التعريف على الترجمة

(معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة ابراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ص ٧١)

(٢) أول من استخدم كلمة Ecology في مجال العلم البيولوجي هو الألماني ارنست هيكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للاشارة الى العلاقة المتبادلة بين النبات والحيوان والبيئة التي يعيش فيها . في حين نجد أن أول من استخدم =

ولكنها تميزت عن هذين المجالين من حيث أن العلوم البيولوجيه اهتمت بالإنسان كأفراد Individual كما سبق أن اسلفنا والعلوم الاجتماعية تناول كل منها الانسان في ناحيه معينه من نواحيه المختلفه وأهملت ما دونها ، أما الأنثربولوجيا فانها ركزت على الانسان باعتباره عضوا في المملكه الحيـوانيه ، كما ركزت عليـه باعتباره عضوا في المجتمع أى انها تسير في خطوات متعددة وتبدو في أشكال متمايزة ومن هنا فإن دراستنا لهذا العلم انما تعني معالجة مجالات عديدة وأشكال متعددة، لقد أصبح لديه القدرة على الاسهـام على الرغم من حداثته كما سنرى في تقديم الحلول والاستفسارات من خلال دراسته وأبحاثه الميدانية في كافة المجالات كالعلاقات الاجتماعية ووسائل الاتصـال والادارة والإشراف الادارى تكوين والاتجاهات والثقافة والشخصية والطـاقة البشرية والتنظيم والتنميـة والتأثير الوراثي ... الخ

وعلى الرغم من تعدد الاتجاهات والمسارات التى سار فيها العلم فإنه يستهدف أولا وأخيرا دراسة وفهم الانسان في ماضيه وحاضره من منظـــور كلي ، ليلقى الضوء على أهمية النسبية الثقافية Cultural relativism والتي توضـح

= الاصطلاح في مجال العلوم الاجتماعية هو Charles Galpin خاصة في كتابه الذى ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشريح الاجتماعي لأحد المجتمعات الزراعية » Anatomy of an Agrarian Community وعلى الرغم من عدم استخدام الكلمة صراحه إلا أنه اهتم في عرضه للعائلات القروية بايضـــاح العلاقات المتبادلة بين أفراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك .

د. أحمد أبوزيد «أزمة البيئة» مجلة عالم الفكر المجلد السابع ـ العدد الرابع، ص ٨٩٦ .

لنا أنه لا ينبغى أن نتوقع أنماطاً للسلوك الانسانى بفرض قيمنا على المجتمعات غير المتشابهه ، لأن كل واحد منا يتمركز حول ذاته وينظر الى العـــالم من منظوره الخاص ... أن الانثربولوجيا توجه اهتمامنا الى المقـومات المشتركة التى تشارك فيها الجماعات المختلفه على نحو ما سنرى عند الحديث عن « الثقـافة » ولا يهم أن نتقبل سلوك الآخرين الذين ينتمون الى ثقافات متبـاينة ولـكن المهم أن نحاول فهم لماذا يتصرف هؤلاء الناس على هذا النحو أو ذاك ؟

ويمكن أن ترجع البدايات الأولى لهذا العلم الى الفلاسفة والمفكرون القدامى أولئك الذين تناولوا العديد من الموضوعات كتلك التى تتعلـق بالدين والسلاله وتقسيم المجتمع الى طبقات ومشاعر التحامل والتحيز .. الخ وأن أصطبغت بالصبغة الفلسفية ، وحتى أكثر الموضوعات حداثة مثل طبيعة العـــلاقات الاجتماعية والجماعات العرقية Ethnic groups قد تناولها هؤلاء الفلاسفة القدامى مثل أفلاطون، بل ان المدرسة النمساوية الالمانية التي تخصصت في الاثنولوجيا Ethnology [1] تأثرت بنظرية أفلاطون وكتاباته وحتي هيوم Hume الذى كان له دور هام فى نشأة العلم فى بريطانيا تأثر الي حد كبير بنظرية الفيلسوف الاغريقى ديموقريطى Democritus .

وفى الواقع أن الاهتمام بالانسان وثقافته موجود لدى كل الشعوب على اختلافها سواء فى الماضي أو الحاضر ، وان كان معظم الاهتمام يوجه فى واقع الأمر الى الشعوب غير المتعلمة أو المتعلمة القديمة خاصة تلك التى تركت ثقافة مميزه أو فلكلوراً Folklore أى أدباً شعبياً كما وجدنا عند اليونانيين القدماء وأبحاثهم عن أصل النار والزراعة وعادات جيرانهم التى تضمنتهـــا تقاريرهم

(١) سنشير الي هذا الاصطلاح عند الحديث عن الانثربولوجيا الثقافية وفروعها .

الوصفية ، وعلى سبيل المثال نجـــد أن هيردوت Herodotus كتب فى القرن الخامس قبل الميلاد عن المصريين القدماء، كما تكلم عن الأصول اللغوية للجنس البشرى ... وتلك الاعمال انما تمثل فى الواقع المحاولات الأولى والمبكره لقيام العلم، واستمر الحال كذلك الى أن جاء عصر الاكتشافات الأوربية (من القرن الخامس عشر فصاعدا) حيث بدأت المعارف الانثربولوجية تتراكم وذلك لازدياد حركة الرحالة والمبشرين والنشاط الاستعمارى ...

ومع بداية القرن التاسع عشر وجدنا عددا من الباحثين قد اهتموا بدراسة الأطلال والبقايا والمخلفات التى وجدوها فى المناطق المختلفة ، وقد تقدمت تلك الأبحاث والدراسات كنتيجة لتقدم البحوث الجيولوجية والباليونتولوجية(*) Geological and Palaeontological Studies والتي كشفت عن عمر الأرض التقريبي وبرهنت على أنها أقدم كثيرا مما كان يظن، كما نجد أن أحد الباحثين الفرنسيين ذهب الى تأكيد وجود الانسان في أوربا فى العصر الجليدى Ice Age كما عثر الباحث نفسه على أدوات حجرية فى حصى بعض الوديان فى بداية عام ١٨٣٠ ثم على أدوات أخـــرى فى الفترة من ١٨٤٧ الى ١٨٦٤ ، ونشر أبحاثه فى عـام ١٨٦٥ ، وقد تم اكتشاف الكثير من بقايا الإنسان القديم ومحتويات ثقافته المادية في نفس الفترة تقريبا وكلما تقدمت الاكتشافات وازداد العثور على الحفريات كلما حاول الأركيولوجيون(**) تصنيف الإنسان والبحث عن وضعه فى المملكة الحيوانيه وإختـــلافاته وسلالته وتاريخه التطورى . الخ .

(*) الجيولوجيا علم طبقات الأرض أما الباليونتولوجى فهو العلم الذى يهتم بدراسة الظروف الجغرافية فى علاقاتها بالبيئة القديمة .

(**) أولئك الذين يستهدفون اعادة بناء تاريخ الثقافات القديمة من خلال البقايا والسمات المادية التى يعثرون عليها .

والواقع أن البدايات الاولى لهذا العلم والتى حددت مساره الواضح وميزته عن غيره من العلوم إنما ترجع الى الأعمال التى قام بها عدد من العلماء الأوائل منذ قرن ونصف أو يزيد . نذكر منهم فى المجال البيولوجى على سبيل المثال لامارك Lamark (١٨٠٩) وأفكاره عن توارث الصفات المكتسبة، وتشارلز دارون C. Darwin فى كتابيه المشهورين أصل الأنواع The Origin of Species (١٨٥٩) وسلالة الإنسان The Descent of Man (١٨٧١) وأفكاره التى تضمنتها نظريته الهامة عن الانتقاء الطبيعى Natural Selection ، وأدولف باستيان A. Bastian (١٨٦٨) والذى يرجع إليه الفضل فى إنشاء المتحف العالمى المشهور . وكذلك الألمانى هيجل Haeckel (١٨٧٥) وأبحاثه عن التكوين الجنينى والتطور ، و بيير بروكا Pierre Broca ويعتبر من مؤسسى الأنثربولوجيا الفيزيقية ويرجع إليه الفضل فى إنشاء أول جمعية انثربولوجية (١٨٨٩) وكذلك الهولندى ديفريز Devries فى نفس الفترة تقريبا وأبحاثه عن الطفرة Mutations ... وغيرهم كثيرون .

أما فى المجال الاجتماعي الثقافى فيمكن أن ترجع أصول هذا العلم الى الأعمال التى قدمها دافيد هيوم D. Hume وآدم سميث A. Smith فى القرن الثامن عشر ونظرتهم الي المجتمع على أنه نسق طبيعى Natural System [(١)].

ويمكن القول أن اسهامات العلماء والمفكرون منذ منتصف القرن الماضى قد أعطت دفعة قوية لهذا العلم وحددت مساره واتجاهاته نذكر منهم هنرى مين H. Maine فى كتابه القانون القديم The Ancient Law (١٨٦١) وباخوفن Bachofen فى كتابه حق الآم Das Mutteracht (١٨٦١) وماكلينان Mc. Lennan فى كتابه الزواج البدائى Primitive Marriage (١٨٦٥)

---

(١) ايفانز برتيشارد ، الانثربولوجيا الاجتماعية، ترجمة د. أحمد أبوزيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ٣٦ .

وتايلور Tylor فى مؤلفيه الشهيرين أبحاث فى التاريخ القـديم للجنس البشرى Researches into the Early History of Mankind والذى أصدره عام ١٨٦٥ ثم كتابه عن الثقافة البدائية Primitive Culture (١٨٧١) ، وكذلك مورجان Morgan (١٨٧١) فى كتابه عن أنساق روابط الدم والمصاهره فى العائلةالانسانية Systems of Consanguinity and Affinity of the Human Family ، ووليام سميث W. Smith أحد مؤسسي علم الأديان المقـــارن وكذلك جون لبوك G. Lubbock فى دراسته عن تطور الزواج من مرحـلة الاباحية أو الشيوعية الجنسية فى فترة لاحقــــة ، وكذلك هربرت سبنسر H. Spencer (١٨٢٠ – ١٩٠٣) وفكرته عن تطور المجتمع الانسانى[1] . . وغيرهم كثيرون ، ولقد ساهم هؤلاء العلماء بالكثير من الموضوعات وادخلوا الكثير من المفاهيم والمصطلحات الانثربولوجية نذكر منها على سبيل المثـــال لا الحصر مفاهيم الأنيميزم Animism أو المذهب الحيـوى ، الاندوجاميـة Endogamy أو الزواج الداخلى، والاكسوجاميه Exogamy أو الزواج الخارجى أو الاغترابى والمونوجامية أى الزواج الاحادى والبوليانديرية Polyandry أو تعدد الأزواج بالنسبة للمرآه الواحدة والليفراتيه Levirate اشارة الى زواج الأخ بأرملة أخيه المتوفى ، وكذلك مفهوم العائلة الأموية Matrilineal Family والعائلة الأبوية Patrilineal Family وكلاهما يشير الى الانحدار فى خط الإناث أو الذكور على التوالى. والطوطمية Totem وتطلق على كل أصل حيوانى أو نباتى تتخذه العشيرة رمزاً ولقباً لها وتنزله منزلة التقديس ... الخ .

(١) المرجع السابق ص ٤٢ وما بعدها .

ويمكن القول أن هؤلاء العلماء وغيرهم قد قدموا مساهمات قيمة للعلم وجاءت جهودهم فيما يقول Titiev مصاحبة أو تاليه للتأثير الفكرى الذى عاصر حركة النهضة الفكرية ، إذ أن طبيعة العصر شجعت الناس لأن يبحثوا وأن يعتنقوا المبادىء والافكار التى هزت بعنف الافكار التقليديه والمعتقدات المألوفة (١) .

وكما هو واضح فإن جهود هؤلاء العلماء قد سارت فى اتجاهات متباينة وذلك لأنهم اتبعوا الخطوط العريضة وفقاً لتكوينهم العلمى ومهاراتهم وخبراتهم وميولهم واتجاهاتهم هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان كل منهم يسير فى اتجاه يراه ؛ فالبعض استغرق فى البحث عن اصل الانسان وتطوره فيزيقيا أو جسميا Somatic فى حين اهتم البعض الآخر بأن يصنف الجنس البشرى وابراز تنوعة واختلافه ، بينما ذهب فريق ثالث إلى الاهتمام وتركيز الانتباه على دراسة المخلفات والآثار المادية التى تركها الانسان القديم ومازال آخرون يرتحلون من مكان لآخر بعيد محاولين تفسير العادات والتقاليد والطرق الشعبية والسنن الاجتماعية . . . الــــح لدى معاصريهم من البدائيين أو الشعوب الآخرى .

وعلى الرغم من تلك الجهود التى قدمها هؤلاء العلماء على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم فقد ظلت الانثربولوجيا غير محددة المعالم حتى بداية القرن العشرين ، حيث بدأ العلم يأخذ مسارات عديدة واضحة ومحدده تبدو من مجرد مراجعة بعض الدوريات العلمية Peyiodicals التى تناولت الموضوعات ذات الصبغة الانثربولوجية فى إحدى الدول التي أحرزت الكثير من التقدم فى مجال هذا العلم كالولايات المتحدة الأمريكية ، فمع بدايه هذا القرن ظهرت

---

(١) Titiev, Mischa, The Science of Man, Holt Rinehart, 19o9, p. 2.

مجلة الجمعيــة الاثنولوجية الأمريكية the American Ethnological Society والتى تخصصت فى الاثنولوجيا ، ثم مالبثت أن ظهرت مجلة الانثربولوجيا الثقافيه Cultural Anthropology عام ١٩٠٦ وبعدها بنحو إحدى عشر عاما ظهرت المجلةالدولية لعلم اللغة الأمريكي The International Journal of American Linguistics وأنحصــرت اهتماماتها فى اللغـات واللهجات الأمريكية ، وفى العام التالي مباشرة ظهرت دورية جديدة بعنوان المجلة الأمريكية للانثربولوجيا الفيزيقية (١٩١٩) The American Journal of Physical Anthropology راهتمت بالموضوعات ذات الصلة الوثيقة بالجسم وبنائه الفيزيقى ، وفى عام ١٩٣٥ ظهرت دورية العمور القديمه الأمريكية American Antiquity لتكون تعبيرا لأولئك الذين اهتموا بالآثار الأمريكية القديمة، ولم تختلف كثيرا عماذهبت إلية المجلة المعاصره التى سميت بالاركيولوجيا الأمريكية American Archeology والتى اهتمت بتسجيل الاحداث الماضية فى العـالم ، وبعد سنوات قليلة أى فى عام ١٩٤١ ظهرت الانثربــولوجيا التطبيقيه (*) Applied Anthropology، ثم دوريه انثربولوجية أخرى تحمل اسم مجلة الجنوب الغربى للانثربولوجيا (١٩٤٥) .

The South - Western Journal of Anthropology

هــذا فضلا عن الانثربولوجيا المعاصره (١٩٦٠) Current Anthropology

---

(*) والتى تستهدف أساساً دراسة التغيرات فى السلوك الانسانى لمـواجهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية للمجتمعات المعاصرة .

Fred Plog & David Bates' Cultural Anthro pology, N: Y. Alfred A. Knope' Inc' 1976, P. 417 .

والانثولوجيا (١٩٦٢) [١] Ethnology . ومازال ظهور الدوريات العلميه الانثربولوجيه يتوالي ، فقد ظهرت منذ نحو خمس سنوات وعلى وجه التحديد ابريل ١٩٧٤ دورية جديدة تحمل أسم Ethnicity أى الشعوبية لتعالج موضوعات جديدة مثل الاختلافات السلالية والثقافية ومشاعر التحامل أو التحيز Prejudice والتفرقة والتمييز العنصرى . . الخ وفضلا عن ذلك فان هناك العديد من الدوريات العلمية سواء فى امريكا أو غيرها من الدول ، هذا عدا الكتب والمقالات التى احتوت الموضوعات أو الأبحاث الانثربولوجيه سواء ذات الصبغة الاجتماعية الثقافيه أو الفيزيقية ، لقد أثبت الباحثون في مجال السلوك الانسانى أن الانسان له خاصية فريدة ومتميزة أينما وجد ، أنه يمتلك ـ أيا كانت أدواته ومعداته ومهما أختلفت طرقة وأساليبه فى الحصول على الطعام وأيا كان نظامه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى أو نسق معتقداته الدينية والشعائرية ـ ثقافة وتلك قاصره على الانسان وحده ، يقول Gary Tunhill فى كتابة Culture and Biology « أن الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يمتلك ثقافة أو سلوكاً ثقافيا [٢] ويذهب Lesli A. white فى كتاب له بعنوان – The Concept of Culture « أنه لايوجد انسان بدون ثقافه ولاتوجد ثقافه بدون انسان » ويقول Huxley أن الانسان قد استطاع أن ينمى ذاته ويطور قدراته وهذا زوده بميكانيزم توافقى حرره من القيود البيئيه واعطاه القدره لتحقيق المزيد من التكيف .

ومن ناحيه أخرى نجد أن أولئك الذين اهتموا بالجانب البيولوجى ذهبوا

---

(١) Titiev, Micha, op. cit. P. 4.

(٢) Tunhill, G. , Culture and Biology. Burgers Puplishing Company Minnesota, 1973. P. 1

الى أن الانسان كائن متمايز عن غيره من الكائنات في المملكه الحيوانيـه ، أنه يمتلك خصائص جسميه يفتقد اليها أقرب الحيوانات شبها به في هذه المملكه، فالانسان له مخ أكثر تعقيداً يتكون من عدد من الوحدات البنائية تؤدى وظائف محدده يفتقدها الحيوان كالذاكره وما إليها[١]، يمشى ويقف منتصب القامة ، له بناء متمايز للقدمين ، حوضه أقل عمقا وأكثر عرضا من كثير من الحيوانات ،أرجله، زراعيه أطول بالنسبة للجسم، عموده الفقرى يأخذ شكل حرف S ولا يأخذ شكلا مستقيما أو مقوسا ... الخ .

من هذا العرض الموجز يمكن تحديد الموضوعات التي تشكل مجال علم الانثربولوجيا فى التساؤلات التالية والتى تعكس فى الواقع تطور الانسان وواقعه من الناحية الاجتماعية والثقافية والفيزيقية :

ــ إلى أى حد تؤثر الظروف الايكولوجية فى النشاط البشرى ؟

ــ ماهى طبيعة الانساق أو النظم المختلفة ؟ الاجتماعية أو الاقتصاديه أو السياسية أو الدينية. وما الدور الذى تلعبه هذهالنظم من حياة الفرد والجماعة؟

ــ أوجه التشابه أو الاختلاف بين هذه النظم أو الانساق فى المجتمعات المختلفة .

ــ ما تأثير التغيرات الاجتماعية على النظم التقليدية ؟

ــ ما طبيعة البناء الاجتماعى أو التنظيم الاجتماعى عند قبائل محددة أو فى مجتمعات محلية ؟

ــ ما طبيعه الثقافة وما مكوناتها ومقوماتها ؟

---

(١) Op. cite p. 19,

ـــ ما علاقة الثقافة بالشخصية ؟

ـــ الى أى شيء يمكن أن تعزو الأختلاف الثقافى أو اللغوى بين الشعوب والجماعات أو السلالات ؟

ـــ لماذا يستجيب الافراد للمثل والمعايير السائدة فى مجتمعاتهم ؟

ـــ لماذا توجد أنماط سلاليه أو ثقافيه متباينه على الرغم من وجود أصول مشتركة ؟

ـــ كيف تطور الانسان فيزيقيا ؟ وما هى قضية التطور ؟

ـــ الاختلافات الطبيعية بين الافراد والجماعات أو التباين السلالى .

ـــ ما تأثير البيئه على الملامح والخصائص الفيزيقيه للانسان ؟

ـــ هل ثمة صله بين العزله الجغرافيه أو البيئية والانعزال الوراثى Genetic Isolation ؟

ـــ هل ثمة تطور ثقافى بيولوجى مشترك ؟

الى غير ذلك من التساؤلات التى ترتبط أساساً بالموضوع العام للانثربولوجيا ونظرا لاختلاف الموضوعات وتباينها كما رأينا فإن كل مجموعة منها تندرج تحت فرع من فروع الانثربولوجيا العامة ويمكن أن تنحصر هذه الفروع فى ثلاث :

أولا : الانثربولوجيا الاجتماعية : Social Anthropology

أحد فروع الانثربولوجيا العامه التى تهتم بدراسه الانسان ، ولقد كان هذا الموضوع كما يقول ايفانز بريتشارد Evans Pritchard فى كتابه الانثربولوجيا الاجتماعيه Social Anthropology يدرس تحت اسم « الانثربولوجيا » أو الاثنولوجيا Ethnology منذ عام ١٨٧٤ فى جامعه

أكسفورد ، ومنذ عام ١٩٠٠ فى كمبروج ، ومنذ عام ١٩٠٨ فى جامعه لندن... وتهتم بدراسه السلوك الاجتماعى الذى يتخذ فى العادة شكل نظم أو انساق اجتماعيه أو اقتصاديه أو سياسيه أو الاجراءات القانونيه والعبادات الدينيه وغيرها ، كما تدرس العلاقه بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصره أو المجتمعات التاريخيه التى يوجد لدينا عنها معلومات مناسبه من هذا النوع يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات[1] . ومنذ البدايه اهتم علماء الانثربولوجيا الاجتماعيه بالتركيز على المجتمعات البدائيه، وهم يدركون أن كلمه بدائى Primitive لا تحمل حكما تقييميا ، فليست هذه المجتمعات أدنى في المنزله أو المكانه من المجتمعات الأخرى ، وقد يكون لبعضها كما يقول ايفانز بريتشارد « تاريخ طويل يماثل تاريخ المجتمعات الاوربيــة ذاتهـا » . ولكن اهـتمام البـاحثين بمثل هذه المجتمعات مرده الي أنها مجتمعات صغيرة محدودة المساحه فضلا عن قلة عدد السكان وبالتالى ضيق نطاق العلاقات الاجتماعيه كما أنها تتميز ببنائها الاقتصادى البسيط من حيث ضآلة الانتاج وسهولة التوزيع والاستهلاك، كما أن تقسيم العمل بهايتبع الخطوط العريضة للسن والجنس،فالمهارات والخبرات النوعيه محدودة هذا بالإضافه الي وجود حد أدنى من المعرفة التكنولوجيه إذا ما قورن بالمجتمعات الاكثرتقدما ، ولقد تكالب عليها الباحثون للاسبــاب التاليــة :

أولا : أن بساط البناء الاجتماعى وما يحويه من نظم مختلفة يتيح الفرصة لرؤية أفضل سواء لشبكة العلاقات الاجتماعية التي تكون هذا البناء أو النظم المتباينـــة .

---

(١) ايفانز برتيشارد ، الانثربولوجيا الاجتماعيه المرجع السابق ص ١١

ثانياً : أن دراسة المجتمعات المغايرة ثقافياً أى التى تختلف فى عاداتها وتقاليدها وطرقها الشعبيه وسننها الاجتماعية ... الخ تجعل الباحث أكثر اهتماما وشغفاً من دراسة ثقافته المحليه .

ثالثاً : كان هؤلاء الباحثون يعتقدون أن النظم التى يرونها فى هذه المجتمعات انما تمثل المراحل الأولى للنظم التى عرفها الانسان وبالتالى فإنهم سوف يستطيعون نتيجة لدراستها الكشف عن الأصول الأولى أو البعيدة لهذه النظم .

رابعا: ان هذه المجتمعات البدائية عرضه للتغير السريع نتيجة للاتصال الثقافى الذى أصبح أكثر عمقا وأكثر تأثيرا . ومن ثم يجب دراستها قبل تعرضها للتغير ، إنها دون شك ستلقى الضوء على المزيد من الفهم للانسان وأسلوبه فى الحياة ونوع القيم والمعتقدات السائدة لديه[١] .

وليس معنى هذا أن جهودهم قد اقتصرت على مثل هذه المجتمعات أو الثقافات ، فلقد تمت دراسات فى مجتمعات أكثر تطوراً كما هو الحال فى الدراسات التى تمت فى ايرلندا واليابان والمكسيك وكندا وتركيا وشمال افريقيا والصين والهند . فعلى سبيل المثال نجد أن ثمة دراسات عديدة تمت فى الهند كتلك التى قام بها Andre Beteille من جامعة دلهى فى دراسته للنسق الاجتماعى فى احدى قرى التاميل Tamil لجماعة الـ Sripuram فى مقاطعة الـ Tanjore أو تلك التى قام بها Joan Mencher فى منطقة كيرالا Kerala فى جنوب الهند حيث درس النظام الاقتصادى الزراعى بصفة خاصة من خلال معالجته للنظم

(١) أنظر المرجع السابق ص ١٢ وما بعدها

الاجتماعية والسياسية والايكولوجية وابراز تأثيرها فى عمليات التنمية [١] .

وعلى كل حال يمكن اعتبار الانثربولوجيا الاجتماعية فرعا من الدراسات الاجتماعية والفرق بينها و بين علم الاجتماع هى أن هذا الأخير يهتم بدراسة ظواهر محددة أو مشكلات معينة فى المجتمعات المتحضرة كالجريمة والبغاء والادمان والطلاق وتنظيم النسل والهجرة والاضطرابات العمالية وما إليها ولهذا يمكن القول أن هناك فارق واضح فى موضوع الدراسة وكذلك أسلوب الدراسة أو منهجها، فبينما يعتمد الباحث الاجتماعى على الوثائق والاحصائيات أو على الدراسة الميدانية التى تقوم أساسا على ملء استمارات البحث أو الاستبيان نجد أن الباحث الأنثربولوجى لديه وسائله الخاصة إذ يتحتم عليه أن يذهب إلى مجتمع الدراسة ليقيم فترة من الوقت (على نحو ما سنرى عند الحديث عن المنهج فى الانثربولوجيا) ليدرس البيئة العامة ـ الايكولوجيا ـ والنظم الاجتماعية التى يراد دراستها كالنظم الاقتصادية والسياسيه ، كما يدرس العائلة ونظم القرابة والدين والتكنولوجيا . . الخ .

* * *

---

(١) Nair. B. M., Culture and Society, Thamson Press, India Limited Publication Division, 1975, pp. 115 - 240.

ثانيا : الانثربولوجيا الفيزيقية Physical Anthropology

يذهب J. Weiner فى مقال له بعنوان « الانثربولوجيا الفيزيقية » الى تقسيم هذا الموضوع الى ميدانين رئيسيين :

الأول . دراسة الانسان كنتاج للعملية التطوريه (نظريات التطــــور العضوى Organic Evolution) .

الثانى : دراسة وتحليل النوع البشرى (١) .

أما Bates و Fred فيذهبا إلى أن الأنثربولوجيين الفيزيقيين يستهدفون البحث عن الأصول البشرية Human Origins ويتبعون فى ذلك طريقتين :

الأولى : جمع وتحليل الحفريات (*) للانسان القديم .

الثانية : دراسة بناء وحركة الأحياء الأقرب شبها بالانسان «الرئيسيات» Primates وكذلك قدرتها على التكيف فيما يسمى بالمورفولوجيا المقــــارنة Comparative Morphology ومادتهم فى هذا الشظايا أو الأجزاء المتبقية من الجمــــاجم Fragementary Skulls والفكوك Jaws وعظــــام الحوضين Limb Bones (٢)

أن الانثربولوجى الفيزيقى فى محاولته القاء الضوء على الحفريات التى

---

(١) Weiner, J. S., "Physical Anthropology" American Scientists, Vol, 1975, p. 79.

(*) الحفريات : عبارة عن بقايا أو آثار الحيوانات أو النباتات القديمة محفوظه في الصخور .

(2) Fred & Bates; Culture Anthropology: Alfred Knope, Inc, N. Y. 1976 pp. 10 – 12.

يعثر عليها انما يشير الى الأنواع الانسانية المعاصرة تماما كما يفعل الاركيولوجيون حين يفسرون البقايا والأطلال بالاشارة الى الثقافات الحاليه ، وتستهدف الطريقتان الكشف عن الانسان كنتاج لعملية التطور بما لها من خصائص وملامح فيزيقيه ، إذ يقارن ما يعثر عليه من الاشكال المبكره بالانسان المعاصر هذا من ناحية ومن ناحيه أخرى فإنه يوجه اهتمامه إلى الكشف عن الاختلاف السلالى « التنوع الانسانى » وهذا بدوره يؤدى الى المزيد من الفهم لمشكلة التكيف الانسانى وهى المشكلة الرئيسية لكل من الانثربولوجيا الفيزيقيه والثقافية. فاذا كانت هناك سمه Trait معطاه ظهرت بين جماعه من الناس فى الماضى فإن الباحث الانثربولوجى الفيزيقى - يحاول تعقب هذه السمه ليعرف مدى انتشارها التدريجى أو احتمال اختفائها والتغيرات التى طرأت عليها ، يذهب Peter Hammond الى أن الأنثربولوجيين الفيزيقيين أثبتوا فى محاولتهم دراسة التطور الانسانى من الناحيه البيولوجيه أن مخ الانسان قد نمى بصوره واضحه خلال الاحقاب التاريخيه المختلفه فى حين تضاءل حجم الوجه وأن هذا ما أكدته الدراسه المقارنه بين الانسان الحديث Modern Man والانسان المنتصب القامه Homo Erectus والشمبانزى Chimpanzee [1] بيد أن ثمة وجها آخر هام من اهتمامات الانثربولوجيا الفيزيقيه يتمثل فى دراسة التأثير المتبادل بين الانسان وبيئته الطبيعيه ومكونات البيئه أو عناصرها لا تشمل فقط على الأرض والماء والهواء ، وانما الملامح الأخرى كالكائنات الحيه النباتية والحيوانيه التى تشارك الانسان عالمه ، هنا يهتم الباحث بالتفاعل والتأثير على البناء الجسمى Physical Structure فلربما كشف الستار عن الظروف

---

(1) Hammond, Peter; An Introduction to Cultural Anthropology, Macmillan Publishing Co., Inc., 1971, p. 5.

المسئوله عن اختلاف الأنماط الانسانية أو انتقال السمات الفيزيقية Physical Traits فقد تؤدى الظروف البيئية إلى عزلة جماعه من الجماعات وتتحكم في التوزيعات السكانية أو تؤدى إلى الحفاظ على بعض السمات الفيزيقية ، وهذا على النقيض من أولئك الذين لديهم القـدرة على الاتصال المستمر ومن ثم فان التغيرات البنائية لاتظهر بوضوح خاصة إذا ماأتاحت الثقافات أو السلالات المتباينة نوعا من التبادل الزواجى أى سمحت بمايسميه الانثر بولوجيون بالاكسوجامية أو الزواج الاغترابي .

* * *

ثالثا : الانثر بولوجيا الثقافية Cultural Anthropology

ذلك الفرع من الانثر بولوجيا العامة الذى يهتم بدراسة السلوك الانسانى في ماضية وحاضره ، ولما كانت ثقافة الانسان (العرف والتقاليد والمعتقدات والممارسات . . . الخ) هى الوسيلة التى تمكنه من الاتصال بالأخرين سواء جماعته المحلية أو الجماعات الأخرى المحيطة ، بما لها من خصائص اجتماعية فى بيئتها الطبيعية المتباينة ، لذا كان احد أهداف الانثر بولوجيا الثقافية دراسه هذا التباين أو التشابه الثقافى هذا من ناحية ومن ناحية أخرى الاهتمام بتاريخ هذ الثقافات وأصولها ونموها وتطورها . ولما كانت الانثر بولوجيا الثقافية تغطى مجالا واسعا من المعرفة الانسانيه فإنها تنقسم إلي فروع رئيسية ثلاث :

(١) الاركيولوجيا Archaeology

(٢) الاثنولوجيا Ethnology

(٣) اللغويات Linguistics

ولكل فرع من هذه الفروع موضوعات متخصصة ومناهج متمايزة وسوف نعرض لها فيما يلي فى شيء من التفصيل :

أولا : الاركيولوجيا Archaeology

يستهدف هذا الفرع من الانثربولوجيا الثقافيه دراسة الثقافات القديمه أو بمعنى أدق عملية التطور الثقافى Cultural Evolution للثقافات المعاصره وكيف وصلت إلى حالتها الراهنة ، يقول — Thomas David - فى كتاب له بعنوان التنبؤ بالماضي – Predicting The Past – ، أن الاركيولوجيا هى دراسه الماضي أو دراسه الانسان فى عهوده القديمه وهي تركز على الجانب المادى من ثقافه الانسان [1] ويرى P. Hammond فى كتاب له بعنوان مقدمة فى الانثربولوجيا الثقافية ، أن الاركيولوجيا تهدف الى اعاده البناء التاريخى القائم على الأدلة المادية لنمو ثقافة الانسان خلال الزمن ، وأن عمل الاركيولوجى يمدنا برؤية مساوية نسبيا لاهتمامات الانثربولوجى الاجتماعى أو الثقافي لأنه يبحث عن سؤال أساسى ألا وهو كيف تنمو الثقافات وتتغير عبر الزمن ؟ (٢)

والواقع أن اهتمام الفرع المسمى بالاركيولوجيا قد آثار مشكلة هامة تتمثل فى التفرقة بين الأبحاث الاركيولوجية التى يقوم بها علم الآثار التقليدى وتلك التى يهتم بها المتخصصون فى الانثربولوجيا ، وقد أجمع الباحثون على أن علم

---

(1) Thomas, H, David, Predicting The Past, An Introduction to Anthropological Archaeology' Holt Rinehart and Winston, Inc, N. Y. Chicago, London 1974 PP. 1 - 2.

(2) Hammond, Peter' op. cite. P. 4.

الآثار التقليدى Classical Archaeology والذى يستهدف الكشف عن البقايا والأثار التي تركها اليونانيون أوالمصريون أوالبابليون القدماء،مثلا أنما يستهدف تحقيق وتأكيد التاريخ المدون . . . أما الاركيولوجى فانه يعمل فى ظروف مغايره ويستهدف ماده اكثر غموضاً وابهاما ، يبحث عن البقايا المدفونه للشعوب القديمه البسيطة التركيب وكذلك الحضارات القديمة وراء اسوار العالم التقليدى ، وله أساليبه الخاصه التى نمت فى مجال الانثربولوجيا [1] . أنه يحاول اعادة بناء الأشكال الثقافية Cultural Forms من خلال استقرائه للبقايا والاطلال الماديه التي تركها الانسـان القديم كالمسكن والمأوى والكهوف والأدوات والاسلحه التى استخدمها وكذلك الأوعيه والاوانى والادوات الأخرى المدفونه مع موتاهم أو فى مخلفاتهم أو رسومهم أو نقوشهم على جدران المعابد والقلاع وأسوار المدن القديمة ... الى غيرذلك من البقايا الماديه والتى تعطى الفرصه للاركيولوجى لأن يصف شيئا عن الثقافات القديمة .

والجدير بالذكر أن رؤية الاحداث التاريخيه من وجهة نظر الاركيولوجى انما تختلف عن رؤية الباحث فى التاريخ والذى يستمد مادته من وثائق كتبها أفراد عاشوا الأحداث وقت حدوثها وسجلوها ، وبالاستعانه بهذه الوثائق فإن المؤرخ يستطيع أن يضع الاحداث بدقه فى مكانها وزمانها وتتابعها وارتباطهـا أحـدها بالاخـرى ، أما الأركيـولوجى Archaelogist فليست لديه هذه الميزة ولا يقتصر عمله على تلك الفترة الزمنيه التى عرفها المؤرخون ، فالكتابه اختراع حديث لم يتجاوز الخمسه آلاف عام فى حين نجد

(1) Harving, Donglas, Personal Character and Cultural milieu Syrocouse Un. Press, 1956. p 6

أن الثقافات الانسانية قد بدأت منذ أكثر من مليون عام ومن ثم فان الاركيولوجي قد يستعين بها إذا وجدت ولكنه في أغلب الاحوال يرجع الى الثقافات البعيدة ويحاول الوصول إليها ومن خلال دراسته للبقايا والاطلال الماديه ، يقدم لنا الثقافه بما لها من خصائص وسمات كالادوات الحجريه والكهوف واقتصاديات جمع الطعام أو الاحجار المصقوله أو المساكن الخشبية ، ولاشك أن مساهمات الاركيولوجى على درجه كبيره من الاهميه ، باختصار أنه يحاول اعادة تقديم صوره لاسلوب الحياة فى الثقافات التقليديه من خلال تصنيفه البقايا المادية وتحديدها بفترات زمنيه (1) .

ولقد استطاعت الاركيولوجيا تطوير اسلوبها ومناهجها بحيث يمكن القول أن لها وسائلها الخاصة ومناهجها المتطورة . ولعل أهم الوسائل التى يستخدمها الاركيولوجيون فيما يقول دافيد توماس David Thomas التحليلات الراديو كاربونية وأشعه اكس . . . أما المنهج الذى أصطنعتة الاركيولوجيا لنفسها يدور حول مايسمى باقامة النماذج Patterns والتى تصنف المادة المعطاه (المخلفات أو البقايا) وفقاً لها ومن ثم تقدير عمرها الزمنى ثم محاولة تفسيرها والقاء الضوء عليها ، وبصفه عامة يمكن القول أن هناك أربعه نماذج أو أنماط أساسيه يستخدمها الاركيولوجيون فى(*) محاولتهم هـــذه .

( )Thomas, H David, op Cite P. 3.

(*) يعرض دافيد توماس لهذه النماذج فى شىء من التفصيل فى كتابه السابق الاشارة إليه . أنظر ص٥ إلى ص١٤ .

أولا : النماذج المورفولوجية (٭) : Morphological Types ويطلق عليها أحيانا النماذج الوصفيه Descriptive والذى يستهدف ابراز الملامح أو الخصائص العامة الخارجيه للشيء أو السمه الماديه المعطاه كالطول والعرض والوزن واللون ونوع المادة والحده . . . الخ)

ثانيا : النماذج الوظيفية : Functional Types

حيث يتم تحديد وظيفة الشيء أو السمة ومن ثم القاء الضوء عليها هل هى مطرقه أو رمح أو سهم أو قوس أو عصا للحفر أو آله للقطع . وقد يعتمد تحديد الوظيفة أحيانا على التخمين، ولاشك أن ثمة صلة وثيقة بين إقامة النماذج المورفولوجيه والوظيفيه .

ثالثا : النماذج الزمنيه : Temporal Types

حيث يتم الوصول إلى الفترة الزمنيه والتقريبيـة التى مضت على الحفريات أو البقايا وتسمى أحيانا البعد التـاريخى (٭٭) ويعتمدون فى ذلك على أشعة

(٭) المورفولوجيه Morphology أصطلاح يطلق على علم هيئه وتركيب الأجسام الحيه ، كما يشير إلى الشكل الخارجى للانسان أو الحيوان أو النبـــات .

(٭٭) يعتمد الاركيولوجيون عادة على قياس زمن مركب الكربون الاشعاعى كربون ١٤ الموجود في الهواء الجوى وهو أحد نظائر الكربون ذات النشاط الاشعاعى الذى تقدر دورته النصف عمريه د ٥٥٦٨ سنه، ينحل بمعدل معروف مثل كل العناصر المشعه ، ويوجد فى كل الانسجه الحيه بنسب ثابته ، وحين يموت النسيج فان كربون ١٤ يبدأ فى التحلل بحيث لايكاد يتبقى منه بعد ٢٥,٠٠٠ ألف سنه إلا جزء ضئيل يصعب قياسه بدقه .

=

X - Ray والأشعة الراديو كاربونيه Radio - Carbonic ووسائل أخرى في بناء أو تحديد الفترات الزمنيه .

رابعا: النماذج الادراكيه : Cognative Types

بغيه الوصول الى التصورات أو المدركات العقليه لأولئك الذين اخترعوا السمه الماديه أو أوجدوها أو استخدموها على هذا النحو أو ذاك [1] ومن ثم يتسنى لهم من خلال محاولة إقامة النماذج و تصنيف الماده التى جمعت ومقارنتها وتحـــديد الفترة الزمنيه — ادراك تتابعها Sequences أى تطورها و نموها و بالتالي الكشف عن طرق الحياة المتمايزة لهذه الثقافات ولاشك أن هذه النماذج إنما ترتبط بالوضع الثقافى ، فالاشياء الماديه بمثابه ترجمه للافكار والاراء القائمه فى اذهان أولئك الذين اخترعوها أو استخدموها .

ويمكن القول أن الاركيولوجيين قد قطعوا شوطا بعيدا من حيث مساهمتهم فى الكشف عن تاريخ الثقافة الانسانيه ، وأن محاولتهم مازالت تستهدف الوصول إلي المراحل المبكره من تاريخ الانسان وثقافته الأولي ، إذ أن تتبع هذا التاريخ سوف يوضح لنا الطرق التى فيها ثقافه تتلو ثقافه أخرى فى حقبات تاريخية متلاحقه . إن الاركيولوجى يستطيع أن يحدد لنا أى الثقافات عرفت الحديد أو البرونز أو تلك التى عرفت الزراعه أو استئناس الحيوان .

= (وليام هاولز ، ما وراء التاريخ ، ترجمه أحمد أبوزيد ، دار نهضة مصر ١٩٦٥ ص ١٨٧) .

(١)

ثانيا : الإثنولوجيا : Ethnology

لقد حدث خلط كبير فى استخدام هذا المفهوم خاصة فى أوائل هذا القرن وكان يطلق على الانثربولوجيا الاجتماعية مثلا اصطلاح الاثنولوجيا فى بعض الجامعات البريطانيه كما سبق أن أشرنا ، ويمكن القول أن موضوع الاثنولوجيا الرئيسي هو « الثقافة » أى أنها تركز على دراسه سلوك الانسان أينما وجد سواء فى المنطقة القطبية الشمالية أو فى الغابات الافريقية أو في الجزر المنعزلة في المحيطات أو فى المدن الكبرى المأهوله بالسكان سواء فى أوربا وأمريكا وأسيا ، ومن ثم فان الاثنولوجيين يستهدفون تسجيل الاشكال ، والأنماط السلوكية فى أى مكان سواء أكان المجتمع بدائيا أو متحضرا بغية الوصول إلي الخصائص الثقافية للجماعات البشرية المختلفة ، وغالبا مايعطى الاثنولوجى جانبا من اهتماماته لدراسة المجتمعات البدائية أو الأقل تقدما لإلقاء الضوء علي هذه الجماعات وثقافاتها المتمايزة ، وهو يدرك تماما أن الثقافات تختلف باختلاف الزمان والمكان وأن ثمة فوارق واضحة بين الاقزام الذين يعيشون فى غابات ايتورى Eturi فى الكونغو والذين يعيشون على الصيد وجمع الثمار البريه وقليل من الزراعة ويعرفون تربية الماشية ، وبين الاسكيمو Eskimo الذين يعيشون على صيد الكاريبو والدب القطبى وعجول البحر ، وبين مجموعه قبائل الدنكا Dinka الذين يسكنون جنوب السودان ويعتمدون على تربيه الأبقار والضأن والماعز كما أنهم يعرفون القليل من زراعه الحدائق... أن ثمه فروق واضحه بين هؤلاء وبين سكان المناطق الريفيه فى المكسيك أو الصين أو اليابان ... الخ .

أن الاثنولوجي Ethnologist قد يكرس جهوده لمشكله المشابهه والاختلاف

القائمة بين الثقافات على نحـو ماأشرنا أو الثقافات الفرعية sub - Cultures المتباينة داخل الاقليم الواحد على نحو ما نجد فى السودان مثلا حيث ينقسم السكان إلى وحدات تصل إلى نحو ٥٩٧ وحده قبلية تنظم فى وحدات قبلية أكبر تصل إلى ٥٦ وحده تشمل العرب ويشكلون نحو ٣٩٪ من السكان مثل قبائل الجعليين (*) والجهاينه والكواهله ... الخ . و٣٠٪ من الجنوبيين مثل الدنكا Dinka والنوير Nuer والفونج Fung والزاندى Zanade والبارى Bari ، وتشكل قبائل غرب دارفور ١٣٪ فى حين تشكل قبائل البجه Beja ٦٪ مثل البشاريين Bisharin والهدندوه Hadendowa فى شرق السودان والنوبيين nubiyin ويشكلون ٣٪ من السكان ، وقبائل أخرى عدا الأجانب من الوافدين .

وتبدى هذه الاقسام أو الوحدات القبليه تفاوتا ملحوظا فى ثقافاتها ، بل أن بعض الانماط السلوكيه التى يمارسها سكان الجنوب تبدو غير مألوفه على الاطلاق لدى سكان الشمال على نحـو ماسوف نشير إليه عند الحديث عن قبائل الدنكا الجنوبية ، ولعل الصورة تبدو أكثر وضوحا إذا أدركنا أن هناك ١١٥ لغه ولهجه محليه فى السودان تشمل الأوربية والآسيويه والافريقيه وأن ٥٠٪ يتحدثون العربيه فى حين يتكلم الأخرون اللغات النيلية Nilotic Languages مثل لغة التيو التى يتحدثها سكان الدنكا أو اللغات النيلية الحاميه nilo - Hamitic التى يتحدث بها سكان الجنوب الشرقى مثل البارى Bari

(*) ينقسم الجعليون إلى ١٣ فرعا قبليا مثل قبائل الميرفاب والركابية والرباطاب والجموعيه والمناصير والجمع والشايقيه والبديريه والجوامعه والغديات والجوابره والبطاحين والجعليين . (يوسف سليمان ، قبائل السودان الكبرى ، المطبعه الحكوميه بالخرطوم ١٩٦٩ ص ٨١) .

واللاتوكا Latuka ، فضلا عن اللغة السودانيه التى يتحدث بهاسكان الجنوب الغربيين مثل قبائل البانجا باكا Banga Baka والزندى Zande ثم اللغة الدار فورية التى يتحدث بها سكان منطقة دار فور [1] .

والواقع أن الانثربولوجيين البريطانيين الذين عملوا أساساً فى أفريقيا وأسيا والفرنسيين الذين عاشوا فى المناطق الاستوائية وغرب أفريقا الواقعه تحت النفوذ الفرنسي والانثربولوجيين الامريكيين الذين عاشوا وعملوا مع الهنود الحمر ومناطق أخرى قد استطاعوا أن يقوموا بالعديد من الدراسات المتباينه فى هذه الثقافات المشار إليها ، ويمكن القول بصفه عامة أن معظم الانثولوجيين من الناحية المهنية إنما يميلون إلى اجراء بحوثهم ودراساتهم خارج ثقافاتهم المحلية لإلقاء الضوء على هذه الثقافات وماتحويه من معرفه وفن وفلكور وسحر وقانون وأخلاق ومعتقدات ، فضلا عن نظرتهم الفلسفية للكون بل ومعرفتهم التكنولوجية ومالديهم من سمات مادية . ومن ناحيه أخرى فانهم يبحثون عن الظروف والاسباب التى أدت إلي هذا التشابة أو الاختلاف أو التى ظهرت فى نطاقها هذه الاشكال الثقافية المتباينة ، ربما يجدون فى تاريخ هذه الشعوب مايشير مثلا إلى اتصالهم فى أزمنة ماضية ، فظهور الاهرامات في السودان فى المناطق المحيطه بمروى أو شرق الدامر أو شمال «كسلا» أو فى شندى ربما يرد إلى التأثير المصرى القديم فى الفترة من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠ عام ق . م . حيث استعاروا من مصر فكرة اتخاذ الاهرامات مقابر لدفن الأسر المالكه [1] .

---

(1) The Population of Sudan , Philosophical Society of Sndan in Conjunction With The department of Statistics, University of Khartoum , 1928 ,

بيد أن هناك اتجاه حديث اتجه إليه الانثولوجيين أخيراً حيث الاهتمام بدراسة الفرد فى المجتمع وكذلك الشخصية فى علاقتها بالتقاليد الثقافية Cultural Tradition ، ولاشك أن هذا الاهتمام ليس قاصرا على الانثولوجيين وحدهم ، إذ أن موضوع الثقافة والشخصية هذا يقع بين محورين لمجالين مختلفين من العلم ، الانثربولوجيا من ناحية وعلم النفس من ناحية أخرى ومحاولة الربط بين العلمين لم تكن قد وجدت كما يقول Spiro منذ ٣٥ سنة تقريبا حين ركزت الانثربولوجيا واهتمت بالاتجاهات التاريخية التطوريه والنشوئيه فى حين كانت الأفكار والمفهومات السيكولوجيه مازالت فى دور التكوين أو على الأقل لم يكن هناك ارتباط بين الفكرتين «الثقافة والشخصية» بالمعنى الحالى[١] .

ولعل الذى دعم هذا الاتجاه هو قيام الانثربولوجيون المحدثون بالدراسات الحقليه ، وادراكهم أن هناك ارتباط وثيق بين الثقافة والشخصية فاتجهوا الى علم النفس للحصول على الماده الاكثر عمقا كما أخذوا بالوسائل المنهجية الأخرى من أجل المزيد من الفهم للدور الذى تلعبه الثقافه فى بناء وتشكيل الشخصية ، وكانت نقطة البداية لإثارة العديد من المشكلات المرتبطة مثل الدور الذى يلعبه الانسان فى عمليات الاختراع والاكتشاف ونشر السمات الثقافيه ، انماط السلوك المقبوله ثقافيا ، الى أى حد يستطيع الانسان أن ينحرف عن المعايير السائدة ، كيف تواجه الجماعة الثقافية هذا الانحراف . . أن هذا النوع من الدراسات قدم لنا رؤى جديدة للمشكلات المرتبطة ببناء ونمو الشخصية والتعليم والتنشئة الاجتماعية والضبط الإجتماعى ... الخ .

* * *

(1) Spiro, Melford, "Culture and Personality" in International of Encyclopaedia of Social Sciences, p. 179.

ثالثا : اللغويات Linguistics

تهتم بعنصر حيوى من عناصر الثقافة ألا وهى اللغة ، الوسيلة الأولى للارتباط البشرى وأداه نقل الافكار أو التعبير عن الفكر بالكلمات أو الاشارات أو الرموز أو الصور أو الاشكال ... الخ. وقد ازداد الاهتمام بدراسة اللغات منذ القرن السابع عشر ولكن تضاعف الاهتمام فى القرن الثامن عشر حيث وجه الباحثون اهتماماتهم الى محاوله معرفة أصل اللغات والمقارنة بينها ، وفى الحقيقة أن مجال اللغويات قسمه مشتركة بين اللغويين أنفسهم وبين علماء آخرين سواء أولئك الذين ينتمون للانثربولوجيا الثقافية فى الفرع المسمى باللغويات أو علماء النفس أو الفلسفة أو المنطق الصورى(*). وغيرها من العلوم وعلى حد تعبير د. أحمد أبوزيد أستاذ الانثربولوجيا بجامعة الاسكندريه ، اذا كان من المأثور عن السياسى الفرنسى كليمانصو Clemanceau قوله أن الحرب أهم وأخطر من أن تترك للجنرالات العسكريين فانه يحق لنا أن نقول أن اللغه أهم وأخطر من أن تترك للغويين أنفسهم[1] .

(*) هناك اتجاه فلسفى معاصر فى انجلترا يسمى الفلسفة التحليلية يهتم بالتحليل المنطقى للالفاظ والقضايا أى اللغة كمفتاح للبحث الفلسفى كمعانى الكلمات ودلالتها والتركيب المنطقى للعبارات . كما تهتم الفلسفة التحليلية أيضا بوظيفة اللغة والدور الذى تقوم به كاصدار الأوامر أو توجيه الأسئلة أو التعبير عن الرغبه أو الاداء المسرحى أو قص الحكاية أو تقديم التحية أو اقامة الصلاة الى جانب تصوير الواقع. د. محمود زيدان ، مناهج البحث الفلسفى ، البحترى اخوان ، بيروت ، ١٩٧٤ ص ٧٦ .

(١) د. أحمد أبوزيد «الفكر واللغة» فى مجلة عالم الفكر المجلد الثانى العدد الاول ١٩٧١ .

والأنثربولوجى المتخصص فى اللغويات قد يجيد عدد من اللغـــات وقد لا يجيد ولكن وظيفته تنحصر فى البحث عن اصل اللغات Origins of Languages وتعقيداتها وأشكالها الرمزية Symbolic Forms للاتصال ، محاولة تحليـل بنائها أو اعادة هذا البناء بقصد القاء الضوء على نموها تاريخيا منذ الوقوف على بداياتها ، وهم فى ذلك انما يحاولون تحديد المجموعه اللغوية بتحليل الأصل الواحد أو الأصول المتشابهه Cognates ويفترضون نماذج أوليه أو أصلية Proto Types ومن خلال محاولتهم تلك ونظرتهم الفاحصه للمتشابهات كتلك التى تصف المناخ أو النبات أو الحيوان أو الانسان فى المجمـــوعات اللغوية الرئيسية يقدمون لنا المفاتيح أو التفسيرات للمكان الذى نشأت فيه اللغـــة وهجرتها أو هجره أولئك الذين يتحدثون بها ، وهذا فى الواقع يدعم المادة التى يجمعها الاركيولوجيون من ناحية أخرى. وهم فى محاولتهم هذه يهتمون بلغات الانسان الجديدة والقديمة لدى الشعوب المتعلمة أو تلك التى تفتقر الى الكتابة بغيه الوصول إلى الملامح المشتركة . ففى منطقة جنوب السودان مثلا المنطقة التى تعيس فيها القبائل النيلية (كالدنكا والنوير والشيولك والانواك) والحاميه (المورلى والديدنجا والبويا والنوباسا واللاتوكا) والنيليه الحاميه (البارى والمندارى والمورو) وهؤلاء جميعا يشكلون نحو مليونين ونصف من السكان ويعيشون فى المديريات الجنوبية الثلاث (بحـــر الغزال والمديرية الاستوائية وأعالى النيل) يتكلمون اثنى عشرة لغة تنتمى الى أربعة مجموعات لغوية أو أصول متشابهة رئيسية كمجموعة اللغات البارية واللهجات المرتبطة بها كالبارى واللاتوكا ـ ومجموعة اللغات المادية كالمادى والمورو ـ ومجموعة اللغات الازنديه كالموينى والكريش[1] . هنا فإن البـــاحث الانثربولوجى

(١) محمد عمر بشير ، جنوب السودان ، ترجمة أسعد حليم ص ٢٤

المتخصص فى اللغة يحاول قدر استطاعته باستخدام المنهج المقارن أيجاد الملامح المشتركة بين اللغات وفهم العمليات التى عن طريقها تختلط اللغات واللهجات وتتداخل لتكتسب تنوعها الحالى ، ولاشك أن هناك فى هذا المثال السابق الاشارة إليه الآن قدر كبير من التداخل والتقارب بين اللغات واللهجات ، فى حين نجد أن لغات أخرى تكاد تكون بعيدة كل البعد وليس هناك تشابه على الاطلاق ؛ أن مهمة الباحث اللغوى أن يقدم لنا الاستفسارات والإجابة على هذه التساؤلات :

هل هناك أصول مشتركة لهذه اللغات ؟

هل هناك تطور لغوى خلال التاريخ ؟

ما الصلة بين اللغة والفكر السائد والذى يعكس ثقافة متباينة ولو نسبياء على الرغم من تواجد هذه الجماعات القبلية فى منطقة جغرافيه محدوده ... الخ الى غير ذاك من التساؤلات المرتبطة بنقل التراث الثقافى بما يحويه من معتقدات ومثل عليا وتقاليد ... باختصار أن المتخصص فى اللغة انما يحاول القاء الضوء على الدور الذى تلعبه اللغه فى الثقافات المتباينه ، والدور الذى تقوم به داخل الثقافة الواحدة على سبيل المثال ، ما العلاقه بين اللغه والمركز الاجتماعى ؟ ، أو العلاقه بين اللغه والرموز التى تستخدم فى أداء الشعائر الدينيه وتلك التى تستخدم فى الحياه اليوميه ، والصور والإشكال والتعبيرات المستخدمة للتعبير عن النواحى الجماليه فى ثقافه ما .

* * *

وهكذا نجد أن اهتمامات الانثربولوجيين تختلف و تتنوع وأن الكل منها مناهجه وأساليبه الخاصه ، وأن الباحثين فى الانثربولوجيا الاجتماعية أو الاثنولوجيا أو الاركيولوجيا أو اللغويات أو التطور الفيزيقى يتعاونون معا ليقدموا لنا فى النهاية المزيد من الفهم للانسان ، ومن ثم فإن التساند بين هذه الفروع المختلفة للانثربولوجيا ضرورة لاتمام الفهم الكامل للانسان فى علاقته بالمجتمع والثقافه ، يرى Peter Hammond أن ثمة ارتباط وثيق بين تطور الانسان والنمو التدريجى لقدراته البيولوجيه والثقافه ونموها أو تطورها[١] . فالانثربولوجى الفيزيقى يحتاج للاثنوجرافى مادامت الخصائص الجسميه لأى شعب ترتبط بأشكال الحياة وأسلوب المعيشه واعداد الطعام وطرق تربيه الأطفال والدين والممارسات السحريه ... الخ .

ومن ناحيه أخرى فإن الانتوجرافى فى أمس الحاجه إلى الالمام باللغه المحليه إذا ما أراد دراسة الثقافة حتى يمكنه إدراك الاشكال المحليه للتفكير والمتضمنة أساسا فى اللغه أو التى تعبر عنها تلك اللغة ، ومن ناحيه ثالثه نجد أن الاركيولوجى عاده ما يحتاج الى الاثنوجرافى ليساعده على تفسير موجوداته تماما كما يحتاج إليه الاثنوجرافى حين يريد الرجوع الى الوراء لالقاء الضوء على تاريخ شعب أو ثقافه ما من الثقافات .

والواقع أن اتساع نطاق المعرفة وتعدد المجالات قد جعل من الصعب الى حد كبير على أى فرد مهما كانت قدراته ومهاراته خلال عمره القصير أن يكتسب مهارات فى كل هذه الفروع والتخصصات ، وإذا كان من المألوف

(1) Ibid, p. 4

الآن أن يتحدث الكتاب والباحثين عن البحث المتكامل والذى يقوم به عدد من المتخصصين فى الفروع المختلفة . فإن هـــذا ينطبق الى حد كبير على الانثربولوجيا حيث يعمل كل فى نطاق تخصصه من أجل المزيد من المعرفه والدعم المتواصل والمستمر بتقديم المادة التى تصف السلوك الانسانى وتفسيره فى مختلف الاوضاع الاجتماعية والثقافيه والسيكولوجية والبيئيه فى مختلف الازمنه والعصور .

* * *

الفصل الثانى

المنهج فى الانثربولوجيا الثقافية



أن الانثربولوجى يعمل دائما فى نطاق من المعرفة النظرية ، وإذا كان ثمة اعتماد على الدراسة الحقلية كوسيلة أساسية لجمع المادة فان ذلك من أجل اختبار النظرية أو ألقاء الضوء على بعض المشكلات المرتبطة بهذه النظرية أو تلك وربما كانت ابحاثهم الحقلية تستهدف الوصول إلى نظرية ماأو على الأقل من أجل استنباط الفروض العلمية خاصه فى الدراسات الاستكشافية أو بعض الدراسات الوصفية . يذهب Plog و Bates إلى القول بأن الانثربولوجيين انما يهتمون بتقييم النظرية التي يجرون بحوثهم فى ضوئها وأن هذا يشكل الأساس لعلمية التنظير Theorizing والتى تدفع الجهود الميدانية للبحث العلمى(١) بقصد الوصول إلى نوع من المعرفة المعتمدة عليها ، ولاشك أن أحـــد الخصائص المميزة للانثربولوجيا الثقافية هو اعتمادها على الدراسة الحقليه والتى تهدف إلى رؤيه الثقافة المحلية أو الثقافات المتباينة وتعتبر بمثابه « التجربه العملية » التى تقابل « المعمل » بالنسبة للباحث فى العلوم الطبيعية ، ومن ثم فان هناك أساليب خاصه للبحث الميدانى تمكن الباحثين من الحصول على المـــادة الاثنوجرافية وثيقة الصله بالسمات والمكونات الثقافية من عادات وتقاليد وطرق شعبية وسنن اجتماعية وشعائر المرور وسحر واساطير وقانون ودين وفولكلور وعمليات للتكريس الخ من أجل الوصف التحليلى الذى يبرز ملامح الثقافة ويمكن من الوصول إلى النظرية ، وسوف نعالـج فيما يلى الاجراءات أو الجوانب الرئيسيه لما يسمى بالدراسه الحقلية او الطريقة الانثربولوجية لدراسه المجتمع .

---

(1) Plog & Bates , Cultural Anthropology , Alfred A. Knopf, Inc. N. Y. 1976, P 55.

أولا : مرحلة ماقبل الدراسه الحقلية :

فى الحقيقة أنه لايمكن القيام بالدراسة الحقلية أو الميدانية دون أن تكون لدينا معرفة عميقه بالنظرية الانثربولوجيه والتي تدفع البحث وتحركة هـذا من ناحيه ومن ناحيةأخرى حتى يكون الباحث على وعى تام عند تطبيقه للادوات والأساليب المنهجيه المختلفه كالملاحظة بالمشاركه أو المقابلة Interview أو فى محاولاته تحقيق الملاحظه الاحصائيه أواستخدامه للاختبارات السيكولوجيه Psychological Tests أووسائل أخرى تمكنه من جمع الماده المتاحه وتفسيرها بطريقه علميه. ومن البديهى أن يشغل الباحث نفسه منذ البدايه بتصميم البحث أو وضع الخطه العامـه لمشروع بحثه ، فلقد كانت الدراسات أو الكتابات الحقليه الأولى كما يقول يفانز برتيشارد Evans Pritchard تميل إلى الوصف والرد الخالص ولاتكاد تهتم بالتحليل المنهجى إلا فى القليل النادر [١] . إذ كان الباحث يوجه كل اهتماماته وقدراته من أجل وصف الثقافه المعطاه ، مجرد وصف وسرد لما لاحظه أو سمعه من ثقافه ما ، ولكن تصميم البحوث وتنفيذها يعنى أولا وقبل كل شىء التركيز على موضوع معـين فعلى سبيل المثال :

ما العلاقه بين أساليب تربيه الطفل وبناء الشخصيه .

ايكولوجيه التنشئه الاجتماعيه .

شعائر التكريس عند قبائل الدنكا .

علاقات التحاشى فى جنوب السودان .

---

(١) ايفانز بريتشارد ، الانثربولوجيا الاجتماعيه ، ترجمه د. أحمد أبو زيد الهيئه المصريه العامه للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ١١٤ .

الطرق الشعبيه والسنن الاجتماعية عند قبائل النافاهو .

وكما هو واضح فإن الباحثين يحاولون بجهد استطاعتهم تحـديد المشكله تحديد دقيقا والبعد عن الموضوعات غير المحددة كما كان الحال فى القرن التاسع عشر ، والتى قد تحول دون الوصول إلى معرفه على درجه عالية من اليقين ، وقد دفعهم إلى هذا الاتجاه أدراكهم أنه من الصعوبه بمكان أن نتعلم كل شيء عن الثقافة في أشهر قليلة فإذا ماركز الباحث الحقلي على موضوع محدد استطاع الحصول على ماده أكثر عمقاً ، وثيقة الصلة بموضوع بحثه ومن ثم فإن موضوعا مثل السنن الاجتماعيه عند هنود النافاهو أوأساليب تربية الطفل وبناء الشخصيه يجعل الحصول على الماده Data المطلوبة أمراً ميسوراً، وبالطبع فإن مثل هذه الموضوعات لاتحتل مكانا فى فراغ ومن هنا فان الباحث يهتم بجمع ماده عن أوجـه أخرى من الثقافة التى يدرسها ، ولاشك أن الخلفية النظرية للباحث والقراءات التى استوعبها يمكن أن يفيد هنا فى تحديد هذه الأوجه الأخرى ، أن تحديد للموضوع تحديداً دقيقاً يستهدف الابتعاد عن التعقيدات التى تجعل المادة خادعه ويصعب الحصول عليها وبالتالي تفسيرها أو تحليلها .

وأيا كان الأمر فان النظرية التى يختارها الباحث ليجرى بحثه فى ضوئها سوف تؤثر عليه عند صياغة الفروض العلمية كما أنها سوف تؤثر على نـوع الاسئله التى يثيرها وبالتالى نـــوع المعلومات التى يسعى للحصول عليها ، وعلى سبيل المثـال فإن نظريات الضبط الاجتماعى التى تـركز على دور العرف فى المجتمعات القبليه سوف توجه الباحث إلى نوع معين من الماده ، فى حين نجد أن النظريه السياسية التي تركز على الصراع والمنافسه سوف توجه الباحث إلي نوع آخر من الماده المغايرة .

فإذا صاغ الباحث فروضه والتى يجب أن تصاغ كما يقول Bates وأخرون بطريقه واضحه يمكن البرهنه عليها [1] فإنه يجب أن يشرع فى .

(١) تحديد المفاهيم Concepts المختلفة وثيقه الصله بموضوع بحثه .

(٢) تحديد العينة Sample التى سوف يجرى دراسته عليها ، بمعنى أن يحدد النطاق البشرى وكذلك المجال الجغرافى الذى سيمارس تجربته الميدانيه فيه ، إذ أن ثمه ارتباط وثيق بين هذين المجالين ، وربما أفادنا إلى حد ما أن نشير بايجاز إلى تحديد جيمس كليفتون James Clifton للخصائص أو الملامح المميزة للوحده التى يمكن أن نتخذها أساساً للدراسه .

(ا) يجب أن تشتمل على جماعه من الأشخاص يشغلون منطقه معينه ، ويشتركون فى ذاتيه مشتركه (أسم واحد) بما لديهم من تاريخ ووراثه ومعتقدات واحده .

(ب) أن تكون لها ذاتيه أو كيان اجتماعى مدرك من قبل الجماعة الانسانيه ذاتها .

(جـ) أن تتحدث لغة مشتركه أو لهجات متبادلة مفهومه ومدركه .

(د) أن يبدى أفراد هـذه الجماعه درجه عاليه من التفاعل الاجتماعى Mutual Interaction

(هـ) يمكن تمييزها فى ضوء مصطلحات ديموجرافيه على سبيل المثال حد ادنى من حجم السكان أو وجود الجنسين أو الاجيال الثلاثه ــ جيل الاجداد والاباء والأبناء وهكذا .

(و) لديها سمات ثقافيه Cultural traits مشتركه مميزة لها عن الجماعات الاخـــرى .

---

(1) Bates, op. cite P 40

فإذا ما اجرى الباحث دراسة عن الطرق الشعبية عند الدنكا Dinka مثلا فانه سيجد أن مجموعه القبائل الدنكاوية لديها هذه الخصائص أو الملامح جميعها ، فهم مجموعة من الاشخاص ينتمون الى أصل واحد لهم ذاتية وكيان متمايز ، يتحدثون مجموعة من اللهجات يمكن أن يطلق عليها اللغة الدنكاوية ولديهم سمات ثقافية تميزهم عن بقيه قبائل السودان الجنوبية المحيطة بهم كالبارى والنوير والشولك ... الخ .

ومن ناحية أخرى يجب أن يكون الباحث الحقلي على درايه بالاساليب التى سوف يستخدمها فى جمع الماده فاذا ما اختار مشكلة البحث وصاغ فروضه العلميه وحدد مفاهيمه فانه يمكنه الذهاب للدراسه الحقليه ليستخدم أساليبه الخاصه لجمع الماده المطلوبه وسوف نشير فى الجزء الثانى « مرحلة الدراسة الحقليه » إلى بعض هذه الاساليب في شيء من التفصيل .

ثانيا : مرحلة الدراسة الحقليـة .

يذهب الباحث الانثربولوجى إلى منطقة البحث بعد اتصاله بالمسئولين فى المنطقه أو بعض الشخصيات التى قد تقدم له بعض التسهيلات الخاصه بالاقامه مثلا أو الانتقال أو ما شابه ذلك ، وقد يقضى وقتا مضنيا لمجرد الحصول على اذن بالدراسه الميدانية أو للبحث عن مسكن يأويه خيمه أو كوخ وسط القبيلة أو القريه أو التجمع السكانى الذى يريد دراسته أن أول ما يشغل ذهن الباحث فى أى مكان ومهما كان موضوع دراسته أو طبيعة المجتمع أو الثقافه التي يدرسها هو بناء علاقه وطيده مع أولئك الذين سيمضى بينهم بعض الوقت ، وهذه تمكنه دون شك من أن يلاحظ عن كثب مختلف مظاهر الحياة اليوميه فى قراهم وخيامهم ... وتلك تتوقف الى حد كبير

على مـدى نجاحه فى تدعيم الصداقة والرفقة وحسن الجوار . أن بعض الناس لايرون أن ثمه شيئا غريبا غـير مألوف من وجود انسان غريب يريد أن يتعلم وأن يلقى الضوء على أساليبهم وطرقهم فى الحياة ، فى حين أن الغالبية العظمى قد يسيئهم وجود الغرباء ويثير الريبه والشك فى نفوسهم ، ومن هنا فإن دخول الباحث أو الباحثين إلى المجتمع وتقبل المجتمع لهم ليس بالأمر السهل اليسير ويحتاج إلى الكثير من المعاناه ، وضبط النفس والمحاولة المستمرة لكسب صداقاتهم وتأييدهم واستحسانهم لتصرفاته وسلوكه ، وأن يبدو دائما فى حالة نفسية مقبولة ،لاداعى للغضب لأن هذا سيؤدى حتما إلى حدوث توتر يصعب التخلص منه . وفى هذا يقول D. Jones والذى اشترك مـع Lahu فى بحث اجرياه فى تايلاند الشمالية أنه يجب التظاهر بالنزاهه وعـدم التحيز أو التأثير وألا يبدى الباحث استياءه أو تقززه تجاه العادات والتقاليد السائده والمغايرة لعاداته وتقاليده الخاصة ، فقد يجد أنه يتحتم عليه أن يقضى حاجته الطبيعية فى الخلاء كما تفعل الكثير من القبائل الافريقية وأن يشرب ميـاه الآبار أو الخيران وأن يتناول من الاطعمه مالم تخطر له على بال من قبل سواء فى طريقه اعدادها أو مكوناتها ، وهذا من السهل تحقيقه لأن الباحث فى الحقيقه لايجد بديلا عن بناء هذه العلاقة ، فقد يتوقف مستقبله العلمى أو الوظيفى على نجاح هذا البحث أو فشله .

ولايتوقف تقبل أفراد المجتمع للباحث الميدانى على مدى قدرته وامكانيته فى دعم العلاقات وبنائها ، وإنما يتوقف أيضا على طبيعة الأفراد فى هذا المجتمع فلقد أثبتت التجربة الفعلية من خـــلال الابحاث التى ساهمت فيها أثناء عملى بمركز البحوث بالجامعة الأمريكيه بالقاهرة أو اثناء مشاركتى فى البحوث

التى قام بها قسم الانثربولوجيا بجامعه الاسكندرية أو تلك التى قمت بها فى فترة تواجدى بجامعة أم درمان الاسلامية بالسودان أن الجماعات تختلف من حيث تقبلها للباحث الميدانى واستعدادها للتعاون معه،فجماعه النوبيين في جنوب مصر يختلفون عن جماعه المنتفعين فى الأرض المستصلحة فى منطقة أبيس شمال غرب الدلتا ، وهاتان الجماعتان تختلفان عن جماعه البدو فى صحراء مصر الغربيه وهؤلاء جميعا يختلفون عن الجماعات القبليه التى تعيش فى جنوب « الدويم » عاصمه محافظة النيل الأبيض كقبائل الحسانيه التى تقيم في « وكره » و « الميندريب » و « الدجالة » وهؤلاء يختلفون إلى حد كبير عن جيرانهم فى محافظة النيل الأزرق فى منطقة جبال الانقسنا ومن ثم فان تدعيم العلاقة وإقامة الصداقة مع الأفراد المحليين يتوقف على عوامل كثيرة لعل أهمها الطريقة التى يدخل بها الباحث إلى المجتمع ومدى تقبلهم للتبريرات والاسباب التي يقدمها الباحث ليحدد الهدف من الدراسة ، وبالتالي تقييمهم لأهمية هذا البحث بالنسبة إليهم ، وينصح عاده أن يلجأ الباحث إلي شخص ذو تأثير فى الجماعه المحلية يتولى بنفسه تقديم الباحث وتبرير أسباب مجيئه هذا من ناحيه ، ومن ناحيه أخرى فان الالمام – ولو جزئيا – بلغة الأهالى أو لهجتهم من الأهمية بمكان ، بل يمكن القول أنها أيسر الطرق التى تمكن الباحث من الاتصال فى سهولة ويسر . وتكون خير معين له على جمع أكبر قدر من المادة الاثنوجرافية فى أقصر وقت ممكن فاذا تمكن الباحث من لغة الأهالى أو لهجتهم فإن هذا يقلل إلي حد كبير من اعتماده على الاخباريين Informants ، كما أنها تمكنه من الفهم الدقيق لكثير من المصطلحات أو المفردات التى يستخدمونها في مواقف خاصة وبديهى أن استخدام لغة الأهالى أو لهجتهم يخلق جوا من الألفة

والمودة فيما بينهم[١] .

ولاشك أن تواجد الباحث فى الثقافه الغريبة ومحـــاولة التكيف المستمر والجهد الذى يبذله من أجــــل بناء العلاقة، والحاجه الى الاصدقاء ومظاهر الحذر والشك والريبه ممن حوله من الناس يزيد شعوره بالوحده والعزله خاصة فى الاسابيع الأولى ، يذهب Powder Maker الى أن ما من باحث يعيش مثل هذه الظروف إلا وتساءل ماذا أفعل هنا بمفردى وفى هذا المكان ؟ ومن أجل أى شيء ؟ ويخبرنا Daniel Bates و Fred Plog أن Chagnon قد قرر العودة بمجرد رؤيته للمنطقة التى سوف يدرسها[٢] وأيا كان الأمر فانه مع مرور الأيام ومحاولته المستمرة للتكيف مع الجماعة المحيطة به والاختـــلاط بالناس فى حياتهم العامة فى الاسواق والمحلات التجارية وفى المركبـات أو المواصلات والمشاركة فى الشعائر الدينية أحيانا وتبادل التحية أو الحديث مع الآخرين . . يبدد شعور الباحث بالوحدة بعض الشيء، وفى الحقيقة أن توالي الأحداث والوقائع أو المواقف لا تلبث أن تقدم للبـــاحث الفرص المواتيه للدخول الى المجتمع وبناء العلاقات التى يسعى إليها منذ البداية ...

فتبادل التحية المستمر عند المرور ببعض الأفراد أو المشاركة فى شعائر الصلاة أو التواجد المستمر حيث التجمعات السكانية أو تقديم بعض الخدمات الي بعض الأفراد أو اللجوء الى آخرين بقصد الاستشارة أو طلب المعرفة .. كل هذا كفيل بتقديم الفرصة المواتية لبناء العلاقة ـ وأذكر اننى فى أثنـــاء

(١) فاروق اسماعيل ، العلاقات الاجتماعيه بين الجماعات العرقيه ، الهيئه المصرية العامه للكتاب ، ١٩٧٥ ص ٧٤

(2) Powder marker, H.; Stranger and Friend: the Way of An Anthropologist; New York, 1966, p. 61

قيامى بدراسة ميدانية فى جبال الانقسنا فى منطقه «باو» فى السودان انى ترددت على أحد الكجوربين ممن يعملون بعلاج المرضى وأبديت أعجابى بطريقته فى العلاج ومعرفته الواسعه «للعروق» ، وكان هذا فى حد ذاته كفيل بأن قدم لى مادة مستفيضة وثيقة الصلة بنوعية الامراض وأساليبه فى العلاج .

وسوف نعرض فيما يلى لبعض الطرق الانثربولوجيه والتى يعتمد عليها الانثربولوجيون خاصه أولئك الذين تخصصوا فى الاثنولوجيا مبتدئين بمنهج الملاحظة بالمشاركة Participant Observation هذا المنهج الذى يعتمد عليه أساسا في الدراسات الاثنولوجيه ، ولاشك أن له أهميـة خاصة إذ أنه يجعل من الممكن تسجيل السلوك من حقائق ووقائع أثناء حدوثه وهذا على النقيض من الوسائل الأخرى التى تقوم فى أساسها على استعادة الاحداث الماضيه أو التوقع Anticipation لما سوف يحدث[1] . وهذا الأسلوب يجعل الباحث الميدانى على اتصال وثيق بحياة المجتمع وثقافته ، لقـــد كان مالينوفسكى Malinowski أول عالم متخصص قام بدراسة حقلية استخدم فيها لغه الاهالى عام ١٩٢٢ في جزر التروبرياند ، وقد سجل لنا خبرته الميدانيه وثيقـة الصلة بمنهج الملاحظة بالمشاركة فى مقدمة كتابه Argonauts of the Western Pacific، يقول «وما ان عشت في Omara Kana حتي بدأت أشارك فى حيـاة القرية واحتفالاتها . . استيقظ حين يستيقظ الاهالى كل صباح واترك مسكنى فى جوله يمكننى من خلالها أن أرى الكثير من التفاصيل عن الحيـــاة الأسريه اليوميه ، كيف يقضون حاجتهم أو يطهون طعامهم أو يتناولون وجباتهم ، كيف يعدون العدة للعمل اليومى أو يمارسون نشاطهم هنـا وهنـاك ، وبين

(1) Bates & Plog, op. cite p. 51.

الحين والآخر أرى المشاحنات والمشاجرات والمداعبات فضلا عن حيـــاتهم الأسرية ، أن الاحداث التى تقع وتتوالى على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لي لانها تشكل محور حياتهم[1] . وأيا كان الأمر فإن الباحث الميدانى يشعر منذ البدايه أن هناك معلومات ذات أهميه بالغه متاحه له فى سهوله و يسر لمجرد ممارسته لعملية الملاحظة ، يبـدو أن هنـاك فروق فرديه واضحـه بين الأفراد الملاحظين اذ نجد أن بعض الأفراد لديهم مهارة عاليه بينما يفشل الآخرون لان يلاحظوا أو يتذكروا الكثير من التفـاصيل ، يقول Perttie J. Pelto فى كتابه البحث الإنثربولوجى Anthropological Research ، أن بعض الافراد لديهم قدره بارعه لملاحظه كل دقائق الموقف ، وان الافراد يختلفون فى نظرتهم للاحداث والوقائع التى تستأثر باهتمامهم ، فالمرأة الأمريكيه على سبيل المثال أفضل من الرجل فى ملاحظه أو استعادة التفاصيل المتعلقه بالملابس أو الالوان أو تكوينات الديكور أو الزينه وما إليهـا ، والمزارع لديه قـدرة تفوق الشخص العادى فى ملاحظته للادوات والمعدات والاساليب الزراعيه التى يفتقدها سكان المدينه من غير الزراعيين ، باختصار أن كل فرد له مجال من الاهتمامات والخبرات الخاصه التى تؤثر فى ملاحظته ، وان الباحث الميدانى لابد له أن يكون على وعى تام بمـواطن القـوة أو الضعـف فى أسلوبه فى فى الملاحظه وأن يكتشف تحيزه للاحظه أشياء دون أخرى ، ولكى ينمى قدراته وأسلوبه فى الملاحظـه فانه فى أمس الحـاجه لان يتعلم كيف يوجه

---

(1) Maiinowski, Bronislaw, First Published (1922), Argonauts of the Western Pacific, N. Y. Reprinted by permission of E, P. Dutton & Co. Inc. 1961. pp. 7 - 8.

اهتماماته للملامح أو الأشيــاء التى اعتاد أن يتجاهلها[1] . ولاشك أن عمليه الادراك (الملاحظة) ذاتها تتأثر بالاتجاهات النظرية Theortical Orientation الي حد كبير ، فالانثربولوجى وثيق الصلة بالنظرية النبــاتية الوظيفيــة Structural Functional theory سوف ينظر الى الاحتفـالات الشعائرية أو الي دور « الكجور » فى القبائل النيلية السودانية نظرة مغايرة لتلك التى ينظر بها ذلك الذى يهتم بعمليات الانتشار التاريخى ، فالأول ينظر الى الكجور من حيث تأثيره وعلاقته بالنظم أو العلاقات الاخرى السائدة فى هذا المجتمع وهذا مستمد من نظرته الى أن المجتمع نسق واحد يتألف من عدد من العنــاصر المتداخلة والمتشابكة والمرتبطة معا ، أما الآخر فإنه يهتم بالكجور كظاهرة جاءت الي السودان من الكونغو وأن ممارساته لا تختلف في كثير عن ممارسات البولوكى الكنغولى مثلا .

والباحث الملاحظ سوف يواجه حتما منذ البداية صعوبات الاختيار لما سوف

(1) Peito, Perttie J., Anthropological Research: the Structure of Inquiry Harper. Row Publishers, New York, 1970. p. 92.

(*) الكجور ذلك الشخص الذى له درايه بالأعشاب السـامة ، يكتب التعاويذ ويستعين به البعض لدرء الخطر أو الحاق الضرر بالاخرين ، كما أنه على معرفه بالأعشاب والنباتات ، يقوم باعداد العقاقير وفق نوع المرض ، له صلة وثيقة بمرضاه ، يرتدى ملابس خاصة تميزه عن أفراد الجماعة تخفى بهـا ملامحه ، يجلس فى مكان منعزل وقد احـاط نفسه بعـــدد من فقارات الحيوانات والصقور بصفة خاصة وكذلك العظام وجذور الشجر بقصد احاطة نفسه بجو من الغموض .

(محمد عمر بشير ، المرجع السابق ، ص ٨٠) .

يلاحظه أو يجمع عنه المادة . ولاشك أن تحديد الموضوعات التى سيطرقها الباحث والتى ترتبت على القراءات المتعددة التى استوعبها من ناحيه وعلى الفروض التى صاغها والتى حددت له سلفاً نوع المادة الا كثر اتصالا وبالتالى ماذا يلاحظ على وجه التحديد ، فلنفترض اننا نريد دراسة وسائل الضبط الاجتماعى فى احدى القبائل السودانية كالحسانية مثلا، حينئذ يجب على الباحث أن يوثق علاقته « بالاجاويد » أو « العواقل » أولئك الذين يناط بهم تسوية المنازعات ووضع حد للخلافات بين الافراد أو الأسر ، هذا فضلا عن اتصاله بما يسمى بالمحاكم الشعبية والتى انشئت منذ نحو سبع سنوات للفصل فى القضايا البسيطة بين أهالي هذه المناطق ، وكذلك مراكز الشرطه المنتشرة بين هذه الجماعات، هذا بالاضافة الى ملاحظة المشاجرات والمشاحنات التى تقع فى «الحلال» (*) من وقت لآخر سواء فى الطرقات أو الاسواق العامة أو عند موارد المياه ... أن محاولاته هذه سوف يتيح له الفرصه لأن يتعرف على موضوعات النزاع وأسبابها وأطرافه الاجراءات التى اتخذت من أجل تصفية هذه المنازعات سواء على ايدى الاجاويد أو القضاه الشعبيين أو القضاه الرسميين المقيمين بالمدينة ... الخ .

وعادة ما يلجأ الباحث إلى تسجيل كل شيء لاحظه أو سمعه على الفور ، وتلك طريقة قد يلجأ إليها الباحث منذ البداية ، إلا أن التجربه قد أثبتت أن هذا الاجراء قد يثير بعض المشاكل المتعلقة بطريقة التسجيل أو تصنيف المادة أو الرجوع اليها، يذهب Whitings فى هذا الصدد الى القول يجب على الباحثين

(*) ومفردها حله وهى أشبه بالقرية أو التجمع وغالبا مايسكنها اشخاص ينتمون الى اصل قبلى واحد كما هو الحال فى منطقة « الوكره » و« المندريب» « والدجاله » ... جنوب الدويم عاصمة محافظة النيل الأبيض .

أن يركزوا على موضوع واحد في وقت واحد بدلا من محاولة تسجيل كل شيء على الفور ، يجب أن يقرر الباحث منذ البداية هل سيهتم بالمناشط أو الافراد أو الأماكن أو السمات المادية أو التفاعل بين الافراد أو الجماعات[1] فاذا ما اختار الباحث على سبيل المثال علاقة التحاشي Avoidance السائدة لدى قبيلة الدنكا مثلا فانه يركز على التفاعل القائم بين الحماة mother in law وبين زوج الابنه Son in Law ، كيف يعامل احداهما الاخر منذ خطبة الفتاة وجو الكلفة المصطنع القائم بينهما والخجل وتحاشى النظرات المتبادلة وعدم تناول الطعام فى دارها ، وسؤالها أو الحديث إليها من وراء حجاب، والتأدب فى مخاطبتها (مناديا اياها يا أمى) ، واسراعها لغطاء رأسها بردائها أو قطعة من الجلد لمجرد رؤيته عن بعد ، وكأنها تريد أن تقول له لا يجب أن تنظر الى لأننى ولدت لك هذه الفتاة التى ستتزوجها[2]، واذا ما أراد اختيار مناشط معينة مثل طريقة اقامة المسكن فى مجتمع محدد فانه ينبغى عليه أن يهتم بالمواد والأدوات التى تستخدم فى البناء ، طريقة اقامة المسكن ، وأن يتابع العمليات المختلفة والمرتبطة معا . وهذا لا يمنع بالطبع من أن يسجل الاحداث التى قد تقع فجأة دون سابق انذار والتى يصعب اخضاعها للملاحظة من جديد لانها قد تحدث مرة واحدة أو مرات قليلة وقد لا تحدث على الاطلاق أثناء اقامة الباحث في المنطقة ، كأن تقع حادثة « بزاوه » فى احدى القبائل لفرد من أفرادها اعتاد الاجرام والاساءه اليها ، أن مثل هذه الواقعة قد لا تحدث إلا فى القليل النادر أو كما هو الحال حين تتساقط السيول مدمرة المساكن أو

---

(1) Plog & Bates; op. cite p. 42.

(2) Deng M. Francis; The Dinka and their Songs; Oxford Library of African Literature, 1973, p: 41.

الاكواخ المصنوعة من « الجالوص » فى بعض مناطق السودان أو حين يعم القحط والجفاف وتندر المياه وتنفق عشرات الابقار وتموت عطشاً فى مناطق دارفور ... الخ أن مثل هذه الاحداث أو الوقائع يجب تسجيلها على الفور وأن يوجه الباحث اهتمام خاص بها لانها قد لا تتكرر فى المستقبل القريب ولقد صادفت فى أثناء قيامى بالدراسة الميدانية الكثير من هذه المواقف ، إذ بعد ست سنوات من تواجدى فى المناطق القبليه فى الصحراء الغربيه المصرية يعقد اجتماع يحضره ممثلون عن الادارة والبدو يستهدف تصفية إحدى المنازعات مع اختصار فترة « النزالة » (*) إلى خمسة عشر يوما يتم فيها تسوية النزاع ، والمعروف أن النزالة التقليدية تستمر نحو عام أو يزيد ، ومن ناحية أخرى نجد أن الاستعانة بالملاحظة لدراسة خصائص أو سمات الشخصية يمكن أن

(*) النزالة : إحدى السنن الاجتماعية الهامة التى تمارسها الجماعات القبلية فى حالتى القتل العمد والخطأ على اعتبار أن غيابها قد يترتب عليه أثار بعيدهفى البناء القبلى،وقد يؤدى إلى انتشار الثأر على نحو ماهو مشاهد فى ريفنا المصرى ومن ثم يرى العرف القبلى أن تنتقل عائلة المعتدى برجالها ونسائها للسكن والاقامة لدى عائلة أو قبيلة أخرى بقصد الحماية لمدة ١٢ شهراً يتم فى بدايتها تحديد الاماكن التى يحرم على أفراد العائله المعتديه ارتياد أسواقها أو آبارها أو مراعيها أو دروبها ، والقصد من التحديد هنا منع الاختلاط بين طرفى النزاع بقصد الحيلوله دون استفحال الموقف وتعقيده نتيجة لقيام محاولات الثأر مثلا .

(د. فاروق اسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية: دراسة فى التكيف والتمثيل الثقافى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندريه ، ١٩٧٥ ص ٢٤٦) .

تجـــدى من مجرد الاعتماد على الأساليب التى يستخدمها السيكلوجيون ، أن الباحث الملاحظ سوف يسجل ملاحظاته عن طريق اختياره لانماط محددة من السلوك يمكن اعتبارها كمؤشر هام بغية الكشف عن خصائص الشخصية مثل المسئوليه Responsibility والطاعــه Obediance والاعتماد الذاتى Self - Reliance وحب الاختلاط بالاخـرين Sociability والعدوانية Aggression ... الخ فان مهمة الباحث الملاحظ تتمثل فى تسجيل الأنمـاط المتباينة لسلوك الطفل فى فترة محددة كأن يحصي عدد المرات التى أصطبغ فيها سلوك الطفل بالميل للعدوان أو محاولة الضرب أو دفع الأخرين بكلتا يديه أو اصداره للاوامر أو توجيه الشتائم أو السباب ... وهكذا يستطيع الباحث عن طريق اعداد مايسمى بمفتاح الرموز أن يسجل الأحداث والوقائـع المتزامنه والمتباينه فى وقت واحد ومن ثم يتضح له أى الخصائص أو السمات أكثر تكرارا أو حدوثا (١) .

والواقـع أن تغيير بؤرة اهتمام الاثنولوجرافى أو بمعنى أكثر وضوحا تضييق مجال الملاحظه إنما يحدث تدريجيا ، فلو فرضنا أن أحد الباحثين اراد الكشف عن العلاقات بين الجنسين فى مجتمع قبلى يفرض الكثير من القيود على الاختلاط فانه سيوجه اهتماماته منذ البدايه عند القيام بالملاحظه إلى الطرقات والشوارع والدروب والمواصلات وموارد المياه وحيث تجمعات الجنسين في المزارع والمراعى الفسيحه ، ربما يحضر احتفالات الزواج ، تجمعات الجنسين حول المدارس والاسواق ... الخ . وبالتدريج وبعد تكرار عملية الملاحظة سيجد أنه من الافضل استبعاد الاسواق أو الشوارع العامة حيث الأختلاط

(1) Bates & Others, op, cite, p43,

محدود للغاية ، فى حين سوف يركز مثلا على موارد المياة حيث يختلط الجنسان ويمارسان نوعا من الغزل أو المداعبة ، أو احتفالات الزفاف حيث الاتصال بين الجنسين أكثر وضوحا وحيث تقع عمليات الغزل الصامت ، وقد يتجه بملاحظته إلى المراعى الممتدة الفسيحة والتى تتيح لقاء الجنسين بعيداً عن رقابة الآخرين . ولو فرضنا أن الباحث يريد أن يلقى الضوء على أساليب تنشئة الاطفال فى ثقافة ما ، فانه من المحتملا أن يبدأ بملاحظته الاوضاع التي تباشر الأم فيها ابنها ، ولكنه قد يكتشف أن الامهات فى مثل هـذا المجتمع غالبا مايذهبن إلي العمل و بالتالى فان تكرار الاوضاع التى تخضع للملاحظه محدود ، هنا قد يوجه الباحث اهتمامه وملاحظاته للاباء والاخوه أو الاخوات الذين قد يتولون مثل هـذا العمل [1] .

والواقع أن تسجيل المادة التي يدركها الباحث الملاحظ من الأهمية بمكان بيد أن هناك مشكلة تتعلق بكيفية التسجيل وهل يتم خلال وقوع الأحداث أو فى وقت لاحق ولاشك أن أفضل الأوقات للتسجيل هو تسجيل الوقائع وقت حدوثها حيث تتحقق دقـة المعلومات قبل أن يعتريها التشوية من خلال الذاكره ، ثم أن التسجيل بعد مضي فترة من الوقت قد يؤدى إلى الكثير من الغموض وفقد الكثير من المعلومات ، ولكن هناك مواقف تصعب فيها عملية التسجيل هذه لأنها قد تثير شكوك الموجودين فى مواقف الملاحظة أو تحدث اضطرابا فيه ، هذا فضلا عن أن الانشغال الاتنوجرافي المستمر قد يؤثر على عملية الملاحظة ذاتها ويفقده ادراك الأوجه المرتبطة بالظاهره التي يهتم بملاحظتها

---

(1) Selltiz , Johoda , Cook , Research , Methods in Socal Relations, Holt Rinehart & Winston, 1966. P 208 .

لتوزيع الاهتمامات بين الملاحظة والكتابة ، فلو فرض أن أحد الباحثين يلاحظ عن كثب أحد المجالس العرفية حيث تجرى المناقشات ويدلى المدعى بأقواله بينما يحاول الطرف الآخر الدفاع عن وجهة نظره وتبرير موقفه أو نفى التهمة الموجهة إليه، بينما هناك آخرون محايدون يدلون بآرائهم فلاشك أن استغراق الباحث فى الكتابة سيفقده الكثير من التعبيرات سواء اللفظية أو الحركية والتى قد يكون لها دلالة هامة فى تفهمه لجوانب من الصراع وللتغلب على هذه المشكلة ينصح الباحث عادة بأن يقوم بتسجيل مدته خلال حدوث الوقائع اذا كان التسجيل لا يثير فضول الناس أو ارتيابهم أو لا يشتت انتباهه ومتابعته للاحداث والوقائع كما هو الحال حين يلاحظ بناء مسكن أو عملية زراعية أو مظاهر الاحتفال بالزواج ... الخ فاذا ما ادرك الباحث أن تسجيله سوف يسبب له بعض الحرج فليؤجل هذا التسجيل الى وقت لاحق على أن يشرع فى الكتابة بمجرد انتهاء موقف الملاحظة وعودته إلى مسكنه على الفور حتى يمكنه أن يتذكر المعلومات وثيقة الصلة بموقف الملاحظة . يذهب Bates وآخرون إلى أن الخبرة تؤثر فى القدرة على التذكر وبالتدريج فإن الباحث يستطيع أن يسجل أجزاء هامة من الحديث لفظيا ، ومع ذلك فان هذه المادة فى حاجه إلى المراجعة ، وأن أفضل الطرق لتحقيق ذلك أن يقوم باحثان أو أكثر بعملية الملاحظه هذه ومن ثم تتاح لهما الفرصة للمقارنة ومراجعة التحيز ، وان كان عمل كلا منهما يبدو مستقلا منذ البداية ، وتتم المقارنة من واقع المادة المكتوبة، وتلك أفضل الطرق لاكتشاف الجوانب المبهمة أو التى يتجاهلها أحد الباحثين[1] . فاذا تعذر توفر أكثر من باحث فانه من المرغوب فيه أن تتكرر عملية الملاحظة فى مواقف متشابهة ، بيد أن

(1) Bates, op. cite p. 212

تكرار الباحثين أفضل بكثير لأنه يكشف عن الجوانب المباشرة للظاهرة موضوع الملاحظة ولا يدع الفرصة لاغفال بعض العناصر أو التحيز لجوانب دون أخرى .

والواقع أن عملية الادراك أو الملاحظة ليست من السهولة لانها لاتحدث كيفما اتفق الأمر الذى حدا بالبعض الي القول أن الملاحظة المباشرة ليست كافية في حد ذاتها لأولئك الذين يأتوز من ثقافات أخرى لأن الباحث قد يخطيء التفسير لما رآه لأول مرة ، يذهب Williams فى معرض حديثه عن مناهج الدراسة الحقلية في دراسة الثقافة (١٩٦٢) الى أن الانثولوجى قد لا تكون لديه القدرة على ادراك حقيقة الموقف فعلى سبيل المثال أن أحد الانثولوجيين رأى رجلا يعتدى على زوجته بالسياط فى مكان عام ، فظن أن هذا الرجل يمتهن زوجته ويسوء اليها بهذا الضرب المبرح ، وغاب عن ظنه أن كلا من الرجل والمرأة فى هذا المجتمع يعتقد أن الضرب بالسياط Flogging أفضل الطرق لابعاد المرض[1] . وهذا يعنى أنه يجب على الباحث الميدانى ألا يأخذ كل شيء سمعه ورآه على ما هو عليه والا يسرع الى تفسيره لأول وهله ، لأن الملاحظه المباشرة لا تخبرنا شيئا عن دوافع الناس وكوامنهم وماذا يعنى هذا الشكل من السلوك بالنسبة إليهم . تحذرنا Janoda و Cook وآخرون من أنه مع مرور الوقت يجد الباحث نفسه مندمجا فى الثقافه المحلية وهذا يجعله يأخذ كل ماكان يحاول تفسيره ويهتم بتسجيله على أنها أمور مسلم بها ، وهذا على عكس الحال فى بداية البحث حيث كان كل شيء سمعه ورآه جديدا بالنسبة

(1) Williams, T. R., Field Methods in the study of culture N. Y. Holt Rinehart & Winston, 1967, p. 24

إليه وغريبا عليه ، يثير تساؤله وحب استطلاعه فاذا ماأراد الباحث أن يتجنب ذلك أن يحاول كتابة تقارير متابعة Progress Reports على فترات متقطعة ، وعن طريق هذه التقارير المتواليه سوف يمكنه اكتشاف مواطن الضعف أو الماده التى يحتاج إليها أو التى يراد توضيحها وأن يوقف دراسته الميدانية لبعض الوقت حتى يستطيع أن يتعرف على أوجه النقص والقصور وما يحتاج إليه من مادة اثنوجرافيه[1].

وهذا يعنى أن الباحث إذا ماوجد أن الفتور قد أصابه من حيث اهتمامه بالملاحظه فعلية أن يسرع بترك العمل الحقلى لفترة من الوقت وأن يناقش ملاحظاته مع شخص ما خارج موقف الملاحظه ، وهذا بدوره لن يأخذ الأمور على علاتها وإنما سوف يناقشة ويساعده على ايجاد جوانب النقص والقصور ، هذا بالإضافه إلى أننا نجد أن الإمكانية العمليه لتطبيق الملاحظة محدوده وقاصرة على أحداث معينة ووقائع دون أخرى ، إذ أن بعض مايحدث فى الحياة من الصعب ملاحظته كالسلوك الجنسى والازمات أو الخلافات الاسرية بل والمعتقدات الدينية، فتلك لا تخضع للملاحظه المباشرة وأن استطاع الباحث أن يدرك بعض أبعادها .

* * *

(1) Seltiz & Johoda; etal, op. cite p. 201

ومن أجل هذا القصور في استخدام أسلوب الملاحظة نجد أن الباحث قد يلجأ إلى المقابلة Jnterview كأداه لجمع البيانات وهي نوع من المحادثه الموجهة التي يقوم بها الباحث مع الأخرين من أفراد الثقافة التي يرغب في دراستها وهي مصدر هام من مصادر المعلومات (*) وعادة مايركز الباحث على عدد من الاخباريين Informants ، وهذا لايعني أن الباحث سوف يقتصر عليهم إلا أنهم يشكلون أحد المصادر الرئيسيه للمعلومات التي تدور حول طرق الحياة التقليديه الحالية أو التي أو شكت على الاندثار أو تلك التي حورت وعدلت مع مرور الوقت ، يخبرنا Pelto أن الماده الوصفية المتاحة وثيقة الصلة بثقافة الهنود الامريكيين المتغيرة والمرتبطة بطرق الحياة التقليدية والتي أختفت إلى حد كبير قد اعيد بناؤها من أقوال الاخباريين حيث يتعذر تطبيق منهج الملاحظة بالمشاركه في حالة استعادة الأحداث الماضية [١] . ولاشك أن اختيار الباحث للاخباريين على قدر كبير من الاهمية لأن الافراد يختلفون من حيث وجـــود فروق فردية بينهم ومن حيث قدرتهم في تزويد الباحث

(*) هناك نوعان من المقابلة (١) المقننة Standardized (٢) غير المقننة . أما الأولى هي التي يحدد أسئلتها تحـــديدا دقيقا ، وتوجه الاسئله بكيفية معينة . . . الخ

أما الثانية فهي التي لاتحدد اسئلتها أو فئات الاستجابات فيها ويعتمد على هذا النوع بالذات في البحوث الانثربولوجية وهو الذى نعنيه حين نستخدم كلمة «المقابلة» وتتسم بالمرونة وحرية الباحث في التصرف عند توجيه الاسئله وفق استجابة المبحوث .

(1)Pelta' Pertti J. , op. cit P. 95.

بالمعلومات، بل أن تصورهم لثقافتهم ومحاولة تفسيرهم لنظمهم الاجتماعية والثقافية تختلف إلى حد كبير أيضا ، فهناك اخبارى يرى أن ثقافته التقليدية مثالية وأن نظرتهم للاحداث والوقائع نظره صائبة ، وأن عرفهم القبلى مثلا لديه القدرة على أحداث نوع من التوازن فى الحياة الاجتماعية وأنه أفضل الوسائل التى تدفع الانسان لتقبل المعايير السلوكية ، فى حين نجد اخبارى آخر يذهب إلى أن العرف لم تعد له الصلاحية لتحقيق مثل هذا التوازن أو أن يذهب أحدهم إلى أن زواج بنت العم هدف يسعى إليه الأفراد فى حين يرى آخر الخروج عن دائرة العلاقات القرابية،وطبيعى أن هذا يرتبط بخبرة الاخبارى الشخصية ووجهة نظره الخاصة وعـــوامل أخرى ترتبط بالسن والمركز الاجتماعى ودورة فى الجماعة ... الخ .

وأيا كان الأمر فإن هناك موضوعات معينة يمكن الاعتماد فيها على الاخبارى إلى حد كبير ، يذهب Frank و Ruth فى معرض حديثها عن مـدى كفاءه الاخباريين خلال دراستها الميدانيه التى أجرياها فى المكسيك (١٩٦١) إلى أن الاخباريين يمكن الاعتماد عليهم إلى حـد كبير فى تزويد الباحث الميدانى بالمعلومات وثيقة الصلة بالمظهر الفيزيقى أو الخـارجى للمجتمع أو تلك التى ترتبط بالمؤسسات والتنظيمات القائمة والادوار التى يضطلع بها وكذلك تاريخ المجتمع المحلى أو المعلومات التاريخية للجماعه التى يدرسها الباحث الميدانى (١) والنقطه الأخيرة هذه من أكثر الموضوعات التى يرغب أولئك الذين ينتمون إلى الثقافة المحلية الخوض فيها أو معالجتها ولاتختلف المجتمعات فيما بينها ــ فيما أعلم ــ عن هذا ، فلقد كان الاخباريون من قبيلة أولاد على (مصر) يدلون بمعلومات

---

(1) Ibid, pp. 96 - 97

مستفيضه بل أنهم يتحمسون للحديث عن تحركاتهم وحروبهم منذ دخولهم مصر وكيف أنهم انتصروا على قبائل الحرابى فى برقة ثم انتصاراتهم على قبائل الهنادى فى الصحراء المصرية ، وكيف أن سعيد باشا والى مصر حينذاك استنجد بهم فى حروبه الكثيره مع قبائل « الفرجانى » و « ربايع » وأنتصروا عليهم ... الخ ولايختلف هذا بأى حال عما وجدته من حماس لدى قبائل « الحسانية » جنوب الدويم عاصمه محافظة النيل الابيض بالسودان حيث افاضوا فى الحديث عن حروبهم وانتصاراتهم على « الشولك » و « الجموعية » و « الشكريه » و « الكنجازا » ... الخ .

بيد أن ثمة موضوعات أخرى قد يترددون فى الخوض فيها كتلك التى تتعلق بتغيير القيم الدينيه فى المجتمع المحلى مثلا واقد وجدت بعض الصعوبات من هذا القبيل فى محاولتى جمع المادهوثيقة الصلة بالقيم الوثنيه أثناء قيامي بالدراسه الحقلية فى منطقه « باو » فى جبال الانقسنا شرق السودان إذ يترددون كثيرا فى الخوض عن معتقداتهم وثيقة الصلة بالآلهة أو عبادة الاسلاف أو قد يتحرجون من تناولها كتلك التى تتلعق بالانحرافات الجنسيه ، ولاشك أن طول الفترة يمكن أن يخلق نوعاً من الثقه وتوطيد الصداقة بين الباحث والاخبارى وتجعله يدلى بالكثير من المعلومات التى كان يتردد فيها منذ البدايه إلا أنه ينبغى أن ندرك أنه مع مرور الوقت لاتلبث أن تؤثر شخصيه الباحث (والذى يلعب دوراً هاما فى صقل قدرات الاخبارى بالتدريج) نتيجة لتكوين مجموعه مشتركة من الاتجاهات والميول تجاه نوعية المعلومات التى يقدمها الاخبارى للباحث ، فالباحث الميدانى المهتم أساسا بالسمات أو الخصائص السلبيه للناس ، مخاوفهم واعتداءاتهم ، سلوكهم الانحرافي انما يحدد دون أن يدرى نوع

التدريب الذى يوجه الاخبارى ، إذ سنجد أن هذا الأخير سوف يحرص على تقديم المعلومات وثيقة اصلة بهذا الموضوع بالذات .

وايا كان الأمر فان الحصول على المادة من الاخباريين ميزة كبيره خاصه إذا ما أقترنت دائما بالملاحظه بالمشاركة والتى تعتبر بمثابه المراجعه والتقييم لمادة الاخباريين ، يحدثنا Williams (١٩٦٧) أنه بالرغم من أن جماعه Dusun يتجاهلون أو يتحفظون عند الحديث عن عـــدوانيتهم إلا أن سلوكهم يتسم بالعدوانيه الواضحه ، وأن ثمة تناقض واضح بين مايدلون به من العلومات وبين سلوكهم الفعـلى ومن ثم فإن الملاحظة بالمشاركة انما يمثلان وجهين منفصلين من الخبرة الميدانية ويمكن القول أن وظيفة الاخبارى تتمثل فى الاجابة عن تساؤلات الباحث والتى تظل مـوضع مـلاحظه الباحث وتساؤله أى أن هـــذه الاجابات لن تغنى عن الملاحظه العميقه المركزة التى تمكنة من المزيد من الفهم ، ومن ثم فانة من الطبيعى للملاحظ المشارك أن يدخل دائما وباستمرار فى حوار ومناقشة يستطيع من خلالها أن يحصل على قدر كبير من المعلومات ، ولاشك أن حصوله على المعلومات الموثوق منها يتوقف على مدى قدرته على اجادة الجوار والمناقشه من ناحيه ، وعلى تعدد الاخباريين من ناحيه أخرى ، ومـدى تمثيل هؤلاء الاخباريين لقطاعات المجتمع المتباينة كأن يكون هناك مثلا بعض الاخباريين ممن يعتبرون بمثابه العواقـل أو الاجاويد أو كبار السن فى المجتمع وأخرين ممن يمثلون فئه منتصف العمر وفريق ثالث يمثل الجيل الجديد من الشبان ، وأن كان التركيز على فئه دون أجرى رهن بموضوع البحث ، فلو فرض أن الباحث يريد دراسه أساليب الضبط الاجتماعى فى المجتمـع القبلى فإنه سوف يحرص على اختيار معظم

أخباريه ممن ينتمون الى الفئة التى يناط بها حل الخلافات وحسم النزاع وايجاد نوع من التسوية ؛ وهؤلاء قد ينحصرون بصفة خاصة فى كبار السن أولئك الذين يضطلعون بالقيام بمثل هذه الادوار .

* * *

وقد يلجأ الباحثون الى المقابلة المقننة Standardized Interview حين يريد تحقيق الملاحظة الإحصائية(*) لأن دراسة الظواهر بطريقة كيفيه لا تغنى عن الاستعانة ببعض الطرق الكمية ، وطبيعى أن هذه الملاحظة الاحصائيه تفيد

(*) اهتم الكثير من الباحثين والعلماء بالمعالجة الاحصائية فى الدراسات الانثربولوجية فى الـ ٢٥ سنة الماضية من أمثال Good & Hott (١٩٥٢) و A. Y, Kobben (١٩٥٢) و Closon (١٩٥٤) و Festinger Katz (١٩٥٣) و Beattie (١٩٦٥) و Bernard Philips (١٩٦٦) و Glock (١٩٦٧) .

وقد بدأ الإستعانة بالرياضيات فى مجال الدراسات الانثربولوجيه فى القرن ١٩ على أيدى تايلور (١٨٧٨) فى معالجته لموضوع « الزواج والنسب » أى منذ ٠٩عاما ثم تجددت الدعوة إليها فى أواخر الأربعينات من هذا القرن وظهرت بعض الدراسات (كتلك التى أشرنا إليها الآن) والتى نادى فيها أصحابها بضرورة العودة الى استخدام المنهج الاحصائى فى الانثربولوجيا الاجتماعية بعد أن طال اهماله منذ تايلور .

د. أحمد أبوزيد ـ البناء الاجتماعي، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٦٥ (ص ٥٨).

المجال للظن أو التخمين أو الملاحظة ، ولكن يجب عدم الاسهاب فى الاسلوب الاحصائى لانه سيحول دون فهم الواقع، وتحول الحقائق الاجتماعيه والثقافية الي كم هائل من النسب المئوية ومعاملات الارتباط والانحرافات المعيارية ، ولكن الملاحظة الاحصائية التى نقصدها تستهدف أولا وقبل كل شيء دعم المعرفة الانثولوجية عن طريق المقابلة المقننة والتى تعتمد أساسا على خطه معينة يتم تنفيذها فى وقت محدد وتستهدف الحصول على حقائق واتجاهات وأراء محددة ، وغالبا ما تعد استمارة المقابلة Interview Schedule وتختبر على مجموعة من الناس ثم تراجع وربما تحذف بعض الأسئلة غير الدقيقة أو تلك تأتى اجابتها غامضة ، وقد تعدل تلك التى توحى بالاجابة أو التى تحتاج الى تحوير أو تعديل فى الصياغة أو المضمون ، وقد تضاف أخرى استكمالا للفائدة المرجوه أو تحول بعض الأسئلة المفتوحة الى مغلقه أو العكس . ولن نفيض فى هذا الموضوع تفصيلا فلقد كتب السسيولوجيون الكثير فيما يتعلق بتصميم الاستمارة واختبارها وتنفيذها وكيفية اجراء المقابلة من استثارة الدافع لها الى تهيئه جو المقابله الى طريقه توجيه الأسئلة وتسجيل الاجابه ، وتحقيق ثبات وصدق المعلومات واعداد مفتاح الرموز بناء على احتمالات الاجابه ثم عملية التثقيب التى تستوعب عادة بطاقة من بطاقات الـ I.B.M, والتى تشمل على ٨٠ عمودا، ثم عملية الفرز والجدولة ليصبح لدينا فى النهاية مجموعه من الجداول البسيطه والمركبه يقوم الباحث باستخدامها وقد حشدت بالحقائق الكمية .

أن ما يهمنا أن نوضحه هنا فى هذا الصدد أن الملاحظة المباشرة والاعتماد على الاخباريين انما يشكلان لب المنهج الانثربولوجي ، ولكن الاعتماد عليهما

يعرض الباحث الانثربولوجى للنقد ، فلقد كان الرواد الأوائل يلفتون النظر إلى أهمية قياس الأشياء واحصائها ، كما أن القيام بمثل هذه المقابلات المقننة مرغوب فيه درءا لما يوجه من نقد للمادة الاثنوجرافية التى تجمع من عدد من الاخباريين بناء على الملاحظات الشخصية المتعددة والمتكررة من قطاع من الناس دون آخر ، إذ ليس هناك خطوات أو اجراءات قد اتخذت لتأكيد أن العينة ممثلة للسكان جميعهم ، ومن ثم فإن المادة المعطاه لا تكفى ، وبالتالى فان القارىء الناقد ليس لديه طريقه لتقييم مدى الاعتماد على صدق هذه المعلومات ، فاذا كانت الملاحظة بالمشاركة تتيح لنا فرصة الحصول على المادة بقدر من المرونة إذ أن الباحث يهتم عادة بتسجيل ما يراه من وقائع دون أن يتدخل فى واقع الأمر ، فان الملاحظة الاحصائية تحدد الإطار الذى يتحرك فيه الباحث ويمكن عن طريقها اثارة بعض الأسئلة التى يراد الحصول على اجابة عليها ، ومن ناحية أخرى إذا كان مجال الملاحظه المباشرة مفتوحا فان تطبيق الاستماره تحقيقا للملاحظة الاحصائية يحتاج الى اختيار عينه ممثلة فليس من المعقول أن تطبق الاستمارة على جميع مفردات المجتمع[١] .

ولاشك أن استخدام الانثربولوجيين لاستمارة المقابلة يختلف الى حد ما عن استخدام السسيولوجيين من حيث أن لديهم خلفية أو اطار عن الجماعة التي يدرسونها ، فعاده ما تأتى الاستمارة فى مرحلة لاحقه هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فانهم يضمنون استمارتهم أسئلة قد لا تهم الباحث السسيولوجى كثيرا ،

---

(١) د. فاروق اسماعيل ، العلاقات الإجتماعية بين الجماعات العرقية الهيئة المصرية العامة ١٩٧٥ ، ص ٣٠ .

وسوف نعرض فيما يلى وبايجاز لبعض الموضوعات التى تتطرق إليها استمارة المقابلة استمدت من عدد من البحوث الانثربولوجيـة كـذلك التى قامت بهـا اليزابيث كلوسن Elizabeth Closon فى دراستها لسكان هضبة Tongo (١٩٥٤)، وجون بيتاى John Beattie فى دراسته التى قام بها لجماعة Bunyoro ومؤلف هذا الكتاب فى دراسته لقبائل (السعادى) فى مصر (١٩٧٤) و (الحسانية) فى السودان ١٩٧٧ .

الانتماء العشائرى Clan Affiliation والانتماء العرقى Ethnic Affiliation، الاسماء البديلة Atternative Names * ، الانتماء الدينى Religions Affiliation، شعائر التكريس Initiation ، المهـر Marriage Payment ، القـرابه Kinship ، الملكية Property ، أو حيازة الأرض Land Tenure ، الزواج الداخـــلى Monogamy والزواج الاغــــترابى أو الخارجى Exogamy دفـــع الديـــه Dya Payment النـزالة Nizala ، عـلاقات التحـاشى Avoidance والمغازلةالصامته Silent Court ship، فضلا عن بعض الموضوعات الأخرى التقليدية والتى تندرج تحت كل منها عددا من الاسئلة . و بصفه عامة يمكن القول أن المقاييس الكمية أساسية لإقامة المقـارنة ولاختبـار التعميمات النظـرية حول الثقـافة الانسانيـة ومن ثم كان الاهتمام المتزايد للبـاحثين الانثربولوجيين فى استخدامهم للطرق الاحصائية واضحا فى الفترة الأخيرة .

* * *

(*) تبدو هذه الظاهرة بوضوح لدى النوير حيث نجد أن كل نويرى له اسمان اسم يطلقه عليه أبيه ، وآخر يسميه به رفقاؤه أو يطلقه على نفسه وغالبا مايكون اسم الثور الذى يقدم له والده عند الوشم .

ولا تقتصر الاساليب الانثربولوجية على منهج الملاحظـة بالمشاركة أو الاعتماد على الاخباريين أو المقابلة المقننة ، ولكنهم قد يلجأون الى استخدام تواريخ الحياة Life Histories أيضا من أجـل الحصـول على المزيد من المادة الاثنوجرافيه ، وان كان الاعتراض الاساسى يتمثل فى عدم القدرة على مراجعة هذه التواريخ كما يحدث عند مراجعة أقوال الاخباريين من واقـع التجربة الفعليه أو المشاهدات اليوميه، وعادة مايلجأ الباحث الى بعض اخباريه أولئك الذين تربطه بهم علاقات وطيدة ممن لهم قدرة فائقة على الالمام بالاحداث والوقائع والادلاء بالمعلومات ، كأن يختار على سبيل المثال شخص عاصر النظم الادارية المتباينة مع مطلع هذا القرن فى قبائل « السعادى المصريه » مثلا، سلاح الحدود ، والمجالس العرفية ، النظام الادارى الحديث والحكم المحلى ، أن مثل هذا الشخص يمكن أن يمدنا بمعلومات لها قيمتها فيما يتعلق بتطـور النظـام الادارى ومدى تقبل الناس له ، طريقه الفصل فى المنازعات والقضايا في النظم المتباينة . أنه يستطيع أن يقدم لنا صورة واضحة عن دور العرف فى المجتمع القبلى ، أنماط الانحراف وكيفية مواجهتها . الخ .كل ذلك من خلال عرضه لتاريخ حياته ، وينبغى أن ندرك أنه ليس المهم هنا تاريخ حياة الشخص نفسه، وعلى حد تعبير بول رادين Paul Radin فى دراسته التى استخدم فيهـا هـذا الاسلوب لهنود وينباجو Winnebago فى كتابه الذى اختار له العنوان التالى : تاريخ حياة هنود وينبـاجو The Autobiography of Winnebago Indians يقول : « ليس المهم الحصول على تاريخ حياة الشخص ذاته ، ولكننا نستهدف الوصول إلى وصف طريقة حياة الاشخاص فى علاقتهم بالجماعة الاجتماعية التى عاشوا فيها[1] . وأيا كان الأمر فان قدرة الاخبارى الشخصيـة وخـبرته

---

(1) Pelto, Pertti J., op. cite. p. 99

وعلاقته بالباحث تمكننا من الحصول على مادة على درجه عالية من العمق وتلقى الضوء على الكثير من المظاهر والسمات الثقافية التقليدية السائدة والمتغيرة لقد أمكن عن طريق استخدام هذه الوسيلة مع عدد محدود من الاخباريين خلال الدراسة الانثربولوجية التى قامت بها جامعه الاسكندرية ومركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الامريكية بالقاهره فى الستينات التعرف على الكثير من مظاهر الحياة التقليدية والسمات الثقافية (من عادات وتقاليد وطرق شعبيه وسنن اجتماعية وقيم واتجاهات وأساطير ومعرفة بالفلك والنجوم والرواسب الثقافية ...الخ) وكذلك السمات المادية Material Traits (من أدوات وأوانى ومواقد ومراوح هوائية وأجهزة ومعدات ... الخ). هذا فضلا عن القاء الضوء على الاحداث الهامة التى مرت بالمجتمع فى فتره الاحتلال الانجليزى للصحراء الغربية وتلك التى حدثت فى فترة الحرب العالمية الثانية وهجرات الليبيين والتونسيين إلى مصر، وكذلك أهم القضايا التى وقعت فى الصحراء وكيفية الفصل فيها والانقسامات القبلية وملكية الارض والآبار ... الخ.

ويمكن القول أن استخدام تاريخ الحياة(*) اليوم أصبح سمة مميزة للدراسات الانثربولوجية من حيث كونه وسيله تساعد على القاء الضوء على أوضاع

(*) أن أحد تواريخ الحياة الهامة التى قدمها John Tinner فى العشرينات من القرن ١٩ والذى سجل بنفسه كل مناشط الحياة التى عاشها، ثم جاء ادوين سميث Edwin Smith وأعاد كتابتها عام ١٩٥٦، وترجع أهميتها بصفة خاصة على الرغم من أن كاتبها ليس انثربولوجيا الي ارتباطها الوثيق بأوضاع الحياة فى Objiway وأنها تعبير صادق عن الحياة لدى جماعة Chippewa فى شمال مانيسوتا Minnesota فى بداية القرن ١٩.

(Pelto, op. cite. pp. 99: 100)

الحياة في المجتمع الذى عاشه الاخبارى ومن أمثلة هذه الدراسات ما قدمه لنا Longness (١٩٦٥) والذى أشار إلى أهمية استخدامها في الدراسات الانثربولوجية ، كما أثار مشكله بناء العلاقة مع الاخبارى وكيفية اختياره ومدى الاعتماد على ما يدلى به من أقوال وكيف أن أحد صعوباتها تكمن في عدم القدرة على مراجعة هذه المادةواخضاعها للملاحظة الموضوعية للسلوك الواقعى ، ويرى أن اهتممات الانثربولوجيين انما تستهدف من وراء هذا التاريخ الى البحث عن أنماط معتقدات الناس ومفاهيمهم للاحداث والوقائع أكثر من كونها تبحث عن الزيف أو اليقين لهذه الأحداث ، ومن ثم فان تواريخ الحياة تصبح أكثر فائدة حين تهتم بفحص أنماط القيم العامة وإدراك العلاقات الطبيعية والاجتماعية أكثر من كونها تستهدف تواريخ الحياة الحقيقية .

بيد أن ثمه نقد آخر وجـه إلى هذه الوسيلة من حيث كونها تفتقر إلى التمثيل Representativness . أى مدى تمثيلها لجميع الاشخاص في المجتمع أو الثقافه محل الدراسه ، ولعل البحث الذى قامت به Cora Dubois لجماعه Alor (١٩٦٠) ـ حيث أهتمت بجمع ثمانية تواريخ حياه من « الألوريين »(*)ـ يقدم لنا حلا لمشكلة التمثيل هذه ، إذا أوضحت Dubois أن أخبارييها الثمانية انما يمثلون عينة ممثلة للثقافة المحليه خاصة وأن الغرض الموجه للدراسة يدور حول الملامح أو الخصائص المميزة للشخصية الالورية ، وأنها حرصت على تحليل نمط الشخصية الالورية Alorse Personality من خلال هذة التواريخ

(*) كما جمعت العديد من أحلامهم وطبقت اختبار الروشاخ ووسائل سيكلوجيه آخرى .

الثمانيه (١) . وأيا كان الأمر فإن استخدام هذه الوسيلة يمكن أن يكون وعلى حـــد تعبير Pelto مجرد وسيلة توضيحية أو ماده استكشافية ، فضلا عن الاستعانة بأنواع أخرى من المادة تجمع بواسطة وسائل أخرى على أن يراعى أن تكون ممثله (٢) .

* * *

وإذا كانت الملاحظة بالمشاركة تمكننا من تسجيل السلوك الواقعي والمشاركة الفعلية في أحداث ووقائع الحياه اليومية والاعتماد على الاخباريين يمكننا من تحقيق المزيد من الرؤية الواضحة ومدى تطابقها للماضى القريب ، وتواريخ الحياة تزودنا بالاطار الثقافى العام الذى عاشه هؤلاء الاشخاص ، فإن هناك أساليب أخرى لها أهميتها ولايستطيع الباحث في الانثربولوجيا أن يتجاهلها خاصة إذا ما كان اهتمامـه وثيق الصلة بالمجتمعات القبلية التقليدية ، ولعل من أهم هذه الأساليب مايسمى بالطريقة الجينالوجية the Geneological Method فلقد برهنت هذه الطريقة على قيمه عملية في البحوث وتعتبر الأن وسيلة أساسية في تلك البحوت (٣) . ولقد دأب الباحثون الانثربولوجيون على استخدامها خاصه في دراستهم لنسق القرابة Kinship system ولاتخفى أهمية هذا الموضوع

(1) Pelto, op. cit pp. 99 - 100

(2) Ibid, P. 100

(3) Notes and queries on Anthropology' the Roual Anthro-Pological Institute of Great Britain and Ireland (6th - ed) 1964 P . 5 .

فى فهم السلوك الانسانى بصفة عامه ، يقول Ernest · Schusky (أن دراسة القرابه على درجة كبيرة من الأهميه إذ يمكن اعتبارها المدخل أو الوسيلة الرئيسية لدراسة السلوك الانسانى ، وأن دراسة النسق القرابى يمكن أن يفيد إذا ماأراد الانثربولوجى أن يفهم لماذا يتفاعل الناس بهذه الطريقه [1] .

وبصفة عامه يمكن القول أن استخدام الطريقة الجينولوجيه قد أفاد إلى حد كبير فى الدراسات التى اهتمت بموضوعات متخصصة فى مجتمعات معينة كروابط المصاهرة Affinity والتزاوج Inter marriage ومعرفة الاتجاهات نحو الزواج من داخل الجماعة Lndogamy أو الزواج من خارجها (الاغترابى) Exogamy وموضوعات أخرى كثيرة تتعلق بالجماعات التى تقوم على روابط الانحدار كالولاء والتضامن القبلى وحيازه الأرض وتقسيم العمل ، كما أنها مؤشر هام يوضح لنا التوزيع المكانى للجماعات التى تنتمى إلى أصول قبلية واحده ، بل أن لها أهمية عمليه إذ أن الباحث الميدانى يمكن أن يفيد من استخدام المادة (الانحدارات الجينالوجيه) التى حصل عليها من عدد قليل من الأفراد فى تكوين صوره واضحه عن الجماعه القبلية موضوع الدراسة ، ولقد استطاع الباحث على سبيل المثالى فى دراسته لقبائل الحسانية السودانية مثلا أن يعتمد عليها وأن تكشف له عن التوزيع الجغرافى لهذه القبائل فى مناطق النيل الأبيض فى (الكوه) و (الروضه) و (المغام) و (المكيفى) والخيته و (مندريب) و (الدقالة) الخ وليس هذا فحسب فلقد كانت المدخل الأساسى لالقاء الضوء على بعض الفروع القبليه منها ، وعلى مدى اتجاههم

(1) Schusky, Ernest L Mannual For kinship Analysis, Holt Rinehart and Winston, N. Y. 1962, P II .

إلى الزواج الداخلي Endogany أو الخارجي Exogamy ، والتضامن بين الفروع القبلية في مواقف خاصة ، ولقد أوضحت تلك الانحدارات عن ضعف الروابط القرابيه بين الوحدات القبلية فى هذه المناطق إذا ماقورنت بالروابط بين الوحـــدات القبليه لقبائل أولاد على فى مصر ، ولن نخوض فى هذا الموضوع تفصيلا فهناك أسباب عديده ساعدت على أحداث هذا التغيير فى التضامن القبلي(*) وأيا كان الأمر فإن الانحدارات الجينولوجيه يمكن اعتبارها من أفضل الأساليب المنهجية للكشف عن مثل هذه الموضوعات وموضوعات أخرى كثيره كالتكيف والتمثيل الثقافي ومـدى تداخل الجماعات وارتباطها كثافة هذه العلاقات خـلال الاجيال المتعدده ، والكشف عن درجة القبول الاجتماعى بين جماعتين أو أكثر مما قد نعجز عن الوصول إليه بطريقه الملاحظه بالمشاركة أو المقابلة المقننه أو الاستبيان السسيومترى أو تاريخ الحياه إذ أن عينه الدراسه قد لا تتيح لنا وبطريقة واضحة الحصول على جميع مفردات الجماعه الثقافية من ناحيه أو الرجوع إلى الوراء عبر أجيال متعددة ، ومن هنا نأتى أهمية استخدمنا للطريقه الجينيولوجيه فى مثل هذه الموضوعات .

* * *

(*) كاتساع المساحه وبعد المسافة لدى قبائل الحسانية ، وتعذر الاتصال فى كثير من الاحيان خاصة فى فترات سقوط الامطار ، فضلا عن إلغاء نظام النظارة والوكالة التقليديين واحـــلال المحاكم الشعبية للفصل فى القضايا وفقاً للتقسيمات الاداريه ، هذا بالاضافة إلي ارتفاع الكثافة السكانية فى (الحله) والتى قد يصل عددها الى نحو ٣٠٠ أسرة فى بعض الأحيان وما ارتبط بذلك من تحقيق نـوع من الاكتفاء الذاتى والاستقلال عن الفروع الأخرى .

أن ما سبق الاشارة إليه لا يستنفذ الأدوات أو الأساليب التي يلجأ إليها الباحث الانثربولوجي فى هذه الأيام ، حتى أنه يمكن القول أن الباحث الاثنولوجى لم يعد يترك وسيلة أو أداه يمكن أن تفيد فى مجال دراسته إلا واستعارها من العلوم الأخرى أو حاول تطويرها بما يتفق ومجال بحثه ففضلا عن استخدامه للملاحظة بالمشاركة والمقابلة المقننة (الملاحظة الاحصائية) والاعتماد على الاخباريين وتاريخ الحياة واستخدامه للانحدارات الجينولوجية فان قد يبحث عن القصص الشعبى Folktales والاساطير Myths فقد تمده بالنظره الى العالم الغيبى أو الخارجى فضلا عن الكشف عن نسق القيم السائد ، بل أنه قد يلجأ الي الصور الفوتوغرافية أو الأفلام والتى أصبحت فيما يقول Fred Plog و Bates لها أهمية متزايدة كأداة للبحث ليس لمجرد تزويد الآخرين بصورة لما يحدث فى موقع ما عن كيفية المعيشة أو أسلوب الحياة ، عاداتهم وتقاليدهم ، مظاهرهم الفيزيقية ... ولكنها وسيلة لتوضيح التفاعل القائم بين الأفراد والجماعات، إن الأفلام الاثنولوجية تستخدم من أجل تسجيل الكثير من العناصر المتداخله ولاشك أن امعان النظر فيها ودراستها عن قرب يمكن الباحث من الاطلاع على التفاصيل المرتبطة بالسلوك التى ربما لا يستطيع أدراكها بوضوح فى الملاحظة العابرة .

وأيا كان الأمر فان الأداه المستخدمة فى البحث تعتمد الى حد كبير على نوع المشكلة التى سوف تدرس ، انها هى التى تملى عليه عما إذا كان من الممكن أن يعد لمقابلات مقننة أو أن يجرى احصاء للسكان أو أن يستخدم الاستبيان السسيومترى (العلاقات الإجتماعية بين الأفراد أو الجماعات) أو الانحدارات الجينولوجية (القرابة والتكيف والتمثيل الثقافى) أو الاختبارات الاسقاطية

Hermann Rorschach مثل اختبار الروشاخ Progective Psychological Tests
أو اختبار تفهم الموضوع Thematic Apperception Tests أو ما يسمى أحيانا T.A.T(*) (الشخصية والمعتقدات) وهكذا وفي معظم الأحيان فان الباحث الاثنولوجي يستخدم مجموعة من الاساليب ليلقي الضوء علي ظواهر ثقافية معينة ، أي يستخدم أساليب متعددة ، ليس فقط ليقدم لنا أطارا عريضا من الماده الاثنوجرافية ولكن لكي يراجع المادة التي جمعت بوسائل أخرى مغايرة , فاذا كانت الملاحظة المباشرة تمكننا في جمع بعض المعلوت المتعلقة بالزواج

....

(*) الاختبارات الاسقاطيه : هي اختبارات مقننة تتكون من مواد مبهمة غامضة لفظية أو غير لفظية ، سمعية أو بصرية تعرض على الشخص الذى يراد فحصه ويطلب اليه تأويلها وفق ما يدركه فيها بأقل قدر من التعليمات ، ومن ثم تكون استجاباتهم بمثابه مفاتيح لاحتياجاتهم الداخلية وبواعثهم الدفينه ومن أمثلتها .

اختبار الروشاخ : يتكون من عشر بقع من الحبر خمس ملونة وأخرى غير ملونة ، تعرض الواحده تلو الاخرى علي من يراد فحصه ويطلب منه أن يذكر لنا ما يراه وأن يطلق عليها تعليقا حراً .

اختبار تفهم الموضوع TAT : ويتكون من ٢٠ صورة بعضها للذكور وبعضها للاناث وأخرى للاطفال تمثل مواقف مثيرة يحتوى كل منها على شخص من جنسه ، ثم يطلب من المفحوص أن يروى لنا قصة توحى بها الصورة وتتحدث عن أحوال من فيها من الاشخاص ... هنا يسقط المفحوص مشاعره ويعبر عن ذاته .

(د. أحمد عزت راجح ، أصول علم النفس ، الطبعة (٩) المكتب المصرى الحديث ١٩٧٣ ص (٤٠١) .

مثلا ، فإن الطريقة الجينولوجيه قد تساعدنا على فهم الى أى حد استطاعت هذه الجماعة أو تلك أن تتداخل فيما بينها عن طريق المصاهرة أو النسب أو انها تميل الى الحفاظ على ذاتها عن طريق ما يسمى بالزواج الداخلى، ثم تأتى استمارة المقابلة المقننه لتحدد لنا وبطريقة كمية معدلات هذا التدخل .

والانثولوجرافى قد يبدأ في تصنيف الماده ومحاولة تحليلها خلال دراسته الميدانية حتى يستطيع جمع المزيد منها قبل أن يترك منطقة الدراسة ، وان كان الاتجاه الغالب فى مراكز البحوث أو أقسام الانثربولوجيا بالجامعات الآن أن يشترك عدد من الباحثين فى مشروع معين على أن ينقسموا فيما بينهم كل وفق اهتماماته أو وفق ما تقتضيه طبيعة البحث ومجال الدراسه، وهذا الاتجاه يعطى القدرة على المقارنة والمناقشه المستمره بين الباحثين والتى تصقل خبرتهم وتمكنهم من الحصول على رؤية جديده للموضوعات وندارك أوجه النقص والقصور فى جمع المادة .

٭ ٭ ٭

ثالثا : مرحلة مابعد الدراسه الحقلية :

فاذا ماجمعت المادة الانثوجرافية من تلك المصادر السابق الاشارة إليها أو بعضها تأتى عملية التصنيف والتحليل لأن الماده بوضعها الراهن لاقيمة لها ؛ أنها مجرد صورة لفظية أو فوتوغرافية أو تسجيلات للمقابلات قد حشدت بالحقائق والوقائع والأحداث والملاحظات ... أن معظم الباحثين الانثوجرافيين يحتاجون في الواقع إلى نحو عام أو يزيد من أجل تصنيف الماده ومراجعة

وما تحويه ، وتنظيمها وتحديد الانماط التي تظهر فى أعقاب هذا التصنيف .

هل جاءت هذه المادة مؤكدة للفروض الأساسيه للبحث ، أم على النقيض من ذلك ؟ ، هل ثمة أفكار جديدة ظهرت ، وما صلتها بالدراسات أو الابحاث السابقة في هذا المجال ؟ ، ما النتائج التى يمكن الوصول إليها وثيقة الصلة بالنظرية الانثربولوجية بصفة عامه ؟ و هل يمكن أن تلقى هذه المادة الضوء من حيث تقييمها للنظرية التى أجرى البحث في ضوئها ؟ ما النتائج التى يمكن الوصول إليها وثيقة الصلة بالمجتمع أو الثقافة المحليه بصفة خاصه ؟ ... الخ .

والاثنولوجى فى محاولته هذه يضع نصب عينة هـــدف محدد ألا وهو اكتشاف الانماط الثقافيه العامـة . . أنه يبحث عن الانتظام Regularities فى السلوك أوالملامح العامة التى تحدد خصائص الحياه الاجتماعية للافراد داخل نطاق هذه الثقافه أو تلك فعلى سبيل المثال نجد أن Holmberg فى دراسته لجماعه Siriono فى الشمال الشرقى من بوليفيا (١٩٦٩) جمـع قدرا كبيرا من المادة الاثنوجرافيه وثيقة الصلة بالثقافة المحليه ، واستنبط منها عددا من التعميمات تدور حـوله الاوقات العصيبة التى لايستطيعون فيها أن يجمعوا مايسد رمقهم ومايعانونه تبعا لذلك من احباط، وكيف أن سلوكهم يتسم بالانانيه والشراهه بالنسبة للطعام وبالتالي فإنهم يفتقدون التعاون فيما بينهم .. الخ ، ومنها استنبط عدداً من الفروض العامة (*) حول المجتمعات التي تعيش فى مثل هذه الظروف التي تتسم بصعوبه الحصول على الطعام أو الافتقار إلى الغذاء بشكل ملحوظ وتتمثل هذه الفروض فى :

(*) الفرض : تعميم مبدئى تظل صحته ومدى صلاحيته موضع اختبار .

(١) أن الصراع والعدوان بين الافراد يظهر غالبا فى مجال الحصول على الطعام أكثر من أى مجال آخر .

(٢) أن من يمثلون مجال السلطة هم أولئك الذين لايعانون من مشكلة الغـــذاء .

(٣) أن المجتمـــع غالبا مايهمل أولئك الذين لايستطيعون المساهمة فى الحصول على الغذاء كالمرضى والعجائز والمشوهين والاطفال (١) .

ومن الحقيقه أن مثل هذه العلاقات لم تختبر بعد وأن كانت هذه الاستنتاجات التى آثارها Holmberg تعطى الفرص للباحثين لاختبارها وتصبـح مهمه الاثنوجرافيين أن يبحثوا عما إذا كانت هناك علاقه مابين ضآله الحظ من الامكانيات الغذائيه ووجود الصراع والعدوان ومحاولة التخلص من أولئك الذين يعجزون عن المساهمه فى الحصول على الطعام . وهذا يحتاج إلى الكثير من المادة العلمية من مجتمعات أوثقافات متباينه حتى يمكن الوصول إلى مستوى عال من التعميم ، أن هناك الآن العديد من النظريات التي تحتاج إلى جهود الاثنوجرافيين المكثفه ، على سبيل المثال تلك النظريه التي ترى أنه كلما ازدادت السيطرة التكنولوجية على البيئة ازداد التخصص المهنى أو تلك التي ترى كلما ازداد تعقد المجتمع مالت انساق القرابة لأن تصبح أقل تعقيدا أو أقل أهميه (نارول ١٩٧٣) أو التى تذهب إلى أنه إذا كانت الجماعات المتصارعه اثنتين فى العدد فإن الصراع أو المنافسة تميل إلى العمق وتكون على درجة كبيرة من الشدة ، وعندما تكون الاطراف كثيرة ومتعددة فإن الكثرة تقلل من حـدة الصراع ... الخ (١).

(1) BateS & Plog. op. cit. P. 26 .

(١) فاروق اسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

أن الخطوات الأولى بصدد هذه القضايا أن نختار عينه ممثلة للعديد من الثقافات على مستويات مختلفة بالنسبه لكل نظرية على حده وتطبيق وسائل الملاحظه أو القياس الاحصائى أو غيرها من الأدوات حتى يمكن التأكد هل هناك علاقة وثيقه بين التعقد التكنولوجى مثلا والتخصص الوظيفى ، هل ثمة ارتباط ايجابى أو سلبي بين المتغيرين .

... أن ما نفتقر إليه هو المزيد من المعرفه بالسلوك الانسانى وأن الاثنولوجيين في استطاعتهم أن يقدموا الكثير من المعرفه لهذا السلوك حتى يمكن الوصول إلى تعميا للنظريه من خلال مقارنتهم للثقافات المتباينه

الفصل الثالث

الثقافة

تهتم الأنثربولوجيا كما سبق أن أشرنا بالسلوك الانساني وبصفة خاصه بالطرق التى يضطلع فيها الانسان بمناشطه المختلفه والتي تفى باحتياجاته أو متطلباته الأساسيه ، ويمكن القول أن هناك حاجات عامة قسمه مشتركة بين الناس جميعا أينما كانت ثقافاتهم سواء في المنطقة القطبية الشمالية أو جزر المحيط الهندى أو أفريقيا جنوب الصحراء أو الجزر الاسترالية فى الجنوب والشمال ... الخ إذ أن جميعهم لديهم متطلبات فيزيقية واجتماعيه تستهدف الحصول على الطعام والشراب والحماية للجسم بالملبس والمأوى والوقاية من الأمراض ومقاومتها والعناية بالطفل حديث الولادة وتنشئته الى غير ذلك من المتطلبات التى تحققها الثقافه معتمدة على عدد من الطرق يتم عن طريقها تقديم وتنفيذ الممارسات والخدمات لتفى باحتياجات الافراد .

وإذا كان الانسان يتشابه الي حد بعيد فى بنائه الفيزيقى بغض النظر عن الاختلافات الظاهرية أو السطحية تلك التي يهتم بها علماء تصنيف السلالات ـ إلا أنه يتميز تميزا ملحوظا في الانماط السلوكية، وهذا على النقيض من الحيوانات التى تتشابه انماطها السلوكية وتتبع نفس الاساليب الى حد كبير ، أما بالنسبه للانسان فان هناك تنوع هائل فى انماطه السلوكية ،فقبائل البوشمان Bushman في بتسوانا Botswana (*) على الحافه الشمالية من صحراء كلهارى يشتغلون بالصيد وجمع الطعام ، ظروفهم البيئة قاسية لا تتناسب مع الزراعه يجمعون الأعشاب والنباتات البرية كالبندق والجوز والتوت وغيرها من الدرنات والجذور التي تصل الى نحو ٨٥ نوعا ، هذا فضلا عن صيد الحيوانات البرية كالخنزير والبقر الوحشى والدبوك الغانية وغيرها والتى قد تصل فيما يقول

(*) قام ريتشارد لي Richard Lee بدراسة هذه المنطقة ، عام ١٩٦٠ .

Lee الى نحو ٥٤ نوعا يستخدمون فى صيدها السهام المسممة ، ويجدون فيها كفايتهم ونادراً ما يفتقدون إلي الطعام ، ولكن المشكلة الرئيسية التى تواجههم هى افتقارهم للمياه ، ومن ثم فإن سقوط المياه يحدد حركتهم المكانيـــة ، ويستخدمون أصداف بيض النعام كآنيه لحفظ المياه، مساكنهم مأوى ضعيف من الأخشاب والاعشاب ، والعمل قسمة مشتركة بين الرجل والمـرأة حيث يضطلع الرجل بالصيد فى حين تقوم المرأة بجمع الثمار والخضر ، حياتهم البيئة القاسية فرضت عليهم نوعا من التكافل والتعـاون فيما بينهـم ، فالصيد قسمه مشتركه بين الجماعة الاجتماعية جميعها حتى ولو لم يشارك بعض الأفراد فى عمليات القنص أو الصيد هذه[1]

أما جماعة الاسكيمو Eskimo والذين يقطنون المنطقة القطبية الشمـالية « التندرا » فى سهول جرداء فى مساكنهم التقليدية المعروفه « الاجلو » Igloo « الكوخ القبى » والذى يقيمه الاسكيمو من ألواح الثلج على شكل قباب ، وهم يعيشون فى حل وترحال يحملون أمتعتهم عبر الطرق المائية الى مناطق السدود الصخرية أو الحجرية لصيد الاسماك ، ويتحركون للداخل لمطارده حيوان الرنه مستخدمين الاقواس والسهام وقد يستعملون « الكياك » Kayak أو الزورق الجلدى في صيدها(*) وكذلك صيد عجول البحر والثعالب القطبية والأرانب والحيتان فى بعض الاحيان ، وجمع الثمار محدود للغاية ويكاد يكون قاصرا على جمع التوت فى الصيف، فليس هناك خضروات أو جذور أو فاكهة

---

(1) Bates, Daniel G. op. cite pp. 311 - 319

(*) يذهب Balikci (١٩٧٠) إلى أن احتياجات الاسرة الصغيرة (٤ اشخاص قد تتجاوز نحو ٣٠ جلدا من جلود الرنة .

على نحو ما نجده عند البوشمن إذ أن الشتاء الطويل المظلم والرياح المتواصلة والتربة الفقيرة وموسم النمو القصير لا تشجع الحياه النباتية باستثناء الاعشاب العنقودية التى تنمو وتعتمد الحيوانات البرية عليها ، وإذا كانت امكانية المياه هى التى تحدد هجرة البوشمن كما سبق الاشارة فان توفر الحيوان البرى والاسماك والبرودة هى المحدد الأول لحركة الاسكيمو وتنقلاتهم[١] .

أما جماعة Miskito والتى تقيم على الساحل الشرقى من نيكارجـــوا Nicaragua والتى تقع على الشريط الضيق بالقرب من البحر الكاريبى فانهم يمارسون الزراعة كما يعتمدون على القنص والصيد للسلاحف وحيوانـات البقرى ، حيوان أمريكى أشبه بالخنزير ، ويستخدمون القوارب والبنادق والرماح والشباك فى صيدها ، ويركزون بصفة خاصة على السلاحف للحصول على النقد ، أى أنهم يعرفون نوعا من الاقتصاد الموجه وفقا لحاجة السوق ، ومن ثم أهملوا الزراعة (الحدائق) والتى كانت تمدهم بنحو ٧٠٪ من طعامهم ليركزوا على صيد السلاحف التى ارتفعت أثمانها فى الفترة الاخيرة ـ وقد ترتب على هذا التحول أن انخفض استهلاكهم لها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أختل نسق التوزيع السلعى فيما بينهم حيث كان هناك نوع من التبادل والمشاركة فى الصيد بين الجماعة القرابية الواحدة [٢].

فاذا ما نظرنا الى المحتوى الغذائى مثلا لوجدنا أن هناك تباينا واضحا بين هذه الشعوب والجماعات فقبائل الاسكيمو Eskimo فى مضايق هدسون السابق الاشاره اليهم يأكلون السمك نيئا فى حين نجد أن هنود النافاهو Navaho

---

(1) Ibid, pp. 319-342.

(2) Ibid p. 362.

يشفرون من الاسماك، ومسلموا الهنود يأكلون لحم البقر في حين يحرم الهندوس ذلك ، والصينيون يتقززون من اللبن في حين يقبلون على البيض الفاسد ، وهنود المكسيك يأكلون الكلاب في حين تنفر الكثير من الشعوب من ذلك بل ويعتبر بيع لحومها جريمة يعاقب عليها القانون كما في ثقافتنا نحن ، وقبائل الناندى Nandi في كينيا يشربون الدم وجماعة Miskito لاتأكل اللحوم إلا عندما لايجدون شيئا يؤكل، وبدو الصحراء المصرية الغربية يأكلون الفئران الجبلية (الجربوع) في حين يعافه سكان وادى النيل وهكذا .

فإذا ما انتقلنا إلي شعائر التكريس Initiation Ceremonies أو شعائر التأهيل لوجدنا أن هناك تفاوتاً واضحاً بين الجماعات البشرية، فسكان استراليا الأصليين وعلى وجه التحديد قبائل الـ Kurnai تحتم أن يجتاز صغار السن من الشبان شعائر التكريس القاسيه حتى يمكن اعتبارهم في عداد الرجال، وتستمر هذه الطقوس نحو ثلاثة أسابيع حين يعزل هؤلاء الشبان في سياج من النخيل وتقام الطقوس التى تستهدف استدعاء طائر Emuwren (*) طوطم القبيلة وأحد أسلافهم المميزين ، ويمتنع الشبان عن الحديث وقد غطوا رؤسهم طوال فترة التكريس ويسمح لهم باحداث نوع من الثرثرة كتلك التى يحدثها طائر الأمورن ، ويستمر الرقص الشعائرى والذى يشارك فيه النساء والرجال حتى يقع هؤلاء الشبان فى اغماءه، وعندما يستيقظون منها لاتلبث أن تحل بهم روحا جديدة ، وتحدث المعجزه حين يظهر الطائر المقدس ، وعادة مايحضر المبشرون يتوسطهم زعيم القبيلة ، هنا ترفـــع أغطية الرؤوس وقد صوبت الرماح إلى

(*) رمز للطوطم وهو طـائر استرالي صغير الحجم أشبه بالنعامه إلي حد كبير .

صدورهم مهددين أياهم بالقتل أن اباحوا السر المقدس إلى النساء أو أولئك الذين لم يكرسوا بعـد ، ثم لايلبث أن يتلو الزعيم الاسطوره التى تشير إلى سلفهم وانحدارهم عن الطوطم،ويغرس فيهم قواعد وأحكام سلوكية،فالصغار يجب عليهم طاعــــه الوالدين وأن يتعاونون مـع الاخرين لخير مجتمعهم وأن يبتعدوا عن الصغيرات من الفتيات وأن يتزوجوا وأن يتجنبوا عددا من الأطعمة المحرمـــة .

ويذهب Birket Smith إلى أنه فى شعائر التكريس فى أجزاء أخرى من القاره الاستراليه يقومون عاده بثقب الحاجز الانفى فى حين أنه فى مناطق أخرى يحدثون جرحا عميقاً أو يزيلون مفصل أحد الاصابع ، أما لدى قبائل Yuin فى الجنوب الشرقى من القارة فإنهم يلقون بالشبان في حفرة قد أشعلت النيران في وسطها ويمكثون فيها إلى أن تكاد تشوى أجسامهم من شدة اللهب وزروة الشعيره عندما يقفز الشبان إلى خارج الحفرة (١) وفى ثقافه الناندى فى كينيا فان عملية التكريس تأخذ شكلا أخر يتمثل فى أن أول مايمارسه الشبان بعد البلوغ الاغاره على مخيمات القبائل المعادية لسرقة الابقار ، ويعتبر هذا العمل بمثابة الخطوة الأساسيه التى تؤكد عضويتهم فى المجتمع القبلى وانتمائهم إليه بالفعل (٢) .

---

(1) Smith, Kaj, Birket Primitive Man and his Ways, Translated From the Danish by Ray Duffel, Odhams Press, Ltd, London 1960 P, 49 .

(٢) د. أحمد أبو زيد ـ البناء الاجتماعى ، مدخل لدراسة المجتمع الجزء الأول ـ المفهومات ١٩٦٦ . ص ٩٧ .

وهكذا يمكن القول أننا نستطيع أن نشير الى تنوع السلوك الانسانى لدى الجماعات كما رأينا حين تحدثنا عن النشاط البشرى لدى البوشمن والاسكيمو والمسكيتو ، وكما رأينا حين تناولنا المحتوى الغذائى وشعائر التكريش ... ولاشك أن هذه الأنماط السلوكيه ليست وليدة اللحظة وانما توارثها الابناء عن الآباء فى هذه المجتمعات ، والتى يمكن القول أن لكل منها مجموعة من الاساليب أو الانماط السلوكية والتى تشكل فى مجموعها ثقافتهم المتمايزة .

* * *

ومصطلح « الثقافة » Culture من أكثر المصطلحات التى تناولها الكتاب والباحثون ، يذهب David McCurdy و Games Spradley فى كتابهما الانثربولوجيامن المنظور الثقافى (٩٧٥) إلى أن مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيمالمستخدمه من الانثربولوجيا ، وأنه لا يفتقر الى التعريفات أو معالجة الموضوعات المرتبطة به ، وأنه ليس هناك اصطلاح أو مفهوم آخر فى العلوم الاجتماعية قد صادف مثل هذا الاهتمام[1]. وأصبح من الشائع أن نجد العديد من المصطلحات والمفاهيم التى تعالج موضوع الثقافة أو الموضوعات المرتبطة من قريب أو بعيد ، فعلى سبيل المثال لا الحصر علم الثقافة Culturology والثقافات الفرعية Sub - Cultures وأنماط الثقافة patterns of Culture والاتصال الثقافى Cultural Contact والتغير الثقافى Cultural Change والتخلف الثقافى Cultural Lag واكتساب الثقات Acculturation والنسبية الثقافية Cultural Relativety والتمثيل أو التماثل الثقافى Assimiliation

---

(I) Spradley, G. & Mccurdy, David; Anthropology: the cultural Perspective; John Wiley & Sons, Inc. New York I975 P. 4

والتنوع الثقافى Cultural Variation والثقافة المـــادية Material Culture وأزمة الثقافه Culture crisis الي غير ذلك من المصطلحات والمفاهيم .

والواقع أن اهتمام الباحثين بالثقافة مرده الى أنهـا ظـاهرة تميز الوجود الانسانى ، وإذا كان بعض الباحثين فى الانثربولوجيـا الفيزيقيـة يرون أن الخاصية المميزة للانسان والتى تميره عن غيره من الكائنات تتمثل فى أن له بنـاء فيزيقى متمايز فان الباحثين فى الانثربولوجيا الثقافية يذهبون الى أن الانسان له خاصية فريدة تميزه عما عداه تكمن فىقدرته التىلا حد لهافى أن يخترع اشكالا للسلوك تفى بمتطلباته وحاجاته الأساسيه يكتسبها منذ مرحلة الطفولة المبكرة عن طريق الوالدين أو الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه وتتخذ شكلا محدداً أو نمطا معياريا يسود بين الجماعات على اختلافهـا . وإذا كانت هنـاك بعض التقارير التى كتبها بعض الرحالة أو المبشرين أو العسكريين تزعم أن هنـاك شعوبا لاتعـرف اللغة أوالاخلاق أو القيم الدينية أوغيرها من السماتالثقافيةـ فهى تقاربر خاطئة الي حد كبير إذ أن ثمه مقـومات أو عنـاصر مشتركة بين الثقافات على اختلافها وهذا ما أكده ميردوك Murdock في مقاله القيم بعنوان The Common denominator of Cnltures(١) وهذا يعنىأن كلالثقافات انما تتشابه فى خطوطها العريضة على الرغم من اختلافها وتباينها وهذا مرده الى اتفاق هذه الثقافات فى الحاجات الفيزيقية والاجتماعية السابق الاشارة إليها فى مقدمه هذا الفصل ومن ثم تبدو الاستجابات المتـوازية والمتباينـة فى نفس الوقت تحقيقا لهذه البواعث أو الدوافع الفطرية .

---

(1) Mnrdock, G. Peter; " The Common denominator of cultures ' in the science of Man in worl crisis, Edited by R. Linton, Clombia Univ. 1954, pp. 123 – 124.

ولقد حاول العلماء والباحثون منذ أكثر من قرن القاء الضوء على مفهوم الثقافة ، وكانت محاولاتهم فى طرق متعددة وأن شابها الغموض احيانا لسببين :

(١) انهم حاولوا تعريف الثقافة فى ضوء مصطلحات محددة .

(٢) كانت محاولاتهم قائمة على استقرائهم لثقافات قبلية أو مناطق اقليمية معينة .

ولعل هذا ما دعى بعض الباحثين من أمثال Bidney الى القول أن هناك اختلاف وخلط كبير على تحديد مفهوم الثقافة ، وأنه على الرغم من اتفاق العلماء على أن الثقافه يكتسبها الانسان باعتباره عضو فى المجتمع وانها ترتبط الى حد كبير برمزية اللغه ، فان هناك اختلاف واضح على تحديد المفهوم « الثقافة » ومجاله والوظيفة التى يضطلع بها[١] .

ويمكن القول بصفه عامة أن هناك اتجاهان اساسيان يمكن من خلالها أن نعرض لمعالجة الباحثين لهذا المفهوم .

أولا : الاتجاة الواقعي ومن اقطابه تايلور Tylor وبواس Boas وديكسون Dixon ولييند Lynd وغيرهم وهؤلاء جميعا فيما يقول Bidney ينظرون إلي الثقافة كصفة تميز السلوك الانسانى ، وعادة مايعرفون المفهوم بلغة اكتساب العادات والتقاليد والقانون ... الخ كما يدركونها من حيث كونها وحده متصله يرتبط وجودها سلبا أو ايجابا بالجماعات الاجتماعية التى تتصف بها ،

(I) Bidney, David, Theortical Anthropology, Schocken Books New York 1969, pp. 23 - 24 .

بيد أن هؤلاء الواقعيين قد انقسموا فيما بينهم من حيث ابراز دور الفرد فى الثقافة أو أغفاله ، فنجد على سبيل المثال أن بواس Boas و Sapir و Lynd يبرزون دور الفرد وتأكيده فى العمليه الثقافية ـ فى حين لا يبرزه آخرون وأيا كان الأمر فإن هؤلاء الواقعيين يرون أن الثقافه لها وجود خاص متمايز مستقل عن الأفراد الحاملين لها ، ويؤكدون أهميه التراث heritage ويرون أن التراث الثقافي يتألف من الاشياء المادية تماما كما يتكون من الافكار غير المادية والعادات والتقاليد والمثل وما إليها ، وتلك الفكرة الأخيرة عبر عنها سابير Sapir في معرض تعريفه للثقافة حين قال « أنها مايفعله المجتمع ويفكر فيه » ثم يقول في موضع آخر « أن الثقافة هى العناصر الموروثه خلال حياه الانسان سواء أكانت هذه الموروثات مادية material أو روحية Spiritual .[1]

ثانيا : الاتجاة المثالي : ومن ابرز اصحاب هذا الاتجاه « أو سجود » Osgood ، « لينتون » R.Lnton ، وكلاكهون « Kluckhohn » وجيلين « Gllin » و « كروبر » kroeber ، و « سوروكين » Sorokin و « وسبنجلر » Spengler وغيرهم .أولئك الذين ينظرون إلى الثقافة على اعتبار أنها « مجموعه من الأفكار فى عقول الأفراد » أو أنها « مفهومات مألوفه ومدركه » ، ولعل تعريف « أو سجود » من أدق التعريفات التى تعبر عن هذا الاتجاه فيما يقول bidney فالثقافة عنده تتألف من الأفكار المتضمنة فى أى اختراع أو المرتبطة بالعرف أو السلوك أو التى يدركها أى حشد من الكائنات البشرية أو

(I) Ibid, P 26 .

تلك التى تنتقل إلى عقل الفرد وهو على وعى تام بها [١] . ولايذهب لينتون Linton بعيد عن هذا حين يقول أن الثقافه ليست شيئا يمكن لمسه ، اى أن وجودها قاصر على تفكير أولئك الذين يشاركون فيها أنها شيء متصور يدركة العقل .

والاتجاه المثالي ينظر إلى الثقافة المعطاة على أنها جزء من الكائن العضوى يتخذ شكل أفكار أو أراء أو معلومات يستخدمها فى تحديد السلوك الذى نستهدفة ،وهذا ماحدا بالكثيرين من الباحثين إلى رفض فكرة اعتبار الماديات مكونا ثقافيا وأن كانوا يرون أن الجانب الذى يعتبر من الثقافه فيمايتعلق بهذه الاشياء المادية (من أمثال سافرلاند Sutherland وجونسون Golmson)هو مجموعة المعارف والافكار والاراء أو المعلومات أو طرق الاداء التكنولوجى التى استعان بها الانسان فى اختراع السمه المادية MaTerial Trait أواستعمالها أو تحويرها وليست الاشياء المادية في حد ذاتها ، لقد ربط هؤلاء المثاليون بين المفهوم والمعرفه وخاصة Ward و Kroeber و Parsons ، ودعواهم تكمن فى أن الثقافة ليست الاشياء المادية التى نخترعها أو نستخدمها أو نقوم بتحويرها أو حتى نسمع عنها ، إنما هى نسق المعرفه الذى يستخدمه الناس لتفسير الافعال والاشياء والاحداث ، ثقافه جماعه من الجماعات تتكون من الاشياء التي يجب أن يعرفوها لكى يفهموا الحياة ويتصرفوا على نحو ملائم فاذا تحدثنا عن ثقافة الابو Ibo مثلا فاننا نعنى معتقداتهم أو افكارهم التى تدور حول كيف يعامل الناس بعضهم بعضا ، كيف يشعرون تجاة بعضهم البعض،قواعدهم أو أحكامهم العرفية التي تحدد انماط السلوك ، قواعد الضيافة

(I) Ibed. P. 24

والكرم، تقييمهم لثمار الكولا ، ومفاهيم أخرى كثيره ، إذا ثقافة « الابو » ليست ظاهره مادية أنها لاتتكون من اشياء ماديه كالأسرة أو اله العزف أو ثمار الكولا ولامن اشخاص كالمعارف والجيران ولامن السلوك ذاته كالعزف أو من الانفعالات كما هو الحال حين يشعر الناس تجاه بعضهم البعض ، أنها كيفية تنظيم هذه الاشياء والأفكار التى توجد فى العقل أو على حد تعبير Spradley & Mecurdy نموذج الادراك [1] ، بمعنى آخر أن كل ماير اه الانسان ويسمعه انما هو موضوع للتفسيرات الثقافيه أى تفسير الخبره أو التجربه Experience حتى يمكن أن تتفاعل مع الاخرين وتشارك فيما يفعلوه ، ولكى يتحقق ذلك لابد من أن تكون لدينا القدرة على تفسير مانراه من السلوك أو مايقع أمام اعيننا من أحداث ووقائع (الخبرة أو التجربة) وهذا بدوره يعطينا القدره على أن نتصرف ونسلك من جديد ، فاذا تصورنا أنه فى أحد المجتمعات القبلية (أولاد على فى مصر) يخرج الشبان أو النساء لجمع بعض الاغشاب كالمتنان والعجرد بقصد أشعال النار ليلا فى النجوع أو استخدامها فى الطهى أو أنهم يخرجون وقد أمسكوا بعصا العكنه (عصا طويلة مثبت بها قطعة من الحديد) للبحث عن هذا النبات البرى، ثم حدث أن اكتشف أحدهم أن النار التى أشعلها منذ قليل قد خمدت أو أن عصا العكنة التى يمتلكها قدفقدت هنا فان هذا الشخص لايلبث أن تزوده ثقافته بالمعرفة المطلوبة من واقع الخبرة أو التجربة السابقه ، لابد وأن تكون لديه مادة قابلة للاشتعال ، كيف يولد اللهب ، كيف يحافظ عليه ... الخ . ومن ناحية أخرى لابد وأن تكون لديه

(I) Spradle & Mccdrdy, op. cite P. 5;

بعض الأفكار التى تمكنه من صنع عصا العكنه، حجم العصا وطولها خصائصها، قطعة المعدن و كيفية تثبيتها فى طرف العصا ، كيف يحقق العـوازن بين الشيء المثبت وطول العصا هنا يمكن القول أن لديه معرفة ثقافية من خلالها يستطيـع اشعال نار جديدة أو صنع عصا أخرى .

فالمعرفة الثقافية بمثابة طريقة اجرائية recipe تمكننا من انتاج السلوك أو الأشياء المادية ، هذه الطريقة الاجرائية تشتمل على توجيهات لوضع الأشياء معا لتصبح ذات معنى ، هى التى ترشدنا الى تحديد الاداء المطـــلوبة مثلا أو التجهيزات التى يجب توافرها، انها تملي علينا نوعا من التتابع الدقيق للخطوات المطلوبة ، والفترات أو الزمن المطلوب أو المناسب ... الخ[1] وهـذه الطـرق الاجرائية لا تقتصر على اشعال النار أو صناعة عصا معينة أو اعداد نوع من الطعام أو الشراب بل تشمل أيضا على توجيهات للسلوك أيا كانـ ، هل هو نوع من المقامرة أو المغامرة أو المراهنة أوالصيد أو ادراك الخطر أو المشاركة أو تبادل المشاعر ... الخ .

من هذا العرض الموجز يمكن القول أن كل جماعة اجتماعية تستخدم معرفتها الثقافية لتفسير الخبرة أو التجربه عند القيام بالسلوك الجديد يستـوى فى ذلك جماعه الاسكيمو المرتحله من مكان الى آخر باحثه عن مكان جديد أو قبائل Karimojony فى أوغنده فى رحلاتهم مع قطعان الماشية باحثه عن المراعى الخصبه الفسيحه ، وهذا لا يختلف كثيرا عما تفعله هيئة علمية تضطلع بالقيام ببحث انثربولوجى . جميعهم يستخدمون معرفتهم الثقافية ، بل والاكثر من ذلك أن الانثربولوجيين أنفسهم يستخدمون نفس الاسلوب فى محاولتهـم معرفة

(I) Spradley & McCurdy, op. cite p. I7.

الثقافات المتباينة ، لديهم طرق اجرائية تمكنهم من فهم هـذه الثقـافة أو تلك ، كالذهاب الى منطقد معينة والاقامة لفترة من الوقت ، تعلم لغة الاهـالى ، دعم العلاقات واختيار الاخباريين ، أخذ الصور الفوتوغرافية ... الى غير ذلك من الاساليب أو الطرق التى تمكنهم من تحقيق أهدافهم .

* * *

هناك تعريفات كثيرة للثقافة تجاوزت المائة وستين تعريفا يعرض لهـــا الانثربولوجيون من آن لآخر فى أبحاثهم ودراساتهم ، وقد حاولت بعض الدراسات التى جاءت فى نهاية النصف الأول من هذا القـرن أن تعرض لهـذه التعريفات وأن تصنفها فى تصنيفات عديدة ، بعضها ذو صيغة مثالية، والبعض الآخر ذو صبغة واقعيه ، أو وفقا للسمه الغالبه عليها ، أو لما تركز عليه من معان . من حيث كونها معياريه أو سيكولوجيه ، أو أنهـا تشير الى الوراثة الاجتماعية أو التكيف أو التعلم أو الاتصال والانتقال . الخ (*).

لن نخوض فى هذه الموضوعات تفصيلافهنالا العديد من الكتب التىظهرت منذ أواخر الثلاثينات قد تناولت هذا الموضوع(**) ولسنا هنا بصدد سردها

(*) أنظر في ذلك كتـــاب : Kroeber, Anthropology, Cultural Patterns and Process, Horbinger book, N. Y. 1948

وأنظر أيضا كتاب : Kroeber & Cluckhohn, Culture, Vintage Book, 1952.

(**) أما فيما قبل هذا التاريخ فيخبرنا Untereiner أنه قام بمسح شامل لمحتويات نحو ٦٠٠ من الكتب والمجلدات المتخصصةفى مكتبه جامعة هارفارد=

والتعليق عليها ولكن ما أود أن أشير إليه أن كثيرا منها قد أشار الى خاصية أساسية تتمثل فى أن الثقافة سلوك مكتسب (تايلور Tylor ۱۸۷۱ و «ورد» Ward ۱۹۰۳ وبيرجس Burgess و بارك Park ۱۹۲۱، وسابير Sapir ۱۹۲٤ وتوزر Tozzer ۱۹۲٥ وبنديكت Benedict ۱۹۲۹، ومارجريت ميد M.Mead ۱۹۳۷ وكلكهون Kluckhohn وكيلى Kelly وبيدنى Bidney ۱۹٤۷ وكروبر وبرون R. C. Brown وبارسونز Parsons عام ۱۹٤۹ وستيوارد Steward ۱۹٥۰ ... الخ) ومن ثم فان محاولتنا لالقاء الضوء على مفهوم الثقافة يحتم علينا أن نهتم بقدرة الانسان على اكتساب الاساليب أو الانماط الثقافية ، إذ أن معالجه هذه النقطة من الاهمية بمكان قبل أن نعرض لبقية خصائص الثقافة أو مقاومتها . وقد أثارت مشكلة قدرة الانسان التى لاحدلها على اكتساب السمات الثقافية الكثير من المناقشات منذ داروين Darwin وغيره من العلماء الذين أشاروا الي أن الانسان من أصل حيوانى فى هيكله الجسمى كما أنه يأكل وينام ويتحد باتصاله الجنسى وفى النهاية يموت ويتحلل شأنه فى ذلك شأن بقية الحيوانات[1] . أى أن صفات الانسان الحيوانيه قد نمت قبل أن يبدأ فى تنميه قدراته من أجل الحياة ، والفارق الاساسى بين الانسان والحيوان انما يكمن فى أن الانسان لديه القدره على التعلم ومن ثم يكتسب ثقافته بواسطة هذه العمليه ، وليس معنى هذا أن الحيوان لا يستطيع العلم

= والتي صدرت منذ بداية هذا القرن وحتى عام ۱۹۳۰ فوجد أن ما يزيد عن نصف هذه المجلدات لم يستخدم هذا الاصطلاح فى حين أن البعض الاخر قد استخدمه بطريقه غامضه أو غير مباشرة.

(I) Tunhill & Gray, Cultute and biology, 1973, p 3

فهناك تجارب عديدة قام بها المتخصصون (Skinner و C. Hull و Koehler و Wolf و Kellog ...) أثبتت جميعها أن دوافع الانسان وبواعثه على التعلم أقوى وأوسع مدى من الحيوان، أنه يتميز بالقدرة على التصور الذهني والتذكر ورؤية العلاقات : كما انه اقدر على ضبط انفعلاته وابعد عن الارتباك، ثم هناك قدرته الفذة في استخدام الرموز واللغة من حروف واعداد واشكال هندسيه وبالتالي قدرته على التخطيط واستنتاج المبادىء العامه[1]. ولعل تجربه «كيلوج» Kellog وزوجته يمكن ان تلقي الضوء على هذه القدرة حيث قاما بتربيه احد القردة مع طفلها وقد لاحظا منذ البدايه ان القرد يتعلم اسرع مما يتعلم الطفل نظرا لتفوقه في النمو الجسمي ، ولكن ما ان بدا الطفل يتعلم اللغه حتى تفوق على القرد ، وبدا يشارك في ثقافته في حين تعثر القرد الي حد كبير . ومن هنا يمكن القول وعلى حد تعبير كروبر Kroeber وكلكهوهن Kluckhohn « ان الحيوانات جميعها لديها القدرة على التعلم ، ولكن الانسان لديه القدرة على ان ينقل عاداته المكتسبة الي ذريته عن طريق اللغة في حين ان الحيوان لديه القدرة فقط على نقل الوراثه البيولوجيه[٢] . وتقترن عمليه التعلم عنده بنموه الفيزيقي الى حد كبير ، ولكن الانسان لديه القدرة ان يتعلم من الاخرين كيف يأكل ويفكر ويتأمل ويحب ويكره ويخاف ويطمح ويمارس كل ما يحتاج إليه من خلال خبرته الذاتيه او من خلال تلقين الاخرين له او تعليمهم اياه ، وهو يخضع لعمليه التعلم هذه من المهد الي اللحد .

---

(١) احمد عزت راجح ، اصول علم النفس ـ المكتب المصرى الحديث ، ١٩٧٣ (الطبعة التاسعه) ص ٢٢٢ .

(2) Kroeber & Kluckhohn, Culture op. cite. p. 165.

من هنا يمكن القول أن مفهوم الثقافة يشير إلى السمات السلوكية المكتسبة عن طريق التعلم لجماعة من الناس ، ولما كانت الجماعات تختلف فيما بينها من حيث كونها على درجات مختلفة من التنظيم مثلا أو تمارس أنواعا متباينة من النشاط وفقاً لظروفها البيئية ومعرفتها التكنولوجية وبالتالى فإن لها انماطها السلوكية المتمايزة أو معرفتها الثقافية الخاصة ، فالجماعة البدوية فى مصر (أولاد على) يشكلون ثقافة متمايزة ، لها لهجتها الخاصة ، تضامنها القبلى ، ومشاعر الولاء والانتماء ، طريقتها فى الزى والزينه ، مساكنها التقليديه ا شعائرها االمتمايزة ، علاقات الخوت وعلاقات الهزار أو المزاح Jocking relationship التى تسود بينهم ، صلاه الاستسقاء فى فترات الجفاف ، طبهم الشعبى ، اغانيهم الخاصه ، كلها تمثل ثقافة متمايزة . هنا فإن اكتساب هذه السمات عن طريق التعليم أو التلقين انما يعنى انتقال هذه الأساليب المتمايزة إلى الاجيال الاخرى وهى بدون بدون شك تختلف إلى حد ما عن تلك الأساليب أو الطرق الاجرائية التى توجد فى جنوب الوادى لدى ثقافة النوبيين ، النقطه الهامة هنا أن الانسان يعتمد إلى حد كبير على الوراثة الثقافية Cultural heritance تماما كما يعتمد على الوراثة البيولوجية Biological heritance فمن خلال حياتنا القصيرة يحصل الانسان على معلومات جديدة تدريجيا من الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه لتوجه سلوكه فيما بعد ، فالنظافه مثلا والتى نحرص على غرسها فى اطفالنا منذ سنوات عمرهم الأولى وحتى قبل أن يتعلموا اللغة ، يستطيع هؤلاء الأطفال أن يدركوها فى طرق متباينة ، اثابة الوالدين للطفل بالابتسام أو نظرات الاستحسان أو أن يشملاه بالعطف والحنان أو تقبيله بعد الاستحمام مثلا أو حين تكون رائحته أو مظهره نظيف ، هنا قد يفتقد هؤلاء الاطفال لهذا السلوك

المحبب من الوالدين إذا ما تلوثت ثيابهم أو عبثوا بطعامهم أومدوا أيديهم إلى إلى نفايات القمامة ، وردود الفعل عند الوالدين بالتصريح أو التلميح واظهار مشاعر عدم الاستحسان أو العزوف ، أو أظهار أى أنوع من الاستجابة السلبية كأن يبدى أحد الوالدين مجرد حركة تظهر عدم الارتياح أو الاشمئزاز .

وعملية التعلم هذه تتوقف إلى حد كبير على الاتصال أو هى وثيقة الصلة بها إذ أن المطلب الأساسى فيما يقول Spradley لاكتساب الثقافة هو الاتصال بالاخرين والذى يلعب دوراً هاما فيما يقول بارك Park ، أنه يؤدى أشياء عديده ، إذ يسهل الفهم بين الأفراد الذين يؤلفون الجماعة الاجتماعيه أنه يعطيهم معنى الوحدة الثقافيه وينسج شبكة من العادات والعرف والتوقعات المتبادلة التى تربط معا وحدات اجتماعيه أو جماعات اجتماعية متباينة ، أنه يحفظ مايمكن تسميته بالانسجام الضرورى الذى يمكننا من أن نعمل معا فى طرق متعدده ، وأن وظيفته تتمثل فى الحفاظ على وحده وتكامل الجماعه الثقافية فى بعديها المكانى والزمانى (١) .

والخاصية الثانية للثقافة هى الاستمرار Countinuity وتلك وثيقة الصلة بالخاصية الأولى [الاكتساب أو الانتقال عن طريق التعلم أو التلقين] أى أن لديها القدره على البقاء بعد فناء الأفراد الحاملين لها ، أنها لاترتبط بأفراد معينين ومن هنا تأتى قدرتها على الاستمرار عبر الأجيال ولعشرات السنين دون أن

(I) Park; R, , On Sociay Control and Collective Behavior, the University of Chicago Press, 1928, P. 121.

يعتريها تغير جوهرى فالعادات والتقاليد والطرق الشعبيه Folkwazy والسنن الاجتماعية Mores والعقائد والخرافات يمكن أن تستمر لفترات طـويلة ، بل قد تتأثر بعض جوانب الثقافه وسماتها ويعتريها تغيير واضح ومع ذلك تفاح بعض السمات فى البقاء والاستمرار، ولعل ماذهب إليه بعض الباحثين فيما أسموه بالرواسب الثقافية ـ أى التى تظل على الرغم من تغير الواقـع الذى عاشت فيه،من هذا القبيل مثلا تلك الجماعة الدينيه التى يعيش معظم اتباعها فى الولايات المتحدة الأمريكيه ومازالت تمارس بعض الشعائر والطقوس تجاه «اخناتون» أول من نادى بالتوحيد من المصريين القدماء ، والتى تحرص على المجىء إلى مصر فى منطقة الأهرامات لممارسة شعائرهم على الرغم من مرور عدة آلاف من السنين .

ولعل خاصيتى الوجود المتمايز للثقافة من حيث كونها مكتسبه ومستقلة عن الأفراد الحاملين لهـــا والاستمرار هما اللذان أوحيا لمعظم الباحثين الانثربولوجيين إلى القول بأنها فوق عضويه Super Organic ،ويرجع الفضل فى ادخال هذا المفهوم « فوق العضويه» الى هربرت سبنسر H.spencer والذى يرى أن التطور فوق العضوى SuperorganicEvalution بمثابة العملية التى تلى عمليه التطور العضوى إذ كتب يقول : « إذ كان هناك تطور فانه خارج عن نطاق العضوية ويمكن تمييزه ، إذ أنه يتضمن كل العمليات الانتاجية التى تشتمل على الأفعال المنسقه لأفراد عديدين » ويرى سبنسر أن هناك مجموعات متباينة من الظواهر فوق العضويه كالتنظيم الاجتماعى للنحل والزنابير وتجمعات الطيور وبعض تجمعات الحيوانات ، أما التطور فوق العضوى للانسان فهو

يمثل شكلا أكثر تعقيداً من التطور فوق العضوى الذى نجده عند الحيوانات .

بيد أن هناك معنى آخر لهذا المفهوم فيما يقول Bidney إذ أن هذا الاصطلاح انما يشير الى الحقيقة القائلة « أن التطور الثقافى Cultural Evalution ليس مرتبطا بالبناء العضوى Organic Structure للانسان ، فالثقافة تبدو فوق عضويه من حيث كونها كامنه فى الشعور السيكولوجي عند الانسان ، إذ أن قدرته التى لاحد لها على اختراع واستخدام الرموز تمنحه القدرة على الخلق والابتكار واكتساب أشكال جديدة للحياه دون أن يكون هناك أدنى تحور أو تغيير فى بنائه العضوى ، أى أن قدرات الانسان تتمثل فى انجازاته الثقافية (سواء أكان فرد أو جماعة) وتلك تتجاوز بكثير امكانياته الجسميه أو قدراته البيولوجية .

أما كروبر Kroeber فى مقال له بعنوان « ما فوق العضوية » استخدم هذا الاصطلاح بمعنى اللاعضوية Nonorganic وان كان كروبر يحصر استخدام هذا المفهوم على السلوك الانسانى إلا أنه يقبل تمييز سبنسر للمستويات الثلاث للتطور اللاعضوى والعضوى والاجتماعى ، ولكنه يختلف عنه فى اعتباره الشكل الاجتماعى للتطور بمثابة تطور فوق عضوى للثقافة الانسانية ، أى أن كروبر اهتم بالتمييز بين الشكل العضوى والاجتماعى ، واستنتج أن الثقافه لها وجود مستقل عن الفرد والمجتمع ومن هنا امكنه القول أن الثقافه ليست فقط فوق عضوية أو فوق نفسية Super Psychic ولكنها أيضا فوق اجتماعية Super Social طالما كان وجودها وتطورها وتاريخها لا يعتمد بطريقه مباشره على المجتمع ومن هنا فرق كروبر بين المستوى الاجتماعى والمستوى الثقافى ، وهذا ما فعله فى مقال له بعنوان « العلوم الاجتماعية ، حيث ميز بين أربعة مستويات رئيسية

للظواهر اللاعضوية Inorganic والعضويه Organic والنفسية Psychcic والثقافية الاجتماعية Socio - Cultural ، ثم يحاول تمييز الشكل الاجتماعى عن الثقافى . ويقرر أن المجتمع يحمل الثقافة وأنه يتألف من أشخاص كل منهم لديه سيكولوجية فردية متمايزة ، أما الثقافة فيشار اليها على انها أعلى مستوى «القمة» بينما المجتمع يمثل المستوى الادنى « القاع »(١) .

وطالما كانت الثقافة متمايزة ولها صفة الاستمرار والدوام ، أى أنها تمتد عبر مئات السنين ، فلابد أن لديها القدرة التى تمكنها من هذا الاستمرار . من هنا تحدث العلماء والباحثين عن قدرتهـا على للعكيف وهذه هى الخاصية الثالثة للثقافة ، فهى متكيفة حتى تستطيع أن تفى باحتياجات الأفراد المتغيره ، وتحقق لهم الاشباع النفسي بما تنجزه من ارضاء للناس على اختلاف أعمارهم أو بيئاتهم الجغرافية والاجتماعية أو طبقا للمطالب البيولوجية والنفسية ، فعندما تتغـير ظروت الحياة فان الإشكال التقليدية تتوقف أو تتغير أو تتحور وتظهر أشكال جديدة تفي بالاحتياجات الجديدة القائمة أو المدركه، ومن ثم توافقات جديدة لا تلبث أن تظهر ، وهذا يعنى أن قدرة الثقافة على التكيف انمـا تتضمن انها ديناميه ، فثمة دائما سمات ثقافية جديدة تخترعها الجماعة أو تقـوم بتعديلهـا أو تحويرها . ولعل هذه الخاصية هى التى أشار اليها الباحثون الانثربولوجيون حين تحدثوا عن الخصائص النشوئية Genetic Characterisiies ، فأجـدادنا عاشوا فى جماعات اجتماعية منذ نحو مليونى عام تقريبا ، وقد استطاع بعضهم فيما يقول Spradley الحياه فى أرض السفانا فى أفريقيا، وأن الادله الاركيولوجيه Archaeolog'cal evidence تشير الي أن ثمة تطور ونمو للانسان ، وأن هناك

---

(1) Bidney, op. cite pp. 34 - 39

زيادة مثيرة فى حجم المخ وبالتالى التعاون الاجتماعى وامكانية صناعة الادوات المعقدة ، وازدياد القدرة على ممارسة نوع من الصيد الجماعي ، والذى ترتب بدوره على التطور البيولوجى ، أى أن المقدرة على البقاء انتقلت وبالتدريج من البيولوجيا إلى الثقافة ، والتكيف أصبح بمثابة اكتساب للمزيد من المعرفة الثقافية لصناعة الأدوات والتعاون فى عمليات الصيد والقدره على مـواجهة الحيوانات المفترسة (١) .

فإذا كانت المقومات البيولوجية تحدد السلوك ، فإن المقومات الثقافية تلعب دوراً هاما في التكيف الانسانى أى أن الوراثة البيولوجيه هامه ولكن القدرة على البقاء والاستمرار والتكيف مـع الظروف البيئيه رهن بالمعرفه الثقافيه ، فالاسكيمو Eskimo مثلا من الناحيه الفيزيقية يتميرون باذرع قصيرة وسافين قصيرين بالنسبه لطول الجسم ، هذا المظهر الفيزيقى يقلل من سطح الجلد ، وهذا يساعد على أن يحتفظ بدرجه حرارته ، ولكن مثل هـــذه الخصائص الفيزيقية غير كافيه فى حـد ذاتها لتكيف أولئك الدين يعيشون فى المنطقة القطبيه الشماليه ، ومن ثم فان البقاء يعتمد أساسا على مالديهم من معرفه ثقافيه أنهم لايستخدمون ملابس من الشعر ، ولكنهم يصنعونها من جلود الفقمة السميكه Sealskin ، وتمدهم معرفتهم الثقافيه بطريقه صيد هـذه الحيوانات وكيف يستخلصون جلودها وكيف يعدونها ، كما تتضمن هذه المعرفة أيضا كيفية بناء المساكن للحماية والمؤى ، كيفيه المحافظه على الحرارة والدفء فى ظل هذه الظروف البيئية القاسية (٢) .

(I) Spradley, op, cit. PP. 34 - 35 .
(2) Ibid, P. 32 .

ولقد ذهبت الكثير من التعاريف إلى أن التعقيد Complexity سمه مميزة للثقافه ، وهـذا مرده إلى طبيعتها التراكميه . فهناك دوما سمات ثقافية يخترعها الانسان ويهتدى إليها ، وكلما ازدارت المحتويات أو العناصر الثقافيه فى مجتمعة كلما مكنه ذلك من القدرة على اختراع سمات ثقافيه أخرى ، هـذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن انتقال السمات الثقافية بين المجتمعات عن طريق الاستعارة لعب دوراً هاماً فى تحقيق هذه الطبيعه التراكميه وبالتالى تعقد الثقافات ، ولقد ولقد أشار إلى هـذه الخاصية التراكميه accumulation الكثير من التعريفات سواه بطريقه مباشرة أو غير مباشره منذ تعريف تايلور (١٨٧١) كما نجد عند Wissler (١٩٢٠) و Dixon و Benedict (١٩٢٩) و Winston (١٩٣٣) و Mead (١٩٣٧) Kluckhoan و Kelly (١٩٤٥) و Bidney (١٩٤٧) Parsons (١٩٤٩) ، فعلى سبيل المثال نجـد أن Kluckhohn و Kelly يريان « أن الثقافه مفهوم يشير إلى النتاج المتراكم للايداع والخلـق الانسانى . أنه يشير إلى طـرق التوافق فى البيئة المحيطة سواء اكانت انسانيـه أو فيزيقية كاللغه والعرف واداب السلوك والإخلاقيات والدين التى يكتسبها الانسان خلال حياته » . ونظرا لتراكم السمات الثقافيه وتعقدها فإن الانسان لايستطيع مهما طال عمره أن يحيط بكل السمات الثقافية السائده فى مجتمعه ، ولا يستطيع الباحث الانثربولوجى مهما أوتى من خبره أو مهارة ، ومهما كان اعتماده على الاخباريين أن يلم بكل العناصر والسمات الثقافيه فى مجتمع معين .

ولايقتصر تعقد الثقافة على كثرة وتشابك السمات الثقافية التى تدخل فى تكوين الثقافه السائدة فى أى مجتمع معين ، إذ الواقع أن معظم هذه السمات

الثقافية تتكون هى ذاتها من عدد كبير من العناصر الثقافيه والتى يمكن التمييز بينها بنفس الطريقة التى تعتبر بها الظاهره الاجتماعية وحده مركبة من وحدات أخرى أكثر بساطه ، مثال ذلك مانجده عند بعض قبائل الهنود الحمر الذين يعيشون حول بحيرة « سو بيريور » حيث يعتبر الارز البرى من السمات الهامة فرغم البساطه الظاهرة لهذه السمه فانها تتألف فى واقـع الأمر من عدد كبير جدا من العناصر الثقافية التى تتمثل فى الممارسات والطقوس والعادات التى تمتزج كلها معاً لتؤلف هذه السمة (١) .

وهذا نفسه يصدق على كثير من السمات الثقافية التى يعتبرها الباحثون الانثربولوجيون بمثابه مركبات ثقافية « كالذبيحه » عند أولاد على فى مصر مثلا إذ تلعب دوراً هاما فى الثقافه البدوية التقليدية ، بل أنه يمكن النظر إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسيه من خلالها ، فهى تلعب دوراً هاماً فى التماسك والضبط الاجتماعى وهى أساسيه فى أقامة الحفلات والولائم ، فقد تكون كرماً وضيافة ولا بد من تقديمها لأى فرد من أفراد « الخوت » فاذا لم تنحر من قبل الأخ لأخيه ففى ذلك مهانه ، كما أنها تقدم للمسافر فى حالة نزوله على نجع من النجوع أو للعائلة التى تفد إلى النجع لأول مرة تكريما لها وترحيبا بنزولها مضاربهم ونجوعهم ، كما تقدم لكل ذى مركز مرموق من الموظفين المعنيين بشئون المنطقه ، كما تنحر المرأه أيا كانت فى حالة نزولها على عاقلة أو شيخ تريد الزواج بمن تحب أو كارهة الزوج الذى ارتضاة أهلها ، ثم هى عادة وتقليد عند فطام « الحوالى » فى أول الربيع يقدمها « الموال » أى

---

(١) د . أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، المفهومات الهيئة المصريه للعامة ١٩٦٥ ص ١٩٤ .

مربى الماشيه على سبيل الذكاه ويوزعها على جيرانه وأقاربة فى النجع أو النجوع المجاورة ، كما تقدم في أيام « الجلامه » لمن يشاركون فى عملية « التجليم » أى قص الصوف ثم هى «شكرانية» يقدمها البدوى شكرا لله على عطائه واعترافاً بنعمته وفضله ؛ وينحرها أولئك الذين يرغبون فى الحج ، كما تقدم فى مناسبات سقوط الأمطار على سبيل الشكر للخالق الذى اسبغ عليهم نعمة المياه فحرثوا الأرض وزرعوها وحصدوها ، كما تنحر فى موسم عاشوراء ومولد النبي ، وبعد الشفاء من الأمراض أو انجاب الذكور بعد غيبة طـويلة ، ثم هى دلالة على المركز والنفوذ ، فهى تنحر فى شتى المناسبات ؛ ويقدمها كل من له مركز اجتماعى مرموق كأن يكون شيخاً أو عمدة أو كبير للنجع ، ثم هى مشاركة للاخرين فى أفراحهم وأتراحهم إذ تقدم فى حالات الزواج سواء فى الخطبة أو الرفاف ، كتلك التى يقدمها والد العروس يوم زفاف أبنته وتسمى «وشاحه» أو تلك التى يقدمها والد الزوج وتسمى « دايرة » ، كما يقدمها آخرون فى مناسبات الطهور والحج والخروج من السجن أو في حالات الوفاة كنوع من التكافل الاجتماعى إذ يقدمها الأهل والجيران مشاركة وعزاء كما يقدمها أهل الميت أنفسهم ، وفى هذا الصدد يقولون «لايخرج الميت من البيت دون ونيس» ثم هي جزاء وعقاب يحتمه العرف السائد في عمليات « الكبارة » أو عند دفع الدية ، كما تنحر فى حالات تسوية المنازعات القبلية وعاده مايقترن الجـــزاء « بالذبيحة » وتقديمها ليس جزافا انما يخضع فى الواقع لقواعد ولتزامات يجب مراعاتها وإلا كانت مثارا للنقد والسخرية ، فالذبيحة يجب أن تكون مناسبة فى حجمها وإلا اعتبرت أهانه ، « فالربعيه الصبوحه » أى صغـيرة الحجم ولايتجاوز عمرها شهوراً تلحق بصاحبها المهانه وتعرضه للجزاء .

وبالمثل يمكن النظر إلى العديد من السمات المركبة مثل «ركب الماشية

Cattle Complex لدى بعض القبائل الافريقية أو الطوطمية (*) لدى كثير من الشعوب والقبائل الاستراليه وشمال افريقية وجزر الملايو والفيلبين والهند، إذ تقترن هذه المركبات بمجموعة من الافكار والمفاهيم السائدة والتي يعتقدون فيها وتلعب دوراً واضحا في حياتهم وفي نظرتهم للاشياء .

بيد أن كثيرا من الباحثين يؤكدون على خاصية هامه تلك التي تذهب الى اقرار مبدأ تكامل الثقافة ، وقد أشاروا إليه بطرق شتى تدور حول أن للثقافة مبدأ خاص أو محور مركزى أو بؤره ثقافيه أو دوافع مميزة تميزها عما عداها، حقا قد نفتقر الي المعرفة الدقيقه للدوافع الحقيقية التي تحقق تكامل الثقافة ، ولكن الباحثين والعلماء يجمعون على أن الثقافات تستهدف تحقيق هذا التكامل مهما كانت بسيطه وهى تختلف من حيث درجه نجاحها في تحقيق هذا التكامل أو الاتساق ، يذهب كروبر Kroeber و Kluckhohn الي القول ، أن السمات الثقافية تميل لأن تشكل كلا متكاملا متناسقاً، ويؤكدان انهما يستخدمان كلمة (الميل) لانهما يرفضان موقف الوظيفيين Functionalists (**)

(*) تطلق كلمة طوطم Totem على كل أصل حيوانى أو نباتى تتخذه عشيرة ما رمزا لها ، ولقبا لجميع أفرادها، وتعتقد انها تؤلف معه وحدة اجتماعية وتنزله وتنزل الأمور التي ترمز إليه منزلة التقديس ، فاذا كان « الذئب » مثلا طوطما لعشيرة ما ، فمعنى ذلك أن هذه العشيره تتخذ هذا الحيوان رمزا لها يميزها عما عداها من العشائر ولقبا يحمله جميع أفرادها للدلاله على انتمائهم إليه وتعتقد انها هى وفصيلة الذئاب من طبيعه واحدة .

(أنظر معجم العلوم الاجتماعية ، مجموعة من الاساتذة المصريين والعرب ، مراجعة د. ابراهيم مدكور ، الهيئه المصرية العامة ، ١٩٧٥ ص ٣٧٢ ومابعدها) .

(**) من أمثال ربرتسون سميث Robertson Smith وفونت Wunt =

من حيث رؤيتهم للثقافة على أنها انساق متكاملة متجانسة وأن أجزائها المتباينة في توازن تام ، انها بتمسكان بما ذهب إليه (سمنر) Sumner في معرض حديثه عن الطرق الشعبية والسنن الاجتماعية ، انها تمثل سلسلة متماسكة الحلقات ولكن ليس ثمة تكامل تام أو مطلق لسبب بسيط هو أن الأحداث التاريخية تحقق نوعا من الاضطراب ، فهناك دوما تغييرات حادثة أو طارئة في كافة المجالات كالعمل والعلاقات والشعائر الدينية ... الخ[١]

ونحن نميل الى هذا الاتجاه فليس هناك تكامل مطلق للثقافة ، وأن فكرة التكامل هذه نسبية ، والفضل في توجيه الانظار الى هذه الفكرة إنما يرجع الى مدرسة الجشطالت Gestalt والتى ذهبت الى ابراز فكرة الادراك الكلى ، وأن الكل شيء أكثر من مجرد مجموع الاجزاء الداخله في تكوينه ، واننا لا ندرك الاجزاء منفصلة ، وليس كافيا أن تدرك الجزئيات ، فكل شيء يرتبط بالآخر في الواقع الثقافى ، وهناك دوماً قدر من التوافق والتكيف والتلاؤم بين العناصر والسمات الثقافية ؛ وينبغي أن ندرك أن دور السمة الثقافية هى درجة تفاعلها أو فاعليتها وديناميتها فى الثقافة ككل ، فاللوحه الفنية ليست مجرد ألوان وورق وخطوط وظلال أنما هى خليط من العناصر المتآلفة صيغت أو وضعت بطريقه معينة ، وهناك تداخل بين الألوان والظلال

= و Frazer ، وستر مارك Wester Mark ، ماريت Marett ؛ ميرتون Merton ، بواس Boas ، كروبر Kroeber ، بندكيت Benedict وآخرون.

(1) Kroeber, Kluckhohn, Culture a critical Review of concepts and Definitions, Wintage book, Random House, p. 169.

ولكنه ليس عشوائيا وانما تم وفق الاهداف التى استهدفها الفنان تعبيرا عن ذاته ووفقا لما يمليه عليه أحساسه بالتذوق وادراكه للتكوينات الفنية .

* * *

ذكرنا منذ قليل أن الباحث مهما أوتى من قدرة ومهما كان اعتماده على الأخباريين لايستطيع أن يحيط بكل جوانب الثقافة ، نظرا لطبيعتها التراكمية ومن ثم يجد نفسه مضطراً إلى التركيز على جوانب محددة دون أخرى فان ثمه مجال للاختيار ، ولكن هذا الاختيار لايتم كيفما أتفقق وانما يخضع فى واقع الأمر للخلفية النظرية التى تأثر بها الباحث ، ففى الانثربولوجيا كما هو الحال فى العلوم الأخرى مجموعة من الأفكار نحاول البرهنة عليها أو تدعيمها بالأدلة ، فاذا كنا فى مجال البحث الإنثربولوجى تستهدف جمع الماده مستخدمين الملاحظة أو أساليب أخرى ثم تقوم بتصنيفها وترتيبها بقصد التمييز بين الخصائص والصفات الأساسية لهذه المادة من أجل الوصول إلى التعميمات فاننا قد نفعل ذلك من أجل استنباط المبادىء والنظريات هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فاننا نستهدف اختبار النظريه ومدىصلاحيتها، فالنظريه بالنسبة للباحث فى الانثربولوجيا انما هى وسيلته التى تعينه على النظر إلى الظواهر وشرحها،وقد يختار الباحث نظرية دون أخرى لأنها قد توحى إليه بمتطليات أكثر واقعيه أو قد تزوده باجابات أكثر وضوحا للاسئلة التى يثيرها . وعلى الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت فى مجال الانثربولوجيا الثقافيه فاننا لانستطيع الزعم بأن هناك انجازات كبيرة فى النظريه وأن هناك صعوبات كثيرة اعترضت عمليه التنظير هذه ، وهذا ماذهب إليه « كسينج » Kessing فى كتابه الذى نشر فى أوائل الخمسينات حين استهلة قائلا « ليس هناك نظرية أو منهج

متكامل فى الدراسات الانثربولوجية الثقافيه على الرغم مما انجزناه حتى الآن وأننا لانستطيع القول أن هناك نظريات عديدة قابله للتعميم » (1) .

إن الاتجاهات النظريه تظهر وتنمو وتزدهر وتصبح لها ركائزها الخاصة فقد يهتم اتجاه بنواحى معينة فى حين يهملها اتجاه نظرى أخرى ويظل الحال هكذا الي أن يقوم اتجاه ثالث له اهتمامات أخرى ، وهكذا فان نمو النظرية يمثل عملية ديناميه مستمرة تستهدف القاء الضوء على السلوك الانسانى المتغير ، ورغم اختلاف وجهات النظر فان ما تثيره هذه الاتجاهات النظرية جديرة بالاهتمام .

لقد حاول الانثربولوجيون منذ البداية أن يفسروا الاختلاف الثقافى بين المجتمعات فى اطار نظرية التطور (يضم الاتجاه التطورى كلا من أصحاب نظرية التطور والانتشار) ومن خلال دراساتهم لعددمن الشعوب وان شابت نظرتهم التطورية هذه الكثير من الآراء الظنية والتخمين والافتراض وذلك لافتقارهم كما نعلم الى الدراسات الحقلية ، وكان شاغلهم الاكبر البحث عن الاصول الأولى أو البدايات للنظم والثقافات معتقدين أن هذا هو الطريق الى فهم كيفية تطور الثقافة الانسانية والسلوك الانسانى ، ويمكن القول أنهم كانوا ينزعون الى الاعتقاد أن الثقافات قد نشأت وتطورت فى سلسلة من المراحل المتوازيه وإن كان لهذا لم يمنع من وجود بعض المجتمعات البدائية لم تتطور بعد ، يمكن أن تمدنا برؤى واضحة عن الثقافات القديمة ، وضربوا امثلا بذلك الانماط الثقافية كالقنص والجمع والالتقاط ، أو الزراعة البدائيه ، أو

---

(1) Lurie, nancy, « culture Change » in Culture Anthro pology, op. cite, P. 275.

الثقافات الرعويه ، وهم في محاولتهم تلك انما يحاولون أن يقدموا صوره للتتابع الزمنى للثقافات المتطورة . ويمكن اعتبار رائد الانثربرلوجيا تايلور Edward Tylor أحد الرواد الأوائل في هذا الاتجاه وقد ظهر هـذا الاتجاه واضحاً فى كتابة الثقافة البدائية Primitive Culture (١٨٧١) ، وقـد تأثر به آخرون ممن كرسوا أنفسهم واعطوا الكثير من جهودهم لدراسة التطور الثقافى مثل الأمريكى لويس مورجان Lewis Morgan أحد المشايعين لنظرية التطور الحتمى فى القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة والذى حاول منذ نحو مائة عام الربط بين المراحل المتعاقبة أو المتتالية للثقافات وبين التطور التكنولوجى ، ونظر إلي تطور الثقـافه الانسانية كما فعل تايلور من حيث تقسيمها إلى مراحل رئيسيه ثلاث ولكنه اضاف إليها تقسيم كل من مرحلتي البربرية والتوحش إلي ثلاث أقسام فرعيه تتميز بمنجزاتها التكنولوجية ، أي أن مراحـل التطور التكنولوجى تصاحب تتابع الانمـاط الثقافية المختلفة، أي أنه يرى أن الثقافات تنمو خلال سلسلة من المراحل التطوريةالمتقدمة كل تقوم على أخرى أكثر تعقيدا وأكثر كفاءة وفعاليه [1] . وقد اعتمد على تجربته الذاتيه في دراستة لقبائل الاركواى Iroquois وجماعات هنديه أخرى فى أمريكا وكذلك اسهامات عدد من الباحثين فى مناطق مختلفة من العالم ، لقد حاول تصنيف الثقافات من خلال وجـــود أو غياب السمات التكنولوجيه المميزة والتى تحدد مكانها فى سلم التطور ، ومن ثم جاءت مراحلة السبعه التى أشار إليها (*) .

---

(1) Ember & Ember, Anthropolgy, op. cite, P. 106 :

(*) مرحلة الهمجيه الدينا Lower Savagery وفيها ظهر الانسان الذى استخدم اللغة واعتمد في المعيشة على الفاكهه والثمار .

=

ومن هذا القبيل أيضا ماذهب إليه Frazer في تفسيرة للتطور الثقافي فى كتابة « الغصن الذهب » the Golden Bough (١٩٠٠) . وأن ثمة انتقال من مرحلة السحر (محاوله التحكم فى الطبيعه) إلى مرحلة الدين(عجز الانسان في بعض المواقف) إلى مرحلة العلم (الاتجاه المنطقى فى تفسير الظواهر) . وحتى فى نطاق علم الاجتماع الذي لم يكن قد استقل تماما عن الانثر بولوجيا فإننا نجد الشخصيات البارزة مثل H. spencer فى كتابة«مبادىءعلم الاجتماع» واميل دور كايم Emile Durkheim في كتابة « تقسيم العمل الاجتماعى »

= مرحلة الهمجيه الوسطى Middle Savagery وتتميز بالسيطرة على النار واختراع القوس والسهم وممارسة الصيد .

مرحلة الهمجية العليا Upper Savagery وتتميز بأختراع القوس والسهم على نطاق أفضل وتنتهى بأختراع الفخار .

مرحلة البربريه الدنيا Lower barbarism وتتميز بالاستمرار فى صناعة الخزف والفخار وتستمر المرحلة حتى اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان.

مرحلة البربرية الوسطى Middle Barbarism وتتميز باستئناس الحيوان ومعرفة الزراعةالتى تقوم على الرى .

مرحله البربرية العليا Upper Barbarism تبدأ بصناعة الحديدو تنتهى باختراع حروف الهجاء .

مرحلة الحضارة Civilization تتميز باستخدام الكتابة والتسجيلات المكتوبة .

أنظر فى ذلك : **Hammond,** op - cite· PP - 442 - 44

ناقشا الاتجاه التطورى (١) .

وفى الحقيقة أننا لانستطيع أن نحشد أسماء جميع من ساهموا في نمو النظرية التطوريه وبلورتها , فلا شك أن هناك الكثيرين من الانثربولوجيين والذين أسهموا بطريقة أو بأخرى فى تكوين هذا الاتجاه . ولكننا سنكتفى كما فعلنا منذ قليل باثارة الافكار الرئيسيه وأصحابها أولئك الذين ساهموا فى بناء النظرية، وبصفه عامة يمكن القول أن هؤلاء التطوريين الأوائل قد آثاروا عدد من المبادىء لعل أهمها :

(١) أن هناك قوانين كلية تحكم الثقافة الانسانية وأنها تمر بمراحل تطوريه حتميه متمايزه ، فثقافه أى مجتمع تتطور فى طريق واحد خلال مراحل محددة .

(٢) يسلم هؤلاء التطوريون بظاهرة التغير الثقافى ويردونه إلى أختلاف المراحل التطورية للثقافات الانسانيه . أى أن الثبات والتغير سمه أساسيه تميز الثقافات على اختلافها .

(٣) أن اكتساب السمات الثقافية هذه أو توارثها انما يعتمد على القدرات العقلية للانسان وهذا يرتبط بالمفهوم السائد عن وحدة التكوين الفسيولوجى للانسان ، وطالما كان الانسان يتوارث مكوناته الفسيولوجيه فان أفراد المجتمع يتوارثون الثقافة بالقدر الذى تتيحه لهم قدراتهم العقلية . أى أن التقدم والتطور مرده إلى تفوق أو تخلف العقل البشرى .

(٤) أن عناصر الثقافه ومكوناتها قابلة للاستعارة أو الانتقال من ثقافة إلى أخرى .

(٥) أن عوامل التغير الثقافى تنمو ذاتيا وتظهر مع ظهور المرحلة التطورية بغض النظر عن تأثير الزمان أو المكان .

(1) Kaplan, David, Manners, R., Culture theory, Prentice - Hall Inc. New Gersey, 1972. P. 36 :

(٦) ان الثقافات تتطور ذاتيا وتنتقل من مرحلة الى أخرى لمجـرد ظهور العوامل والشروط الكافية لظهور هذه المرحلة(١).

ويضيف Ember فى معرض حديثه عن التطوريين إلى أنهم يؤمنون بأن هناك وحدة سيكولوجيه يشترك فيها الناس جميعا على أختلاف ثقـافاتهم تتيح ظهور واختراع السمات الثقافيه فى تواز ومن ثم يتطور الناس فى طرق متشابهة، بمعنى آخر أن الثقافات وكنتيجه لهذه الوحدة تواجه مشاكلها بنفس الحلول(٢)

وعلى الرغم من هذه المبادىء أو الافكار التى أثارها التطوريون إلا أنهم قد واجهوا نقدا عنيفا، ويمكن القول أن التطوريه الحتميه التي سادت القرن التاسع عشر قد أصبحت غير ذات قيمه لاسباب كثيره لعل أهمها :

أولا . شابت نظـــره التطوريـــين الأوائل التـــأمل واعتمدت نظرياتهم على معلومات غير دقيقه جمعها الرحالة والمبشرون والتجـار من هنـا وهناك، فجاءت أنطباعاتهم مبعسره واستندت تفسيراتهم الى افتراضات وتخمينات لم يستطيعوا أن يقدموا لنا تفسيرا واضحـا لفكرتهم عن « التطور المتـوازى للثقافة والمرتبطة بالتقدم الحتمى »، ومن ثم فان دعواهم بأن كل الثقافات يجب أن تمر فى مراحل متعاقبة وحتمية الى الأفضل، وفى نفس الطـــريق الذى سادت فيه انجلترا الفيكتوريه Victorian England (*)(٣) دعوى باطلة.

(1) Nancy ; Culture Change in Introduction to cultural Anthropology, p. 206

(2) Ember & Ember; op. cite p. 202

(*) بانجلترا الفيكتوريه Victorian England أى انجلترا فى عهد الملكة فيكتوريا ١٨٣٧ - ١٩٠١ ويطلق هذا الاصطلاح (الفيكتورى) على =

كيف يمكن إذا أن نفسر التطور غير المتوازى بين الشعوب والثقافات؟ . إذا افترضنا بصحة النظرية القائلة بوحدة التكوين الفسيو لوجي أو السيكلوجى للانسان ، ان افتراضاتهم ليست حتميه بالضرورة كما يزعمون ، هل يمكن القول أن مجتمعاً مثل الاسكيمو فى (الاسكا) سوف ينتقل من مرحلة الصيد الي الزراعة المنظمة على النحو الذى نجده فى مصر والشرق الاوسط مثلا هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان الاساس الذى قامت عليه هذه النظريه أساس ضعيف واه فالمادة الاثنوجرافية التي اعتمدوا عليها ضحلة ولم يقم بجمعها انثولوجيون متخصصون ، لقد اعتمدوا على ما قدمه لهم الهواه من الرحالة ورجال الادارة كما أسلفنا ، ومن ناحية ثالثة نجد أن الزعم بان تطور الثقافات حتمي أمر مرفوض وفى هذا يقول Ember أن لدينا الكثير من الشواهد التى تؤكد أن المجتمعات لا تتقدم بالضرورة عبر هذه المراحل ، فبعض الثقافات قد اندثرت والبعض الآخر تخلف عما كان عليه فى حين أن ثقافات أخرى قد تقدمت وازدهرت فاذا كان التتابع الزمنى غير حتمى فلا يمكن القول أن التطور حتمى(*) [1] . ثم من أين لنا بالمادة الكافية لإعادة بناء الماضى حتى القريب منه وليس البعيد .

= مجموعة السمات والخصائص (الاتجاهات الفكرية والاخلاقية) التى سادت عهد الملكه فيكتوريا .

(3) Kaplan, David, op. cite. p, 39.

(*) هناك دراسات عديدة قام بها الباحثون وجاءت نتائجها مخيبة لآمال التطوريين ، فعلى سبيل المثال الدراسة التى قامت بها (أليس فلتيشر) Alice Fletcher فى بحث انوجرافي Ethnagraphic Research عن قبائل =

أن اعادة بناء تاريخ الثقافات القديمة خاصة تلك التى لم تعرف الكتابة معقد جدا ، فالتسجيلات الكتابية معدومة ، يقول Hammond « أن التسجيلات الكتابية لبعض الشعوب أو الجماعات المنعزلة جغرافيا وثقافيا كتلك التي تعيش فى مناطق الغابات الاستوائية جنوب أمريكا وغينيا الجديدة لا تذهب لاكثر من عشر سنوات وهى نادرة(٢)» . وبالتالى فان امكانية الحصول على المادة المتاحة فى القرن التاسع عشر لا تمكن من اعادة بناء تاريخ الثقافة وحتى الآن فما زلنا فى حاجه الي تطوير وتنوع المصادر التى تفى بتحقيق هذا الغرض . وبصفة عامة يمكن القول أن محاولة رسم صورة للثقافات القديمة انما يعتمد على مصادر ثلاث :

(١) المصدر الاركيولوجي والذى يقوم على تحليل المخلفات المادية لطرق حياة هذه الثقافه أو تلك .

(٢) المصدر اللغوى ويستهدف تحليل لغات الثقافه المتباينة فربما كشف هذا عن نشأتهم أو أصولهم أو أوجه الشبه بينهم وبين جيرانهم الذين شاركوهم في وقت ما ثقافتهم الأصليه .

(٣) الانثوجرافيا المقارنة وهى مصدر هام للحصول على المادة التي تمكننا

= الأوماها umaha أوضحت فيها أن هذه القبائل لم تنتقل بعد من مرحلة الصيد الى مرحلة الزراعةرغم وجودفكرة الملكيه الخاصة لديهم ورغم محاولات الدولة تقديم التسهيلات لتحقيق هذا التحول وتبرر الباحثة ذلك بقولها أن الموروثات الثقافية لديهم تتنافى مع النشاط الاقتصادى الزراعى المنظم .

(1) Lurie, Nancy, o. ; Cultural Change'' op. cite p.p. 279-280

(2) Ibid P. 394

من مقارنة أساليب الحياة للجماعات التى نريد دراستهـا وغالبـا ما نكشف عن المتشابهات والتى تدعم امكانية الاستعارة الثقافية.

ثانيا : يذهب David Kaplan الي أن كتابات تايـلور Tylor ومورجان L. Morgan عن التطور قد اتسمت بالغموض ، وأن محاولتها بناء المراحل التى من خلالها تطور الجنس البشرى غير واضحة لانها لم يكشفا عن الميكانيزمات الفعلية Actual Mechanism والتي من خلالهـا انتقل الانسـان من مرحلة الي أخرى ، فأحيانا يدفعون بمبررات ايديولوجيه وفى أحيان أحيان أخـرى بأسباب تكنولوجية وفى أحيان ثالثة بمبررات الحتمية وهذا يفسر لنـا سر الغموض فى كتابات تايلور ومورجان[1] .

ثالثا : أن أحد أوجه النقد الاكثر شيوعا يتمثـل فى أن التطوريين فى القرن التـاسع عشر كانوا على درجـة عاليـة من التمـركز حـول العرق Ethno-Centerism ، فعلى سبيل المثـال افترضوا أن انجلـترا في عهـد الملكة فيكتوريا تمثل أعلي مستويات الانجاز البشرى ، بيد أن فكرة التمركز حول الذات ومشاعر التحامل والتحيز Prejudice تحتاج الى بعض التعليق ، إذ أن الانسان يمكن أن يتمركز حول العرق في طرق متعددة . فقد يكون جاهـلا بالتنوع الهائل فى الثقافات والمعتقدات حيث طرق حياته الخاصة لاتتشابه معها ، وبالطبع لم يكن التطوريين متمركزين حول العرق أو لديهم مشاعر التحيز بهذا المعنى ، فالمبشرون ورجال الادارة والعسكريين والتجار قد زودوهم بالكثير من المعلومات وان كانت تفتقر الي الدقة في كثير من الأحيان ، ومن ناحية أخرى فان التمركز حول العرق ومشاعر التحامل والتحيز يمكن أن يأخـذ صـورة

---

(1) Kaplan & Hanners, op. cite p. 41

أخرى حيث يفترض الانسان التفوق العقلى والاخلاقى لثقافته عن الثقافات الأخرى ، هنا يوجد أدلة كثيره على أن التطوريين فى القرن التاسع عشر كان لديهم هذا المعنى من التحيز أو التحامل أو بمعنى أدق الشعور بالتفوق لثقافتهم والجدير بالذكر أن موضوع التفوق الاخلاقى لثقافه على ثقافة أخرى مستحيل عمليا وواقعيا (١) . ولا أدل على ذلك من أن بعض العلماء الذين هاجموا الصيغ التطورية قدموا لنا قائمة للفضائل فى المجتمعات البسيطة أو ماسموها بالبدائية ومقابلتها بقائمه من الرزائل ومواطن الضعف فى المجتمعات الصناعيه أو تلك التى أسموها بالمجتمعات الحديثه .

وفى الحقيقة أننا يمكن أن نلتمس بعض العذر لهؤلاء التطوريين لأنه ينبغى أن نأخـــذ فى الاعتبار الظروف الاجتماعية التاريخية الخاصة التى ظهرت فيها كتابات هؤلاء التطوريين وكما يقول Manners أنهم كانوا يحاولون بناء علم طبيعى لمعالجه الظواهر الثقافيه أو ماأسماه تايلور « علم الثقافة » ومن ثم حاولوا البرهنه على أن الثقافه قـد تطورت ونمت بطريقه طبيعيه هذا من ناحيه ومن ناحيه أخرى فإن ثمة صعوبات قد واجهت التطوريين تمثلت فى انتشار التفسيرات الميتافيزيقيه ومن ثم فإن هؤلاء الباحثين قد تغلبوا على ندره الماده الامبريقية الموثوق منها بمحاولة تقديم بناء تصورى لتاريـخ الثقافات والشعوب ومن ثم شغلوا أنفسهم بالتأملات النظرية (٢) .

وإذا كان التطوريـــون يعتقدون أن الثقافة تتطور ذاتيا ، وأن المجتمع

* * *

(1) Ibid, P. 42 .
(2) Ibid, P. 40 .

البشرى ينتقل من مرحله بسيطه إلى أخرى معقدة وأكثر تقدما بمجرد توفر العوامل والشروط الكافية لظهور المرحلة الحديثة فإن الانتشاريين يذهبون إلى تأكيد الحقيقه القائلة بأن انتشار السمات الثقافيه بين الثقافات المتباعده أو القريبة يساعد على تهيئه الظروف الكفيلة باحداث التغير الثقافي أو الانتقال من مرحله إلى أخرى . ومن ثم أبرزوا أهمية الاتصال الثقافى Cultural Contact أو التفاعل بين الجماعات وبالتالي انتقال السمات الثقافية Cultural Traits من مجتمع لآخر ، ويمكن القول بصفه عامه أن هناك ثلاث مدارس أساسيه ، البريطانية ويتزعمها اليوت سميث Elliot ووليام بيرى W.Perry وريفرز W.Rivers وترى أن هناك مركزاً للحضارة هو مصر التى عرفت الزراعة ، كما عرفت بناء الأهرامات وعبادة الشمس ومنها انتقلت إلى الكثير من انحاء العالم فأهرامات المكسيك أو اليابان أو السودان أو العراق انما هى في الحقيقة تقليد للنموذج المصرى ، لقد ذهب هؤلاء الانتشاريون إلى أن هذة الابنيه المعقدة لايمكن اختراعها ذاتيا بواسطه هذه الشعوب، واكدت هذه المدرسة أن التطور المتوازى المستقل نادر الحدوث لأن الناس ليسوا جميعا مبتكرين بالفطرة وأنهم يميلون للاستعارة، وقد امتدت أبحاث هؤلاء الانتشاريين البريطانيين إلى صناعه النسيج والخزف والفنون ونظم الحكم والاداره والديانة ... الخ .

وقد أيدت المدرسه الألمانيه النمساويه هذه الآراء إلا أنها افترضت وجود دوائر ثقافيه وأن ثمة مراكز حضارية متعددة وليس مركزا حضاريا واحداً وأن هذه الدوائر أو المناطق تشترك في سمات ثقافية واحدة ، وأن عناصر الثقافه المنتشرة تظل بقوتها وتأثيرها وجوهرها الأصلى بالقرب من المركز

وتفقد قوتها كلما أبتعدت عنه وذلك بالاندماج أو التكيف مع عناصر جديدة ومن اقطاب هـــذه المدرسه جرينز Groebnes وشميدت Schmidth .

أما المدرسه الأمريكية فتؤيد فكرة أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولا وقبل كل شيء فى مركز ثقافى جغرافى محدد ثم انتقلت إلى مناطق أخرى وإن كانت هذه المدرسه (كلارك ويسلر Wissler والفريد كروبر A'Kroeber) ترفض ماذهب إليه البريطانيون وغـــيرهم من الانتشاريين من الزعم بعدم امكانية التطور المتوازى المستقل وأن الناس بطبيعتهم غـير مبتكرين ، وأنهم اكثر ميلا للاستعارة ، ومـــع أن هؤلاء الانتشاريين على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم وجنسياتهم يسلمون بأنتشار السمة الثقافيه (*) إلا أنهم كما يقول Ember قد تناولوا موضوع انتشار السمه الثقافية بطريقة ضحلة . وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية لأن المشكلة فى الواقع تتمثل فى القاء الضوء على قبول أو رفض السمة أو حتى مجرد تعديلها ، وحتي لوامكن البرهنه على كيفية وسبب انتشار السمة فإن المشكلة مازالت ماثـــلة ألا وهى سبب ظهـور

(*) من هـذا القبيل ماذهب إليه لنتون Linton عن انتشار التبغ والذى عرفه الهنود فى منطقة بيرو وبوليفيا أو الأرجنتين ، ومن هناك إلى معظم أمريكا ثم إلى البرتغال وأسبانيا فى منتصف القرن السادس عشر ، ومن مدريد ولشبونه انتقل إلى بقيه أوربا فالبحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط ومن هناك إلى أسيا وافريقيا واخيراً إلى المحيط الهادى ، ثم مالبث أن انتشر فى العالم باسره لتدخل مرة أخوى إلى أمريكا من لاسكا .

(Hammend, op, Cite P, 374) .

السمة فى مكانها الأصلى[1]..

ثم ما لبث أن حدث رد فعل نتيجه للافراط النظـرى والمنهجى لهـؤلاء الانتشاريين Diffusionists حمل لواءه فرانز بواس F. Boas (٭) والذى يعتبر بحق أحد مؤسسى الاتجاه التاريخى ويسمى عاده منهج الخاصية التاريخية حيث يركز على جمع الحقائق عن تاريخ الثقافات والشعوب ، لقـد رفض F. Boas نظريات هؤلاء التطوريين والانتشاريين فى نشأة الثقافه ورأى ضرورة التركيز على دراسة ديناميات الثقافة وتفاعل الثقافات من خلال التحليل المقارن للأنماط الثقافية والتى ينبغى على الانثربولوجيين أن يعكفوا على دراستها والتركيز على جمع المادة الاثنوجرافية المحددة ، والتى تعينهم على تحديد مسار الثقافة وتفاعلها والبعد عن التقييم فى ضوء ما لدينا من معرفة عن الثقافة الغربية .

أن المعرفة الاثنوجرافية المحدوده التى لدى هؤلاء التطوريون لا تمكنهم بأى حال من وضع نظريات موضوعيه عن الحياة الاجتماعية لهذه الشعـوب ، ربما يأتى اليوم الذى يتمكن فيه هؤلاء الانثربولوجيون من ذلك إذا ما استطاعوا الحصول على معلومات اثنوجرافية كافية . يقول د. أحمد ابوزيد فى كتابه البناء الاجتماعى « لقد كان بواس يعارض الفكرة السائدة عن وجود صيغة واحدة ثابتة للتطور الثقافى ينطبق على الماضى مثلما ينطبق على المستقبل بالنسبه لكل المجتمعات وبغير استثناء وأن التطور الثقافى يسير دائمـا من البسيط الى المركب فى مراحل معينة ومرسومة تحدد بالضرورة درجات التقدم التى احرزها

(٭) هذا العالم الطبيعى الذى درس جماعة الكواكتيل على الساحل الشمالى للهند ، ، تعلم لغتهم وكرس جهده لتدوين ملاحظاته عنهم فى شىء من التفصيل.

Ember, op. cite p. 20

الجنس البشرى ، وذلك لم يمنعه من أن يؤمن بامكان دراسة التطور فى نطاق كل ثقافة على حده ، كما لم يمنعه من الاقرار بحدوث التقدم فى بعض ميادين الثقافة كالتقدم فى ميدان التكنولوجيا مثلا . ومن هنا كان بواس مثلا يرى ضرورة الاكتفاء في الابحاث الانثربولوجية على دراسة ثقافات معينة بالذات مع تتبع انتشار سماتها وملامحها فى مناطق ثقافية محددة وليس فى العالم أجمع وذلك تبعا لتوفر المعلومات والحقائق اليقينية المؤكدة(١) .

وعلى هذا يمكن القول أن دراسات F. Boas وتلاميذه(*) . قد أفادت ووجهت الانظار الى ضرورة الاهتمام بالدراسات الحقلية المركزة والتى تفيد فى فهم تفاصيل ودقائق الحياة الثقافية وهذا يلقى الضوء على أهمية التفاعل بين النماذج أو الأنماط الثقافية ، وأنه من السابق لأوانه صياغة القوانين الكلية ، وليكن هدفنا جمع أكبر قدر ممكن من المادة الاثنوجرافية وثيقة الصلة بالتباين الثقافى ، ومن ثم يمكن الوصول فيها بعد الى القوانين التي نستهدفها ، ومنذ ذلك الحين والمحاولات مستمرة من جانب الباحثين على جمع أكبر قدر ممكن من المادة لجماعات متباينة فى منطقة ثقافية ما (**) . وطبقا لمجموعة من المعايير

---

(١) د. أحمد أبو زيد. البناء الاجتماعى ، المفهومات ، الطبعة الخامسة ١٩٧٦ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(*) يعتبر فرانس بواس استاذا لأكثر من اثنى عشر استاذا لامعا فى الأنثربولوجيا فى هذا القرن

(**) يعرف Ember المنطقة الثقافية Cultural Area بأنها الأقليم الذى يشمل على عدد من الثقافات الفرعية المتشابهة فى عدد من الملامح الأساسية
(Ember & Ember op. cite p. 76.)

أو المقاييس وعادة مايركزون على الارتباط بين انماط محددة فى البيئة الطبيعية وأنماط التكيف التكنولوجي ، فعلي سبيل المثال نجد أن Driver قام بتقسيم الجماعات الهنديه في أمريكا الشمالية إلى ١٧ منطقة ثقافيه فرعيه تمتد من المنطقة القطبية الشمالية إلي بناما(*) وكذلك هرسكوفيتس Herskovits اتخذ مدخلا متشابها لتصنيف المناطق الثقافية فى أفريقيا .

وبصفه عامة يمكن القول أن هؤلاء الانتشاريين وجهوا انظار الباحثين إلى دراسة عدد من الموضوعات المحددة مثل الانتشار الثقافى أو الاستعارة الثقافية أو التغير الثقافي والتكيف الثقافى والاتصال الثقافى وماإليها ، ويمكن القول أن الأوضاع العالمية ساعدت على ذلك فثمة أتصال ثقافى حادث بين الأوربيين والافارقة وأن الدراسة المقارنه بين هذه الثقافات يمكن أن تكشف عن الانماط الثقافيه التقليدية والانماط المتغيره كما يمكن أن تكشف عن أنتقال السمات الثقافيه من شعب لآخر ، وقد اعتمد هؤلاء الباحثين على أسلوبين لجمع المادة حتى يمكن بناء أو تحديد السمات العامة أو مظاهر التنوع الاقليمى أو الكشف عن السمات الثقافيه المهاجرة .

الأول : ماذكره شاهدوا العيان فى المراحل الأولى للاتصال أو ماكتبه الرحالة والمبشرون وتجار الرقيق وغيرهم من الهواه .

(*) ومنها على سبيل المثال المنطقه القطبيه الشماليه الغربيه Westeru Arctic والساحل الشمالى الغربي ، كاليفورنيا ، والسهول و منطقة ماكينزى Mackanzie ... الخ .

الثانى : الدراسات الاثنولوجية الحديثه المعتمـدة على الابحاث الميـدانية ، ولاشك أن تحليل الماده المستوحاه من هذين المصورين يمكـن أن يساعـد فى تكوين صوره عن نمط الحياة فى المجتمعات القبلية التقليدية مثـلا ، من هـذا القبيل ما حدث حين جاء الاوربيين فى القرن الخامس عشر الى الشاطىء الافريقى وما دونه البعض من ملاحظات أوما احتفظ بهالتجار الاوربيين من تسجيلات ولاشك أن المادة التى تم جمعها عن هذه الفترة افاد الى حد كبـــير فى تكوين صورة عامة واضحة عن الظروف التى تم فيها الاتصال أو الاستعارة الثقافية بين جماعتين، هذا من ناحية ، ومن ناحيه أخرى الدراسات الحقلية الحديثه التى تمت بين الافارقة الذين استقروا فى امريكا سواء فى جزر البحر الكاريبى أو فى وسط أو جنوب أمريكا الشمالية أو تلك التى تمت فى المناطق الافريقية ذاتها قد ساعدت على الوقوف على عمليات التكيف والتمثيل الثقافى كتلك التى قام بها هرسكوفيتس Herskovits فى غرب أفريقيا فى داهوى Dahomey ونيجيريا Nigeria وغانا Ghana أو فى المجتمعات المحليـة مثـل هايتى Haiti بالقرب من كوبا وترينداد Trinidad (شمال فنزويـلا) والبرازيل Brazil إذ ترتب على هذه الدراسات الحقلية أن توفرت المادة الاثنوجرافية والتى اتاحت لهم اجراء العديد من التحليلات المقارنة كتلك التى قام بهـــا هرسكوفيتس وتلاميذه عن تأثير الديانه النيجيرية على الكوبيين أو تأثر الموسيقى الامريكية بالافريقية أو فكرة الاشبـــاح السائدة فى غرب أفريقيـــا وانتشارها فى ترينداد ... [1] .

وأيا كان الامر فان الدراسات التطورية والحديثة أو الانتشارية قد اهتمت

---

(1) Hammond, op. cite p. 379

بالبحث عن العناصر الاصلية والفرعية فى ثقافة هذه المجتمعات ، ومدى مساهمه هذه العناصر أو السمات فى أحداث التغيير أو التكيف الثقافي .

* * *

ولقد احتلت آراء عدد من التطوريين المعاصرين أهميه كبيره فى الدراسات الانثربولوجيـة ، ومـن اهم هـؤلاء الانثربولوجيين Lesli White و Julian Steward و Gordon Childe ، وعلى الرغم من أن تساؤلات هؤلاء جاءت متشابهة الى حد كبير مع الخطوط الأساسية لأفكار التطوريين فى القرن التاسع عشر إلا أنهم اضافوا اليها فيما يقول Peter Hammond بعض التعديلات والأفكار وثيقة الصلة بميكانيزمات التغير والقوانين العامة التى تحكم التغير الثقافي ، أما هوايت (*) فانه يحدثنا عن مراحل تطور الثقافة كما لو كانت

(*) إذا ما أردنا أن نفهم وجهه نظر White عن الثقافه فلابد من أن نلقى الضوء علي مفهوم الثقافة عنده ، أنه يميز بين نوعين من السلوك : السلوك الرمزى Symboling Behavior وسلوك الاشارة Sign Behavior ، والاشارات أو العلامات هى تلك التى تتمثل فى الاشياء أو الاحداث التى يلازم معناها شكلها الفيزيقى ، أى أن ثمة تطابق بين الشكل والمعنى ، أما الرموز فهى تشير الى الأشياء والاحداث التى تستمد معناها من مستخدميها ، وهذا التمييز على درجة كبيرة من الاهمية حيث يرى أن سلوك الحيوانات قاصر على الاشاره أما الانسان فهو الحيوان الوحيد الذى يستطيع ممارسة كلا النوعين من السلوك الاشاره والرمز ، أن أكثر أشكال السلوك الرمزى شيوعا ووضوحا اللغة الانسانية Human Language ، وأن ثمة طبيعة رمزية للاتصال الانسانى حيث العلاقة بين الكلمه ومعناها ثابته فى الجهاز العصبى من خلال عمليه الاشراط =

مراحل كلية عامة تميزها الخبرة الانسانية المتراكمة ، ويرى أنه طالما كانت الثقافة اداة متكيفة بواسطتها لا يستطيع الانسان أن يكيف نفسه للطبيعه وأن يكيف الطبيعه لذاته إلا عن طريقة الطاقة. وهكذا يغاير White سابقيه في تحديد الميكانيزم الأساسي للتغير الثقافي ومن ثم اقترح الصيغة التاليه لشرح هذه العملية « أن الثقافه تنمو وترقى وفقاً لازدياد كمية الطاقه » أو وفقاً لازدياد الكفاءة التي تستخدم بها هذه الطاقة ، ويضع لنا المعادلة التالية : $P = E \times T$ حيث E ترمز إلى الطاقة و T تشير إلى كفاءه الادوات والالات أو التكنولوجيا

= حيث يكون ردفعلنا للكلمة كما يوحي لنا معناها الملازم لها، فالسائق ذو الخبرة الذى يرى علامة الضوء الحمراء سوف يقف على الفور دون تفكير واعي في اللون ، أنه سيتفاعل مع الضوء كما لو كان علامة أو أشاره أى كما لو كان معناه « قف » وبنفس الطريقه معنى المطر ملازم للسحابة الرعدية ، بالطبع ليس هناك سبب حتمى يجعل معنى الأحمر قف واللون الاخضر « اذهب » إلا اتفاقنا جميعا حول هذا المعنى ، النقطة الهامة فى كل هذا أن معنى الرموز يحددة من يستخدمة من الناس .

فكرة White تتضمن أنه طالما كان سلوك الحيوانات غير رمزى في طبيعته فإن خبرتها الحسية محددة وقد يكون لها بعض القدرة على التعليم ، أما الانسان فان معرفته الرمزية وبالتالي قدرته على التحوير والتعديل تمكنه من بقل الخبرة الحسية فيتحدث عن الأماكن الى لم يرها والاحداث التى لم يشارك فيها، يستبطن الماضي ويحلم بالمستقبل ، يخترع ذاتيات لا توجد فى الواقع كأن يتحدث عن العرافه أو الساحرة ، فالرمزية تمكنه من أن يتمثل خبراته لتصبح جزءا من التقاليد المتراكمه .

المعطاه ، وتشير P إلى الانتاجية ، أن هويت ينظر إلى جميع النظم الأساسية للثقافة (النظام التكنولوجى والنظام الاجتماعى والنظام السياسى والنظام الايديولوجى) من خلال الطاقة ويرى أن النسق التكنولوجى هو الذى يلعب الدور الأساسى فى عملية التغير ولهذا أتهم بأنه رفع شعار الحتمية التكنولوجية Technological Determinism على الرغم من تأكيدة أن كل أجزاء الثقافة مترابطة تتفاعل معا ويتأثر بعضها بالبعض الآخر [١] فالانسان يستخدم الطاقة (*) ليقابل احتياجاته ، وأن تطور الثقافه وتغيرها يتوقف على تطور الوسائل التكنولوجية، فاذا ماعاشت جماعة من الناس فى عزلة جغرافية أو ثقافية نسبية، ومن ثم لايدخلون فى صراع مع تكنولوجيا أخرى اكثر تقدما فسوف يستمرون الى أن يشعروا بالحاجه إلى التغلب على المشاكل والصعوبات التى تواجههم ، ومن ثم قد ينتقلون إلى تكنولوجيا أخرى اكثر تقدما ، هنا قد يخترعون أو يقتبسون ويستعيرون [٢].

جاء جوليان ستيوارد Julian Steward فى نفس الفترة التى ظهر فيها White

---

(I) Kaplan , David & Manners, Robert , Culture Theory , op. Cite PP. 44 — 42 .

(*) ففى المراحل الأولى استخدم الانسان طاقته الجسميه كمصدر للطاقه ثم أخترع مصادر أخرى كالنار واتخذها مصدر للطاقة واستغل المياه والرياح ثم جاء استئناس الحيوان واستخدم طاقته ، ثم بناء معدات تتحرك بالقوه... الخ ومن خلال تراكم الطاقه التى استخدمها الانسان تراكمت وتطورت العناصر الأخرى للثقافه، وبالتالى أدى هذا إلى ظهور نوع من التنظيم الاجتماعى المرتبط بثقافة مغايره .

(2) Hammond, op. Cite. P. 395 .

ليقول أن آراء هوايت على الرغم من تحديدها لميكانيزم التغير فهى لاتلقى الضوء على المسارات الفعلية للتغير أو القوانين العامة التى تحكم هذا التغير ، فعلى سبيل المثال لماذا تغيرت بعض الثقافات ووصلت إلى مرحلة عالية من التصنيع بينما ظلت ثقافات أخرى تحتفظ بحد أدنى من المعرفة التكنولوجية ؟ .
وعلى الرغم من تأييد ستيوارد لما جاء به هوايت فى أن التكنولوجيا والتنظيمات الاقتصاديه المدركة هى أساس تطور الثقافة ونموها إلي أنه أضاف بأن تعدد الأصول التطورية المتوازية حقيقة واقعه، ويمكن أدراكها عن طريق مقارنه التغير الثقافى الحادث فى ثقافات متباينة . ويحاول كل من Manners, Kaplan القاء الضوء على أرائه فيشيران إلي أن هناك عناصر رئيسية ثلاث تشكل فكره الأساسى بالنسبة للتطور أو التغير الثقافى.

أولا : النظم الأساسيه Core Institutions فى مقابل النظم الهامشية أو أو المحيطية Peripheral Institution .

ثانيا : النمط الثقافى Cultural Type .

ثالثا : مستويات التكامل الثقافى والاجتماعى .

Socio - Cultural integration

ويرى ستيوارد أنه يمكننا أن نرى بوضوح هذه النظم فى النسق الثقافى العام ، والنظم الأساسيه هى التى تلعب دوراً حاسما فى التكيف الثقافى أو التكيف بالبيئه أو استغلالها لانها تشتمل على العناصر الايديولوجية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية ، ثم أن هذه الأخيرة (العوامل التكنولوجيه والاقتصادية)هى التي تحكم إلي حد كبير وبطريقة واضحه تحديد وتشكيل

الملامح الاستراتيجية لاى مجتمع [١] . فالتغير يمكن أن يحدث فى أى مكان فى النسق سواء أكان فى النظم الأساسية أو الهامشية ، فاذا ماكان لهـذا التغير رد فعل أوتأثير على النظم الأساسية فان ثمة تغير فى النمط الثقافى فاذا لم يكن هناك ردود فعل وتأثير على النظم الأساسية فان النسق ككل سوف لايخضع للتغيير ويظل النمط الثقافى كما هو [٢] .

أما الانجليزى Gordon Childe فقد برهن من خـلال سلسلة الأعمـال الاركيولوجية على التقدم والتطور الرائع فى التاريخ الانسانى ، ولعل أشهر مؤلفاته الانسان يصنـع نفسه Man - Makes Himself (١٩٤١) وكتابة الآخر ماذا حدث فى التاريخ ؟ What Happen in History (١٩٤٦) قد قدما تفسيرا للتطور الانسانى (تدجين النبات واستئناس الحيوان والزراعةعلى الرى واختـراع المعادن ...) . الذى ترتب عليه ثورة غيرت فى النسيج الكلى للحياة الثقافية سواء فى الابنيه الاجتماعية أو السياسيه أو التنظيمات الاخرى . ولقـد اعتمد هـذا الاركيولوجي على مناقشه التسجيلات الاركيـولوجيه موضحا أن الاطار العام لهذه التغييرات كان تطوريا وتقدميا فى طبيعته .

وأيا كان الأمر فإن انجاز التطوريين القدامي منهم والمعاصرين كان رائعا فلقد تركوا لنا تراثا فكريا يمكن بلورته فى ثلاث فروص مازالت قائمة تشكل جزءا من التفكير الانثربولوجى المعاصر .

---

(1) Thomes, Y. Crowell, the Rise of Anthropological Theory N. Y. I968. pp. 660 - 661 .

(2) Kaplan & Manners: op, cite pp, 47 - 48 .
سوف نعود إلى Tteward مرة أخـرى عند الحديث عن الايكولوجيا الثقافية

الأولى : القول بأن الظواهر الثقافيه تدرس كظواهر طبيعية .

الثاني : الزعم بأن الإختلافات الثقافية بين الجماعات ليست بسبب الاختلافات فى التجهيزات النفسيه والبيولوجية ولكن مردة إلي الخبرة الثقافيه والاجتماعية
Socio - Cultural Experience

الثالث : استخدام المنهج المقارن (*)

* * *

لقد كان التساؤل عن كيفية حدوث التغير واسبابة يمثل نقطه اهتمام الباحثين أيا كانت اتجاهاتهم ، بيد أن هناك فريقا ركز جهوده فضلا عن ذلك إلى الارتباط المنطقى بين سمات الثقافة واجزائها والادوار التى تضطلع بها ، جاء هؤلاء الباحثون ليشكلو توجيها نظريا متمايزا بتركيزهم على جـوانب دون أخرى وما ارتبط بذلك من اختلاف فى المفاهيم واختبار الفروض وجمع للبيانات . وقد يمثل هذا التوجية النظرى فيما يطلق عليه الان النظريه الوظيفيه والتى قدمت لنا تحليلا دقيقا للثقافة التى تمثل شكلا أو وضعاً متمايزا يتكون من أجزاء مرتبطة فريده ، هذه الاجزاء لاتفهم إلا فى علاقتها بعضها ببعض من ناحية ، وفي مضمونها الكلي من ناحية أخرى ، كما صاغت لنا عـددا من المبادىء الهامه سوف نعرض لها بعد قليل .

(*) لقد استخدم تايلور المنهـج المقارن فى معالجة مـوضوع الرواسب الثقافيه فى محـاوله لاعادة بناء الماضي للثقافات ومن أجـل البحث عن تطور الثقافات فى مراحل منتظمه وفى اطراد متناسق .

Stocking George W. « Cultural Darwinism and Philosophical Idealism » in South Western Journal of Anthropolgy, 2I, 1962 p. I41 .

لقد ركز أصحاب هذا الاتجاه على دراسة البناء والوظيفه ومن أقطابه مالينوفسكى Malinowski ورادكليف براون R. C. Brown وكروبر وآخرون . وجميعهم أعطوا أهميه بالغه لبناء النظم والطريقة التي فيها هذه النظم تعمل كأجزاء فى نسق متكامل لتفى باحتياجات المجتمع من أجل تحقيق التوازن الاجتماعى ، ويرى الوظيفيون فيما يقول Hammond أن فكرة التكامل الوظيفى تفترض أن أى جزء في أى نظام فى المجتمع لا يمكن فهمه أو تقديره إلا من خلال النظر الى علاقته الوظيفية ببقية مكونات النظم في المجتمع ذاته ، تماما كما لا يستطيع أن نفهم دور القلب إلا إذا أخذنا فى الاعتبار علاقته البنائيه الوظيفه بالاعضاء الأخرى للكائن الحى والتى تستهدف جميعها بقاء هذا الكائن [١] . أى أن الوظيفيين يرون أن كل انماط السلوك الانسانى تستهدف اشباع حاجات أساسيه لا يمكن ادراك معناها إلى فى ارتباطها بالانماط الوظيفيه الأخرى داخل البناء ، وعلى هذا يمكن القول أن أصحاب هذا الاتجاه انما يسيرون فى طريق مغاير تماما لأولئك الذين استهدفوا منذ القرن التاسع عشر مجرد وصف الثقافات في تفاصيل مستفيضه لكى يعرضوا لسماتها بغيه الكشف عن انتشارها من ثقافه الى أخرى ، جاء هؤلاء ليركزوا على فهم الثقافه من خلال النظر الى سماتها أو عناصرها مدركين أن وظيفة أى سمه أو مجموعه من السمات تتمثل فى اشباع حاجه أساسية ، فالتغذيه والتناسل أو الترفيه عن النفس والحركة ... تستهدف اشباع حاجات أساسيه للانسان فالجوع يدفع الانسان لان يبحث عن الطعام ويتعاون مع الآخرين من أجل انتاجه .

فالوظيفيه كمنهج اذا انما تبحث عن الارتباط المتداخل بين الظواهر الثقافيه أو

(I) Hammond, op. cite p. 383

كما يقول Kaplan في كتابه Culture theory أن الوظيفيه نظريه تستهدف الكشف عن العمليات الثقافيه Culture processes كيف يعمل المجتمع ؟ انها تهتم بتتبع الطرق والمداخل المتعددة والتى فيها عناصر النسق تترابط وتتفاعل لماذا توجد بعض الانماط الثقافيه أو تستمر دون أنماط أخرى؟ عندما تناول مالينوفسكى السحر فى جزر التروبرياند Troberiand أوضح لماذا وجدت مثل هذه الممارسات فى هذه الثقافه ولماذا استمرت ؟ ، انها تعمل على تخفيض القلق وتبديد الخوف من العالم المجهول، وكذلك الحال حين تناول رادكليف براون الشعائر الدينيه فى جزر الاندمان Andaman في استراليا، أوضح كيف أن استمرارها يساهم فى تحقيق التماسك الاجتماعى ، وكذلك Melford Spiro والذى بين كيف أن معتقدات Ifaluk فى الارواح الشريرة تعمل على استبعاد العدوان أو القضاء عليه ، وفى الحقيقه أن Spiro على خلاف مالينوفسكى وراد كليف براون حين أعلن أن اهتماماته لم تكن تهدف الى البحث عن نشأه هذه المعتقدات وانما الى استمرارها وفاعليتها. ويمكن القول أن محاولة Merton التمييز بين الوظيفه الكامنه Latent و الوظيفه الظاهرة Manifest للسمه الثقافيه لا تخرج عن هذا القبيل ، فالكامنه تشير الى الوظيفة التى لا ندركها بسهولة ، كما انها غير متعمده أو غير مقصودة، أما الظاهرة فهى تلك التى على درجة عاليه من الوضوح ، مدركة من قبل الاشخاص أو مقصودة. هذا التمييز على درجه كبيره من الاهميه خاصه ما تعلق بانماط السلوك غير المقصودة ، إذ يعتقد ميرتون Merton أن مفهوم الوظيفه الكامنه سوف يساعدنا فى شرح فكرة الاستمرار التى أشرنا إليها منذ قليل، وقد تلقى الضوء على نشأة السمه الثقافيه أيضا . ففى معالجته لرقصه المطر عند قبائل Hopi كتب يقول « أن الهوبيين يستهدفون من اقامه هذه الشعائر اسقاط المطر وهذه الانماط السلوكيه قد

يصفها البعض بأنها ممارسات خرافيه Supertitious practices لشعب بدائى فاذا ما قمنا بتحليل الدور الفعلى لهذا السلوك فى حياة الجماعه باستخدام مفهوم الوظيفه الكامنة (مع العلم بأن المطر قد يسقط فى أعقاب هذه الممارسات مصادفه) سوف نجد أن هذه الوظيفه بعيده كل البعد عن الغرض الذى يجاهرون به أو يعلنون عنه « سقوط الامطار . فالممارسه انما تستهدف تقويه ذاتيه الجماعه بأن تتيح لها فرصه متكررة Periodic Occasion ليجتمع أفراد القبيلة المتناثرين هنا وهناك للمشاركة فى نشاط جمعى ، فأستمرار الممارسه مرتبط الى حد كبير ليس بسقوط المطر وانما بانجاز الوظيفه الكامنه المتمثلة فى تضامن الجماعة وتقوية ذاتيتها »[١].

ونفس الشىء يمكن أن يقال فيما يتعلق بظاهرة تجنب الحماة السائدة لدى كثير من الجماعات القبليه الافريقيه كالدنكا Dinka مثلا ، فالعرف يحتم على الرجال أن يتجنبوا أو يقللوا من مواجهه حمواتهم Mothers in Law ، الوظيفه الظاهره هنا كما يبدو للملاحظ الخارجي مباشرة ابداء نوع من الاحترام أو السلوك المحافظ بين الطرفين ، الوظيفه الكامنه لهذا السلوك تتمثل فى المساهمه فى تحقيق الاستقرار الاجتماعى والتماسك Cohesiveness بتقليل فرص المقابلة المباشرة بين الزوج وحماته ، أى بين الاشخاص الذين يمكن أن يدخلوا فى نوع من الصراع أو الخلاف . وهكذا نجد أن نمطا سلوكيا واحدا له وظيفتين احداها ايجابيه والأخرى سلبيه[٢].

---

(1) Ibid, p. 59

(2) Ibid, p. 386.

من هذا المنطلق يرى الوظيفيون أن مهمه الباحث الانتربولوجي الآن هي البحث عن وظيفه كل سمه أو عنصر من عناصر الثقافه ، والكشف عن دينامية العلاقه بين السمات ، فالوظيفه ما هي إلا منهج تحليلي يتلائم تماما مع دراسه موضوع التغير الثقافي الذي أشرنا إليه منذ البدايه ، وإذا كان منطق الوظيفيين أن كل أوجه الثقافه متكامله ومترابطة بنائيا ووظيفيا فان التغير الحادث في أحد مكوناتها كالتنظيم العائلي أو القرابه أو التنظيم الاقتصادي انما يؤثر في مكونات النسق الأخرى ويتأثر بها ، ولاشك أن هذا المنهج التحليلي أفاد الي حد كبير في الكشف عن وظيفه النظم وديناميانها بل وجوانبها الايجابية والسلبيه.

فالوظيفيه كنظريه في الانتربولوجيا تشير الى قياس التمثيل العضوى Organic Analogy وهذا يدفعنا الى التفكير في الانساق الاجتماعيه الثقافيه Socio-Cultural Systems على انها نوع من الكائن الحى Organism أجزاؤه ليست مرتبطه بعضها ببعض فحسب ولكن في نفس الوقت تساهم في استمراره وبقائه ، أن كل الانساق الثقافيه لديها مطالب وظيفيه أو شروط ضروريه للوجود أو حاجات (حاجات اجتماعيه عند رادكليف براون، شروط بيولوجيه عند مالينوفسكى) جميعها يجب أن تشبع إذا ما أريد للنسق أن يستمر أو يبقى فاذا فرض ولم تشبع هذه الحاجات فان النسق يعانى من عدم التكامل ويصيبه الخلل أو يعتريه التغيير الواضح ، وبهذا المعنى فان النظم institutions لاتفهم بمجرد تحديد علاقاتها بالنسق الاكبر الذى يحتويها ، وانما بمحاولة البرهنه على على أن هذه العلاقات تساهم فى الحفاظ على النسق الاكبر أو أجزاء منه (1).

(I) Kaplan & Manners, op. cite. p. 56

بإختصار فإن الوظيفين يرون أن الثقافة أكبر من مجرد الأجزاء المكونه لها وأنها تتكامل فى كل بنائى ووظيفى وأن هناك علاقات متبادلة بين المكونات بل أن هناك تشابك فى العلاقات الوظيفية بين هذه الأجزاء أو المكونات ، وأن أى تغيير فى أحدى هذه المكونات بترتيب علية ردود فعل فى المكونات الاخرى، وهم فى تفسيرهم هـــذا لم يهتموا بترتيب المراحل التاريخية كما فعل التطوريين ، بل اهتموا بالظروف الخاصه لكل ثقافة(اختلاف المكان والزمان والقيم السائده) مدركين أن السمات الثقافية (المكونات) تؤدى أغراضا أو تحقق وظـائف محدده وأن هناك أرتباط بين السمات ووظائفها والحـاجات التى تشبعها .

بيد أن هناك بعض الاعتراضات التى أثيرت ضد الوظيفيين لعل أهمهاتلك التى تذهب إلى أنهم ركزوا إلى حد بعيد على الاستقرار والثبات وقللوا من أهمية الصراع ، ويرى Ember فى معرض حديثه عن الوظيفية فىالفصل الذى عقدة عنالنظرية والمنهجفىالانثربولوجياالثقافية ،أن الاعتراضالرئيس ينحصر فى أنهم لايستطيعون تفسير التباين الثقافى مباشـره ، فالحاجات التى يتحدثون عنها لها صفه العمومية وتوجد فى كل الثقافات على أختلافها ، فإذا كانت كل الثقافات تحتاج إلى المشاركة فى جمع الطعام فإن الوظيفيين لايستطيعون تبرير أختلاف الثقافات فى ممارسات جمع الطعام ، بل عجزوا عن تفسير ظهور انماط وممارسات ثقافية محددة لاشباع حاجات معينة كان يمكن أن تشبع بأى بديل أخر ، أى أنها قاصرة عن تفسير الاختلاف فى السمات الثقافية [١] .

٭ ٭ ٭

(I) Ember, op. cite P. II6 .

جاء الايكولوجيون الثقافيون Cultural Ecologists ليمثلوا توجيها نظريا آخر ، ويمكن القول أن هذا الاتجاه النظرى حديث العهد نسبيا ومن اقطابه Jolian Steward الذى أشرنا إليه عند الحـــديث عن التطوريين المعاصرين و Frederick Barth و Max Glukman و Geertz و Roy A. Rappaport و Andrew Voyda وجميعهم من الايكولوجيين الثقافيين ولئن شابت بعـض كتاباتهم متضمنات تطـــورية كما رأينـا عند J. Steward وأصحاب هذا الاتجاه يركزون على العلاقة الدينامية المتبادلة بين الانسان والمكونات الطبيعية للبيئة التى يعيش فيها ، بمعنى أخر يبحثون عن عمليات التكيف التى تؤدى إلى ظهور صيغ ثقافية Cultural Configurations متباينة . وفى الحقيقة أن معظم الذين مهدوا لهذا الاتجاه كانوا من الجغرافيين القدامى أو الانثربولوجيين من ذوى الميول الجغرافية ، أولئك الذين ذهبوا إلي القول بأن تأثير البيئة الجغرافية حتمى وأساسى فى تشكيل تطور الثقافة ويمكن القـول أن الايكولوجيين الثقافيين حين يتناولون العـلاقه الدينامية المتبـادلة بين الانســان وبيئته يأخذون فى الاعتبـار أبعاداً رئيسية ثلاث ، البعد العضوى Organic dimension ويشتمل على كل الاشكال المحيطه بنا من الكائنات البيولوجية البسيطة التى لاترى إلا بالمجهر كتلك التى تحمل الامراض مثلا إلى تلك الكثرة الهائلة من النباتات البريه والمزروعـة إلى الحيوانات المستأنسه والوحشية التى يعتمدعليها الانسان في غذائه أو من أجل الحصول على المواد الخام ، أما البعد الثانى « الغير عضوى » inorganic dimension فهو من السعه والشمول بحيـث يشمـل كل ماليس بنبات أو حيوان كالجماد والتربة والعوامل البيئيه المعقدة الأخرى التى تحدد المناخ ، أما البعد الثالث « الثقافى » Cultural dimension فهو يتكون من ثقافه الانسان الخـاصه

وطرق حياه الآخرين سواء الجماعات المحيطه أو المجاوره أو البعيده التي يتصل بها باستمرار أو على فترات متقطعة بطريقة مباشره أو غير مباشره .

وبالطبع فان الجغرافيين القدامى وبعض الانثربولوجيين ركزوا على البيئة في بعديها العضوى وغير العضوى وبالغوا في تقدير الدور الذى تلعبه في حياة الانسان بل وفي تشكيل مسار الثقافه . إلا أن جميع الانثربولوجيين على أختلاف اتجاهاتهم يدحضون هذه الفكرة ويقدمون أمثلة كثيرة لثقافات متباينة الى حد كبير تنتمي الى ظروف طبيعية متشابهة الى حد بعيد، ويضرب Peter Hommond مثالين لثقافتين في استراليا وكاليفورنيا ، فكلاهما كانتا أرض قاحلة ، المناخ جاف ممطر دافيء إلى معتدل في بعض الاحيان ، سكان المنطقتين فيما مضى قلة في العدد متناثرين هنا وهناك، يعملون بالصيد أو يشتغلون بجمع الطعام مع حد أدنى من المعرفة التكنولوجيه ، وفي هذه الايام نجد أن نفس الأوضاع الطبيعية مازالت سائدة إلا أنهم اكتسبوا تكنولوجيا أكثر تعقيدا تمدهم بالاساس المادى للثقافة والتي تختلف في الشكل والمحتوى عن تلك التي كانت لدى اسلافهم ، من هذين المثالين وأمثلة أخرى كثيرة يتضح لنا أن الثقافه أو تاريخ الثقافة يمثل متغيرا هاما في فهم سلوك أناس معينين يتكيفون مع المساهمات العضوية وغير العضوية لبيئتهم[1] .

حقا أن الظروف الايكولوجيه يمكن أن تقدم تسهيلات لظهور صيغ ثقافيه محددة وقد تكون معوقا يحول دون ظهور صيغ ثقافية أخرى ، فالبيئة الصحراوية في صحراء مصر الغربيه بما تشتمل عليه من ظروف طبيعية متاحة وبتركيبها الخاص تبدو كما لو كانت تتيح الفرصة لظهور حياة البداوة أو

(I) Hammond, Peter, op. cite. pp. 96 - 397

حياة الحل والترحال حيث النباتات البرية وغطاء العشب الذى يفى باحتياجات الماشيه مع سقوط الأمطار ، وحيث توزيعات الخضرة النادرة فى مناطق محدودة يوحى بأنه من الصعب ظهور مجتمع زراعى على النحو الذى نجده فى ريفنا المصرى ، وبالمثل نجد أن الظروف الطبيعية لدى الاسكيمو تبدو كما لو كانت تملى نوعا مميزا من التكيف الايكولوجى الثقافى يتمثل فى ظهور أسلوب للحياة يقوم على صيد الثدييات من البحر .

ان الايكولوجيين يحاولون النظر الي كل ثقافة كما لو كانت نموذجا متكيفا فهناك ظروف طبيعيه مميزة وأوضاع ثقافيه متفاعلة ، كلاهما يستجيب للاخر فى طرق أو مسارات محدده ولاشك أن الأوضاع الطبيعية تملى أو تضع القيود على مسار الثقافة ولكن العلاقه ديناميه متبادلة ، فالعوامل الثقافيه تفرض نوعا من الاستجابه على البيئه والاوضاع الطبيعية . ولعل المثال الذى يقدمه لنا Peter Hammond يوضح لنا حقيقه هذا التكيف المتبادل .. فالعلاقه بين البدو الرعاة والبيئة التي يعيشون فيها ، والغطاء النباتى الذى تعتمد عليه ماشيتهم قد يتعرض لتغييرات جوهرية خاصة إذا ما استنفذت الحيوانات الاعشاب القليلة المتناثرة هنا وهناك ، فقد يحدث نوعا من التعريه Erosirn يرتبط بالتغيير فى التركيب السكانى الأمر الذى يترتب عليه حدوث نوع من الضغط الديموجرافى على المناطق المحيطة ، وقد يؤدى هذا بدوره الى انتهاك أراضي الغير والاغارة، وما يترتب على ذلك من صراع أو تدمير لملكيه الجماعات المجاوره[1] ، بالمثل ما يحدث لدينا فى صحراء مصر الغربيه عندما ينعدم سقوط الأمطار أو يقل معدل سقوطها الي الحد الذى يحول دون نمو العشب وما يرتبط بذلك من

(1) Ibid p. 397

هجرات موسميه الي مناطق البحيرة وأختلال التوزيع السكانى حيث يهاجر الكثير من الرجال باحثين عن الماء والمرعى وبالتالي تصبح المنطقه مشتملة على أغلبية من النساء والاطفال والمسنين ، هذه الهجره تعنى بالنسبة للكثيرين تقبلا لانماط أخرى من العمل مغايره لتلك التى اعتادها البدو في بيئتهم التقليديه ، فضلا عن اكتساب سمات ثقافيه جديدة والدخول فى علاقات نسب ومصاهره مع جماعات عرقيه أخرى.

ولاشك أن الايكولوجيين الثقافيين يعطون أهميـة كبرى للمعـــرفه التكنولوجية والاقتصاد فى تحليلهم للتكيف الثقافى الايكولوجى إذ من خلالها يمكن رؤية الاختلافات بين الثقافات المعاصرة أو التباين الثقافى فى الثقافة الواحدة خلال فتره من الزمن ، وعلى الرغم من أن الايكولوجيين الثقافيين يركزون علي الدور المؤثر للعوامل التكنولوجيه والاقتصادية فى عملية التكيف كما رأينا عند Lesli White والحتميه التكنولوجية و Steward فى عرضه لأهمية التكنولوجيا فى أحداث التكامل الاجتماعى الثقافى(*) وعلى

(*) يرى Julian Steward أن الجماعات التى تعيش فى نفس الظروف البيئيه ولديها تكنولوجيا متشابهه سوف تتطور فى نفس الاتجاه وتتبع نفس الخطوط الثقافيه ، ويعتبر التكنولوجيا عنصرا هاما وجوهريا فى أحداث هذا التطور ولقد اعتمد « استيوارد » على الابحاث الميدانيه وساهم بطريقه إيجابيه مستخدما الماده الاركيولوجيه والاثنولوجيه محاولا اثبات الفكره القائلة أن عمليات التكيف الثقافى الايكولوجى التى حدثت أو تكررت انما ترتبت على تطور الانماط المتشابهه فى ازمنه وأماكن مختلفه، ومن محاولته تلك يرى ضروره أن نأخذ فى الاعتبار على مستوى التحليل الايكولوجو الثقافى عمليات رئيسيه ثلاث :

=

الرغم من أن الايكولوجيين الثقافيين فى عمومهم ركزوا على أهمية العوامل التكنولوجية والاقتصاديه فى عملية التكيف إلا أنهم يدركون فى غالبيتهم أن هذه العوامل ليست هى العوامل الوحيده التى تعمل على أحداث هذا التكيف فهناك العوامل الايديولوجية والسيكولوجية والاجتماعية والسياسية ، وحتى Lesli White نفسه الذى حدثنا عن الحتمية التكنولوجية فى معرض حديثة عن التطور الثقافى أوضح ضرورة أن نأخذ فى الاعتبار الاجزاء المتباينة للثقافة والدور المحدد الذى تلعبه هذه الاجزاء خاصة العوامل الايديولوجية والاجتماعيه والسياسية ، يذهب Eric Wolf إلى أن الخصائص الايديولوجية والسيكولوجية والاجتماعية للمجتمع القروى المحلى (انتشار الفقر ، الجهل ، الحسد ، المعتقدات الدينية الشائعة ... الخ) تعمل جميعها من أجل الحفاظ على التكيف التقليدى ومقاومة ما يهدد البناء الاجتماعى من الخارج ، أما Charhes O'frake حين تحدث عن الايكولوجيا الثقافيه يرى أن مفاهيم الاهالي وتفسيراتهم فى المجتمع المحلى تلعب دوراً كبير فى التكيف الايكولوجى الثقافى ، ولا يذهب بعيدا عن هذا كل من Vayda و Leeds و Smith

---

(١) العلاقات المتبادلة للتكنولوجيا المنتجة أو المستخدمة من ناحية والبيئة من ناحية أخرى .

(٢) فحص الأنماط السلوكية التى يشتمل عليها استخدام الوسائل التكنولوجيه المحددة فى مناطق معينة .

(٣) تحديد المدى الذى فية هذه الانماط السلوكيه تستخدم لاستغلال البيئة وكيفية تأثيرها فى الأوجه الأخرى للثقافه .

(Hammond, op, Cite P, 402)

و Rappaport ، وجميعهم ناقشوا أهمية الشعائر والمناشط الدينية فى عمليات التوافق الايكولوجى الثقافى [١] .

وخلاصه القول أن الايكولوجيا الثقافيه بمثابه توجيه نظرى يرى الانسان كنتاج للتطور البيولوجى يتفاهم مع البيئة في طرق تختلف إلى حد بعيد عن تلك التى تستخدمها الأنواع الحيوانية الاخرى ، فالحيوانات تتكيف جزئيا من خلال عمليه التعلم المحدودة، وتكيفها أنما يعتمد خلال المدى الزمنى الطويل وإلى حد بعيد على التغييرات الحادثه فى البناء الوراثي Gnetic makeup وفى ميكانيزمات الإنتخاب الطبيعى Natural Selection . ومن هنا يمكن أن يقال أن التكيف الحيوانى يمثل استجابة سلبيه ، وهذا على النقيض من الانسان الذى لايخضع تكييفه للبيئه للتغير الوراثى ، ومن ثم فإن أهم مايميز استجاباته أنها ايجابية ؛ بمعنى أخر الاشكال الحيوانية تتكيف لبيئتها كما هى، أما الانسان فهو يحور ويغير ويعدل البيئة لذاته ، فالثقافة بمثابه الميكانيزم الأولى Primary Mechanism الذى يحاول الانسان من خلاله السيطرة على بيئته ، ومن ثم تصبح هذه البيئه بمثابة بيئة ثقافية [٢] . من هذا المنطلق يمكن القول أن الايكولوجيين الثقافيين أهتموا بالطريقة التى يحاول الانسان من خلال أدواته الثقافيه أن يعالج براعة البيئة التى يعيش فيها ومن ثم استنتجوا الحقيقيه القائلة بأن الاشكال المختلفه التى يستخدمها الانسان لمواجهة البيئة التى نعيش فيها يترتب عليها أنواع مختلفه من الصيغ أو الأشكال الثقافية .

* * *

---

(1) White. Lesli, The Evolution of Culture; Mew York. McGrow· Hill book Company. 1969, p. I4 .

(2) Kaplan & Manners, op. cite. P. 41 .

بيد أن هناك توجيه نظرى أخر مالبث أن ظهر يستهدف الاهتمام بالصلة بين الثقافة Culture والشخصية Personality، وعلى الرغم من أن هذا الاهتمام قد يبدو حديث العهد يمتد للعشرينات من هذا القرن إلا أنه يمكن القول أن ثمة تساؤل قديم فى الانثربولوجيا استهدف البحث عن طبيعة الوحدة النفسية Psychic Unity والعمليات العقلية ومدى تطابقها لدى الجنس البشرى، فتايلور Tylor على سبيل المثال فى كتابه الرائع عن الثقافة البدائية Primitive Culture وفى جزئية فى معرض حديثه عن المذهب الحيوى Animism يعرض لمثل هذه الموضوعات حين تحدث عن أصول هذا المذهب، ثم جاء الانثربولوجيون من بعده وحتى العشرينات ليبحثوا عن الأبنية السيكلوحية Psychological Structures (١).

ولكن هـــذا التوجيه النظرى مالبث أن وضحت معالمه فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن وكنتيجة لتأثير المدرسه الفرويديه Freudian School واتباعها الذين تناولوا موضوعات وثيقة الصلة بالطفولة ومراحلها وخبراتها وتأثيرهـا على نمو الشخصية السوية أو المعتله، باختصار على عمليات النضج النفسى الجنسى Psycho Sexual maturation فضلاً عن تناول موضوعات أخرى كتلك التى اهتمت بالزنا بالمحارم وعقدة أوديب(ه).

(1) Kaplan & Manners, op cite P. 133 .

(ه) عقده أوديب Oedipus Complex عقدة نفسية تتسم بحب الابن لأمه والبنت لأبيها حبا مفرطاً مصحوبا بمشاعر التحيز والتحامل ضد الأب فى حاله الابن وضد الأم فى حالة البنت ... وأوديب هذا أحد ملوك طيبة الذى قتل أباه وتزوج أمه.

وما ارتبـــط بها من الصراعات الأوديبية Oedipus Complex كالكبت والنكوص والعدوان والقلق والشعور بالذنب، وكذلك العلاقة بين الاحباط والعدوان والاسقاط وتحليل العلاقات الوثيقة بين هـذه الظواهر والعلاقات القرابية من خلال تناولهم لأساليب تنشئة الطفل .

ومن ناحيه ثانية يمكن القول أن ظهور هذا التوجيه النظرى ترتب على مساهمات الكتاب الانثربولوجيين الأوائل فى أمريكا بصفة خاصة ، أولئك الذين استهدفوا البحث عن الطبيعة الانسانية من خلال اهتماماتهم بسير الحياة الذانيه autobiographies (قصة حياة الفرد يرويها بنفسة ويفسرها فى ضوء أرائه الشخصية) وكذلك سير حياة الأفراد biographies (قصة حياة الفرد يرويها شخص أخر ويفسرها فى ضوء أراء وأفكار عامة)من هذا القبيل مثلا كتاب حياة الهندى الأمريـكى American - Indian Life والذى ظهر لأول مرة عام ١٩٢٧ ويتناول سبعة وعشرين قصة عن الهنود الامريكين فى المكسيك والولايات المتحدة وكندا ، ولايعنى هذا أن الاتجاه السيكولوجى سمة مميزة لهذه السير أو أنها محاولة لالقاء الضوء على البواعث النفسية ، أنها كما يقول James Clifton تتسم بالسطحية وتبدو غامضه وغير مقنعه تفتقد إلى الادراك السيكولوجى ، بل يصعب التمييز فيها بين المادة السيكولوجيه Psychological data والمادة الثقافية Cultural Data مؤلفوها كانوا من رواد الانثربولوجيا الاوائل استهدفوا نشر المادة الانثربولوجيه من خلال عرضهم لخبرات الحياة الشخصيه ، ولكنهم لم يستهدفوا اضافة علم النفس للانثربولوجيا[1] . ولكن

(1) IBid P, 236 .

ترتب على ذيوعها وانتشارها تفسيرات سيكولوجيه معقده ، ووجهت الانظار إلى أن هناك ارتباطات بين الثقافة والشخصية ، وأن ثمة ملامح أو خصائص مميزه للشخصية تسود في مجتمع معين أو قطاع منه ،من هنا فإن اضافة المنظور السيكولوجى أو بمعنى أدق استخلاص المادة السيكلوجيه كانت من خلال النظر إلى سير الحياه هذه ، والبحث عن المعتقدات الموجهه والقيم بل والأطر الثقافيه العامة التى أخرجت هذه الانماط المتمايزة ؛ وأيا كان الأمر فان الماده الانثرنولوجيه لهذة السير القديمة والتى قدمها الباحثون المعاصرون (Lurie عن الهنود winnebago (١٩٧١) و Smith عن هنود Ogibwa ١٩٧٣ وMead عن أحد زعماء غينيا الجديدة ١٩٥٦ . الخ) أوضحت كيف أن الثقافة تؤثر فى الفرد وكيف أن ذاتيه الفرد والثقافة يتفاعلان معا .

إذ تبلور هذا التوجيه النظرى نتيجة لظهور علم النفس الفرويدى من ناحيه ومعالجه السير الذاتية من الناحيه الآخرى فى مجال الثقافة والشخصية ، وحتى أولئك الانثربولوجيين الذين لم يهتموا بهذا الموضوع مباشرة شجعوا تلاميذهم للتخصص فيه ، وأصبحنا نجد أن هناك تداخل واضح بين عدد من العلوم والمعارف كل يحاول من ناحيه وكما يقول P. Whitten وأخرون أن مجال الثقافة والشخصيه كان محورا لاهتمام العديد من العلوم كالانثربولوجيا والطب النفسى وعلم النفس الاكاديمى وعلم الاجتماع بل والتاريخ والسياسه [1] . وبالتالى كثر الجدل والمناقشة بين الانثربولوجيين من ناحية والاطباء النفسيين Psychatrists وعلماء النفس Psychologists من ناحية أخرى الامر الذى

---

(1) Whitt, P. & Haunter E. David , P - 236

حدا بادوارد سابير E, Sapir وهو أحد الانثربولوجيين المتخصصين فى الاثنوجرافيا واللغويات إلى أن يهجر اهتماماته المبكرة ويركز على الدراسات السيكلوجيه المقارنة .

فى هذا المناخ وفي هذا الوقت ظهرت كتب مالينوفسكى (١٩٢٣) Bronislaw Malinowski والذى هاجم سيجموند فرويد Sigmund Freud وشككك في افــــكاره عن عمومية عقدة أوديب ، وكتابات مرجريت ميد Margaret Mead عن التنشئه الاجتماعيه Socialization ودور الجنس فى سموا Samoa (١٩٢٨) ، و Ruth Benedict عن الانساق الثقافيه وأصطبغت كتاباتها أيضا بالصبغة السيكلوجيه ، وكذلك Dubois ودراساتها عن سكان جزر الهند الشرقية من الألوريين Alore (١٩٤٤) ، وكذلك الدراسات التى تمت فى فترة الحرب العالمية الثانية (*) .

---

(1) Clifton, James, Culture, Identity and Individual, in the Study of Cnlture Anthropology By Hunter & Whitten; Harper & Row Publishers, 1976, P 2 6 ,

(*) لقد كانت هناك حاجة ماسه لمعرفة أدق عن شخصية أولئك الذين اشتركوا فى الصراع ، وقد تولى القيام بهذه الابحاث هيئات متخصصة سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها ، الأمر الذى دعم الإتجــاه الانثربولوجى لدراسة موضوع الثقافة والشخصية وأثمر عن القيام بالعديد من البحوث عن الشخصية الاساسية لليابانيين والالمان والــبريطانيين والروس والبولنديين والبلغاريين والرومانيين فضلا عن يهود أوربا الشرقيه ... الخ ،

والتى استهدفت جميعها اقامة علاقة علية بين الاختلافات المحددة ثقافيا فى عملية التنشئة الاجتماعيه ونمط الشخصيه مثل دراسة جورر Gorer (١٩٤٣) و La Berre (١٩٤٥) وكلاهما حاول على حدة أن يعالج الشخصية اليابانيه وميزا بين المظهر السطحى أو الخارجى للشخصية اليابانيه المتمثل فى الجمال الظاهرى والرقه ودماثة الخلق كسمات للشخصية فى بعض المواقف ، فضلا عن اهتمامها بالدقة والنظام ، ثم التعصب والغطرسة والوحشيه التى تميز سلوكهم فى ظروف أخرى كالحرب ... وهذا مردة في رأى Gorer و La Berre الى القسوة فى عملية التدريب على الاخراج[1] ، بعد ذلك بوقت قصير تأتى دراسة Gorer و Rickman عن الشخصية الروسيه وقد ذهبا الى أن عادة التقميط Custom of Swaddling هى المسئولة عن الحالة النفسية المشوبة بالاكتئاب ، إذ أن عملية التقميط العنيفة حيث اعتادوا على وضع الطفل في شرائط مستطيلة من القماش بدقه واحكام تلتف حول ساقيه وذراعيه مما يفيد حركته ويسبب له الالم ، ولما كانت الاستجابة محبطة فان الغضب الحاد لا يمكن التعبير عنه فيزيقيا على على نحو ملائم[2] من هذه الامثله وغيرها يمكن القول أن التأثير الفرويدى واضح الى حد بعيد حيث التركيز على أهمية خبرة الطفولة كمحدد ومؤثر فعال فى شخصية البالغ وما يعتريه من أمراض نفسية أو حالات مرضية .

لاشك أن هناك ضعف واضح سواء فى المنهج الذى أتبعوة فى جمع الماده أو فى تفسيراتهم واستقرائهم للحقائق الامر الذى جعل هذه الآراء غير مقبولة للعديد من الانثربولوجيين ، وكذلك استنكار الآخرين من غير الانثربولوجيين

---

(1) Hammond , op. cite. p 46

(2) Ibid, P. 47.

لكن لا جدال فى أنهم قد أضافوا الكثير حول مفاهيم وموضوعات لها صبغة سيكولوجيه وفى محاولتهم البحث عن تأثير الثقافة (القيم والعادات والتقاليد والسنن الاجتماعية والفلكلور) على الشخصية أيا كان نمطهـا كالشخصية الاساسية Basic Personality أو الشخصية النمطية Modal Personality أو الشخصية القومية National character . أن معالجة الأنثربولوجيين لمثل هذه الانماط من الشخصية فى قالبها الثقافى يختلف الى حد بعيد عن مدخل السيكولوجيين فى المعالجه ومرد ذلك الى اختلاف نقاط الاهتمام بين كل منهما، فالباحث النفسي يهتم بالفرد فى علاقته بافراد محددين آخرين، أى يهتم على حد تعبير علماء الانثربولوجيا بالانساق الفردية ، فى حين يهتم الباحث الانثربولوجى بخصائص الجماعة دون اهتمام كبير بالرغبات أو البواعث أو الدوافع الفردية أى يهتم بالانساق الاجتماعية أن الانثربولوجى حين ينظر الى الثقافة ككل انما يفتقد الرؤية الفردية ، والى عهد قريب كان الباحث الانثربولوجى حين يستخـدم دراسة الحالة Case Study كأداة لجمع المادة عن أحد الافراد انما يستهدف القاء الضوء على الاوضاع الثقافية التى يعيشها وشبكة العلاقات الاجتماعية مدركا أن الفرد هو بمثابة نتاج لعملية التوافق مع الجماعة الثقافية التى يعيش فى نطاقها، وربما كان هذا هو الذى دفع كل من Murray & Clyde Kluckhohn الى القول بانـا إذا نظرنا الى الانسان كفرد نجد أنه (١) يشبه الاخرين تماما (٢) يشبه بعض الاخرين (٣) لا يشبه أحد على الاطلاق . وتفسير هذا لك أن بعض خصائص الشخصية يحددها البناء البيولوجى من ناحيه والبيئه التى يعيش فيها من ناحية أخرى ، ثم الاوضاع الثقافية التى تفرض عليها وكيفية التوافق معها ، وفى هذا الصدد يذهب Whitten الى القول بأن الطبيعه البيولوجية البشريه والخبرة الثقافية المشتركة لا يترتب عليها تماثل تام بين أفراد المجتمع ، ومن هنا جاءت

أمكانية التغير الثقافى لأن الافراد المشتركين فى الثقافة يشبه كل منهما الإخر من ناحية و يختلف كل منهما عن الآخر من ناحية أخرى . أن الأفراد الذين ينتمون الى مجتمع ما يشتركون فى وجود دوافع Motives وحاجات Needs وادراكات perceptions وافكار Ideas .. الخ وتلك يصعب القول أن ثمة مساواة مطلقة بين الافراد فكل لديه مجموعة من الدوافع الكامنة اللاشعورية والمشاعر والتى لا تستطيع الثقافة بمكوناتها أن تمسها وتؤثر فيها إلا تأثيرا محدودا و بصعوبه بالغة[1] . ولا يعنى هذا التقليل من أهمية الثقافة . ومكوناتها فى تكوين الذاتية الفرديه أو الشخصية الأساسية basic personality ، لقد حاول كل من Ibram Kardiner وهو أحد علماء التحليل النفسي و Ralph Linton وهو انثربولوجى معروف وآخرون الي القاء الضوء على ذلك فى سلسلة من المحاضرات ألقيت فى جامعة كولومبيا فى أواخر الثلاثينات (١٩٣٩) ففى رأيهم أن كل نظم المجتمع سواء أكانت أولية (كالأسرة باشكالها المختلفة وممارستها فى تربية الطفل) أو ثانوية (كالفن والدين والأساطير والفلكلور وطريقة التفكير . .) تلعب دورا أساسيا فى تكوين سمات الشخصية الأساسية ، ويرى هؤلاء أن شكل Form ومحتوى Content النظم الثانوية كما يسميها « كاردنر » تلعب دورا هاما في تحديد الشخصية خاصة بعد الدور الذى تلعبه ممارسات التنشئة الاجتماعية فى سن مبكره[2] .

ولقد آثارت هذه الاراء بعد أن نشرها « كاردنر » فى كتابه فى عام ١٩٣٩ بعنوان The Individual and his Society الكثير من المناقشات خاصة فيما يتعلق

---

(1) Ibid, p' 240

(2) Kaplan op, cite. p, 134

بانماط الشخصيه Personality Types ، وكان اكثر الباحثين رغبة في إعادة النظر الي مفهوم الشخصية الاساسية Cora Dubois حيث أضاف بعدا احصائيا في تحديده لنمط الشخصية واشار الي ما أسماه بالشخصية النمطيه Modal Personality موضحا إنها ذلك النوع يشير الى نمط الشخصية الاكثر شيوعا في المجتمع .

ولقد ظل موضوع التنشئة الاجتماعية Socialization يمثل بؤرة الاهتمام لدى الباحثين المحدثين إلا أنهم عدلوا من طريقتهم للتغلب على ضعف الانطباعات أو التعميمات للدراسات المبكرة في مجال الثقافه والشخصيــــه ، فلقد قام Whitting وزملاؤه بدراسة للتنشئه الاجتماعيه في ضوء فروض فرويديه وغير فرويديه وفى ارتباطها بنظريه التعلم عند Hull واختبارها احصائيا مستخدمين المادة الاثنوجرافية التي جمعها Whitting و Child في ٥ ، مجتمعا محاولين الكشف عن العلاقات والارتباطات بين ممارسات وأساليب تربيه الطفل واتجاهات البالغين وكذلك الممارسات المرتبطه بالمرض وقد أخذوا في اعتبارهم مفاهيم التحليل النفسي psycho analytic C ncepts في تكوين العـادات وعمليات الاسقاط كنقطه للانطلاق ، لقد حاولوا أن يحددوا كيف أن القسوه Se e ity أو اللين Leniency في جوانب معينه من جوانب تربيه الطفل ـ خاصه في الطرق والاساليب التي تدرب فيها الفرد على أن يحقق أحتياجاته فيما يتعلق بالإشباع الفمي أو الشرجي أو الجنسي ـ ترتبط بأفكاره عن المرض عندما يكبر ، لقد استخدموا آراء وفروض مستقلة ليقيمو الكثير من مادتهم المقارنه وحتى لا يؤثر تحيزهم الخاص على النتائج التى يصلون اليهـا لقد أمكنهم الاجابه على بعض التساؤلات والفروض واستنتجوا علي سبيل المثال أن الاطفال الذين أحبطوا ومروا بتنشئه قاسية Sever Socialization

أو مزمنة تمثلت فى الأسلوب الجاف القاسي فى المعاملة وفترات الرضاعة القاسية والفطام المبكر يــــؤدى إلي نوع من التثبيت السلبي أو الاستجابة بطريقة سلبية Negative Fixation للاشباع الفمى Oral gratification والذى يميل لأنه يرتبط فى سن البلوغ بتوقع أو ترقب المرض. expectatious of illnes.

من هذا القبيل أيضا محاولة Whitting و Albert Anthony & Kluckhohn فى اختبارهم لسلسلة من الفروض المرتبطة بالعلاقة بين ترتيبات النوم فى مرحلة الطفولة وعلاقه التحريم الجنسى فى اعقاب الولاده Postpartum Sexual Taboos فى علاقته بشعائر التكريس للذكور male initiation Ceremonies وقد صاغوا فروضوهم على النحو التالى:ـ

أن المجتمعات التي تشارك فيها الام وليدها الفراش لمـده عام على الأقل حيث يستبعد الزوج أو تلك التي لديها قيود جنسيه تفرض على السلوك الجنسى الام لنفس الفترة تقريبا ، من المحتمل أن يمارسوا شعائر الانتقال من مرحلة الصبا boyhood إلي مرحلة الرجولة manhood أكثر من تلك المجتمعات التي لا توجد فيها تلك الممارسات أو قد توجد لفترة وجيزة [1] .

ذهبنا منذ قليل أن ثمة اختلاف واضح فى البداية بين مدخل كل من الانثربولوجيين والسيكلوجيين فى تناولهم للشخصية الفردية أو الجمعية أو ما اسميناه بالانساق الفردية والجمعية ، بيد أن هناك تغير واضح شهدته الحقبتان الاخيرتان أي منذ الستينات يتمثل فى الاهتمام بالافراد والذاتية الفردية ، ومرد

---

(1) Hammond, P. 409 .

ذلك فى الواقع إلي تلك الكثرة الهائلة من الدراسات والابحاث سواء فى مجال علم النفس أو الطب النفسى ، يقول Eric Erikson و Whitten أن الاهتمام بتناول مثل هذه الموضوعات مرده إلي أن الحياه المعقدة التى نعيشها قد تكشف عن حالات مرضية ، ومن ثم فإن التركيز على الاهتمامات النظريه فى مجال الطب النفس انتقل من الاهتمام بثبات الشخصية إلى ديناميتها ، ومن ثم إلى البحث عن الميكانيزمات المتكيفة أو التوافقية Adaptive Mechanism للافراد أن هناك تحولا نظريا فى اطار الانثربولوجيا السيكلوجية من الوصف الاستاتيكى للسمات الثقافية والاجتماعية إلي الاهتمام بدينامية هذه السمات خاصة ما اتصل منها بالتكيف الثقافى ، فالاحداث التى توالت فى فترة الحرب العالمية الثانية ومابعدها فى عالم المستعمرات دفعت الانثربولوجين إلى اعطاء المزيد من الاهتمام لقضايا التكيف والتغير الثقافي ، وكذلك البحث عن العمليات الابداعية _ Indovative Processes والهجره migration والصراع Conflict والتحزب والانشقاق Factionalism والحركات الإحيائيه للثقافة Cultural Revitalizatian movements ، وطالما كان اهتمام الانثربولوجيين يركز على دينامية الانسان الثقافية فليس من الصعب توجية الانظار إلى عمليات الذاتية الفردية التى تلعب دوراً هاماً فيما سبق الاشارة إليه ، وعلى حد تعبير ريتشارد روبين Ritchard Robbin إن مفهوم الذاتية قدم مدخلا جديدا لاتجاه يعالج العديد من المشكلات القديمه والتى قد تجد فيها الانثربولوجيا والعلوم الاخرى مجالا خصباً .

لم يكن هذا التحول في دراسة الثقـافة والشخصيـة في المنظـور الجمعي الى المنظور الفردى أو المزاوجة بينهما هو كل ما شاهدته الابحاث والدراسات الحديثة فى هذا المجال فالانثربولوجيين الادراكيين(٭) يفترضون أن كل مجتمع أو ثقافة ، لديها مجموعة من الرموز الادراكيه Cognative Codes تشمل كل المجالات الثقافية ، ومن ثم يتساءلون عن طبيعة هذه الرموز ، أن القاء الضوء عليها سوف يساعدنا الى حد كبير على فهم كيف ولماذا يتصرف الناس على هذا النحو أو ذاك في أوضاع اجتماعية متباينة ؟ وكيـــف ينبغى أن يتصرفوا ؟ وما هو المناسب أو غير المناسب بالنسبة لهم ؟ ، وفي محاولتهم تلك فيما يقول

(٭) أولئك الذين استهدفوا القاء الضوء على الجهاز الادراكى الذى من خلاله يدرك الافراد وينظمون أو يفسرون عالمهم الطبيعى والاجتماعى ، ان دراسة النماذج الادراكية يمكن أن تسفر عن ماده اثنوجرافيه تعبر عن واقع الحياة العقليه لدى الناس .

Kaplan & Manners, p. 143.

أما Stephen Tyler فيرى أن هذا التوجيه النظرى الجديد يبحث عن الكيفيه التى فيها أناس مختلفون يستخدمون أو يدركون أو يفسرون ثقافتهم... انها تستهدف فهم المبادىء العامة المنظمه للسلوك الانسانى فكل الناس لديهم نسق فريد Unique System من أجل ادراك وتنظيم الظواهر كالاشيـــاء والاحداث وأنماط السلوك والعواطف والانفعالات ومن ثم فانها تستهدف القاء الضوء على الطريقه التى تنتظم فيها هذه الظواهر فى عقول الناس.

Tyler, Stephen, An Introduction to eognative Anthropology, B. A. Tyler, Holt. Rinehart Winston N. Y. 1969. p. 3.

Kaplan عرضوا للبناء البيولوجى للانسان وتحدثوا عن ثباته ومن ثم تناولوا عددا من القضايا تدور فى معظمها حول الطبيعة السيكو بيولوجية - Psycho biological nature للانسان والتى تظهر من خلال التنوع الثقافى ، مفترضين أن الأنماط الثقافيه العامه كتلك التى حدثنا عنها Clark wissler مثلا انما تعكس هذه الطبيعه السيكو بيولوجية المتسقه بين الناس جميعا[١] .

بيد أن بعض هؤلاء الأنثر بولوجيين فى محاولتهم شرح تلك الأختلافات الثقافيه والتنوع الثقافى سوا داخل النمط الثقافي أو خارجه رفضوا اللجوء الى فكرة وحدة الطبيعة السيكو بيولوجية لكى نفهم التنوع أو الاختلاف الثقافى فطالما كانت هذه الطبيعه ثابتة فانه من المستحيل أن نفسر المتغير بالثابت ، ولاشك أن الذى دفعهم الى مثل هذه التفسيرات تلك الابحاث التي انجزت عن السلوك الحيوانى والتى تراكمت فى الفتره الاخيرة ، إذ وجهت الانظار الي البناء التشريحى الانسان وفسيولوجيته ، إلا أن بعض الباحثين ما لبثوا أن أثاروا أحدى المشكلات المنهجية الهامة كتلك التى تشير إلى شرعيه الاستدلال أو الاستنتاج على الطبيعه الانسانيه من السلوك الحيوانى ، بمعنى آخر كيف ننتقل من استقراء السلوك الحيوانى الي السلوك الانسانى ، فاذا أفترضنا أن لدينا سمه سلوكية لدى الثدييات هل يمكن القول انها تشبه تلك السمه التى لدى الانسان وهل يمكن القول أننا نتحدث عن نفس الظاهره ؟ وهل يمكن الزعم بأن العوامل العلية التى تعمل في كل حالة متشابهه تماما ؟(*) ليس لدينا إجابة

(1) Kaplan, op cite p 149

* بعض الحيوانات كالظباء أو نحوها تدخل في قتال عنيف من أجل الصيد أو من أجل انثى الحيوان ، وهذا سلوك عدوانى تماما كذلك نجده عند قبيلة =

قاطعه على مثل هذه التساؤلات وحتى يمكن الاجابه عليها فان مثل هذه القضايا يجب أن تظل ماثلة لانها تحتاج الى المزيد من المناقشة[1] .

* * *

ولاشك أن معرفة الباحث الانثربولوجى بهذه الاتجاهات النظرية يمكن أن يفيد الى حد كبير فى تناوله لموضوع معين ، فالميل النظرى هو الذى يملى نوع الاجابه فى مسألة معينه لانه يوجهه الى مجموعه معينه من العوامل وأهميتها بالنسبة للسمة أو الظاهرة الثقافية التى يتناولها ، فقد يوحى إليه كما سبق أن أشرنا منذ البدايه بمتطلبات أكثر واقعيه أو قد يزوده باجابات أكثر وضوحا فيما يتعلق بالسلوك الانسانى ؛ فاذا تناولنا شعائر التكريس مثلا التى تسود الكثير من المجتمعات القبليه لوجدنا تفسيرات متعدده وفقا لنوع التوجيه النظرى الذى يتبعه الباحث الانثربولوجى ، فأصحاب الاتجاه الوظيفى يرون أن هذه الشعائر انما يمكن النظر إليها من حيث أهميتها فى الحفاظ أو الابقاء على التضامن بين مجموعة الرجال الذين ينتمون الى هذه الثقافة أو هذا التنظيم

---

(1) Ibid, p. 1:3

= Ifugao فى الفليبين أن أحدهم يقتل آخر ممن ينتمى الى قبيلة أخرى كمظهر لابداء رجولته وهذا سلوك عدوانى أيضا ، كيف يمكن تحديد هذا السلوك بيولوجيا ؟ وهل يمكن القول أن بواعث ومحددات السلوك متشابهة تماما فى الحالتين .

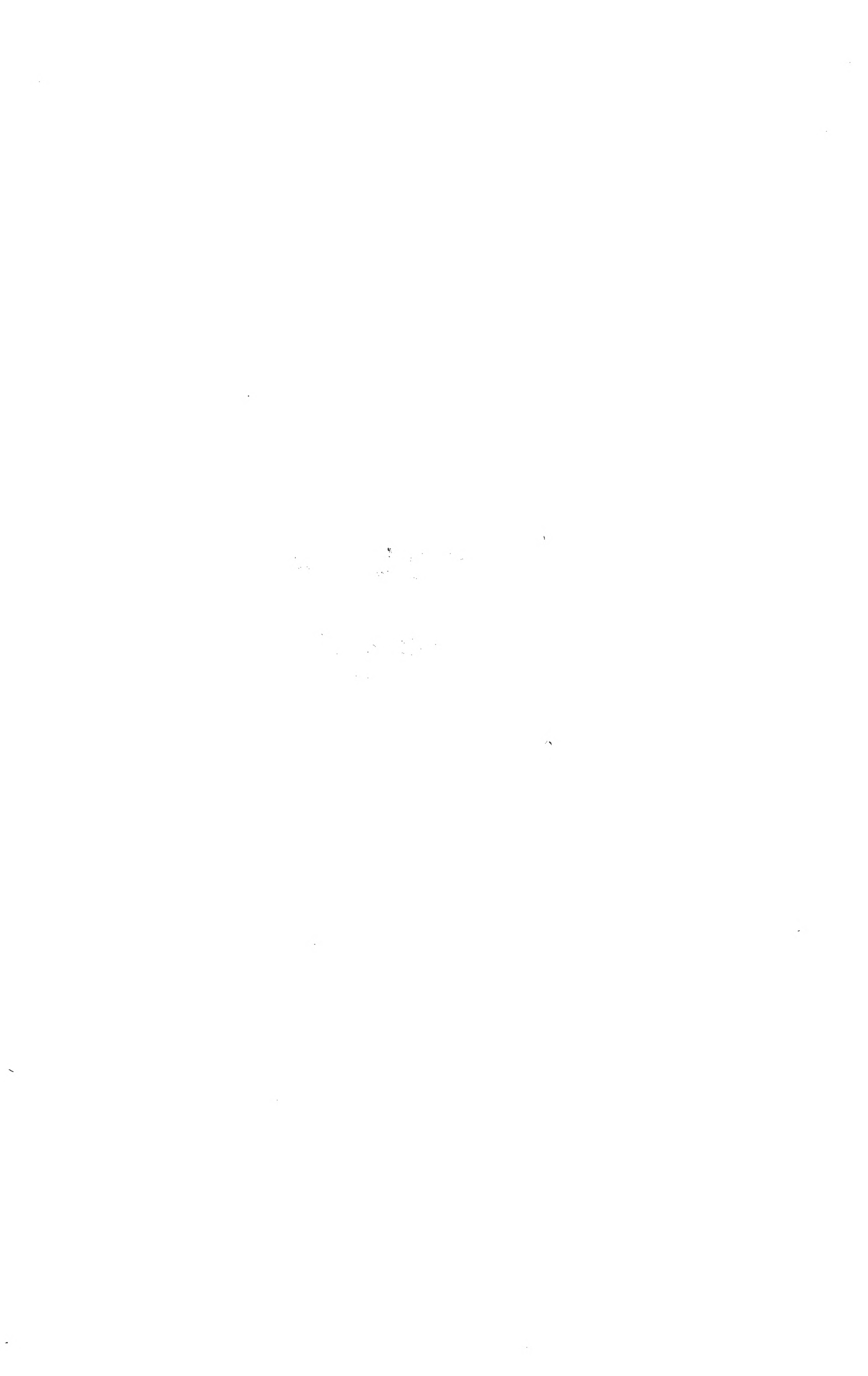
الاجتماعي ، في حين أن أصحاب الاتجاه السيكولوجي يرون أن شعائر التكريس ماهي إلا نوع من الميكانيزم التوافقي الذي يستهدف وقف الصراع بين الشعور الانثوي والشعور الذكري وتنمية هويه الرجولة عند صغار السن من الشبان أولئك الذين يمرون بهذه الشعائر(١) . وهكذا فان ثمه تفسيرات متباينه تختلف باختلاف المداخل النظريه التي يعتنقها هذا الباحث أو ذاك .

---

(1) Ember & Ember op, cite p. 128

الفصل الرابع

التنوع الثقافى



التنوع الثقافى

لقد استطاع الانسان اينما وجد أن ينمى ذاته ويطور قدراته ، وأن يمتلك ثقافه لتصبح بمثابة الميكانيزم الذى يمكنه من أن يتغلب على القيود البيئية ويعطيه القدرة لتحقيق المزيد من التكيف مع الظروف المتغيرة والقاسيه أحيانا ولاشك أن طرق الانسان وأساليبه الثقافيه تختلف من مكان لآخر ، نظرنا إلى خريطة العالم لوجدنا أن طرق وأساليب الاسكيمو الذين يعيشون فى الاسـكا Alaska فى أقصى الشمال من المنطقة القطبية تختلف عن طرق وأساليب هنود yanomamo على حدود فنزويلا والبرازيل ، وتلك مغايرة لثقافه kikuyu شمالي نيروبى فى كينيا، أو ثقافة اقـزام BaMbuti الذين يعيشون فى غابات Eturi المطرة فى الكونغو(٥) . وهذه جميعا تختلف عن ثقافه

---

(٥) اقزام غابات أتورى : يبلغ طول هؤلاء الاقزام نحو ١٣٠ سم فى المتوسط ، بشرتهم صفراء اللون، شعرهم أسود اللون كثيف ، وجههم بيضاوى يتميز ببروز فى الجبهة ، الشفاه متوسطه السمك ، الانف مسطحه ، يعيشون فى جماعات ، لاتزيد عن خمسين مسكنا، يصطادون الحيوان بالاقواس والرماح المسممه ، يتبادلون الصيد مع جيرانهم من البانتو Bantu ويحصلون منهم على الموز والذره ، ولكل جماعة طوطم مميزة يعتقدون أنه رمز للجماعة والاصل الذى انحدروا منه ، يتخذ بعضهم الشمبانزى طوطما له ، وآخرون النمر ... ويبدون احتراما كبيرا لطوطمهم هذا فلا يأكلونه ولايؤذونه ولايشربون من اناء لمسه ، يميلون إلى الزواج من خارج الجماعة ، يعتقدون فى الغيبيات لديهم عقيدة الـ Tore الذى خلق كل شيء على حد زعمهم ، ويرجعون إليه فى كل ما يفعلونه ، فإذا ماخرجوا للصيد سألوه أن يمنحهم الطعام ، فهو =

جماعة الـ Ainu على أطراف جزيرة هو كايدو Hokkaiod في اليـابان .

هذا التغاير أو التباين هو الذى دفع الانثربولوجيين الذين يرتحلون من مكان لآخر بحثا عن هـذا الاختلاف الثقافى لدى معاصريهم من الشعوب والجماعات ، وهم يدركون أن ثمة عمومية للحاجات الإنسانية ، وأن الإنسان في كل مكان وأيا كانت ثقافته لديه مجموعه من الحاجات الأساسيه يعمل على أشباعها كالحاجه إلي الطعام وإلي الحمايه والمأوى وإلى الاشباع الجنسى ... الخ وأن كل ثقافه تسعى إلىتحقيق أحتياجاتها بوسائلها الثقافية الخاصة هنا يمكن القول أن كل الثقافات تتشابه فيما بينها فى خصائصها وصفاتها الاساسيه وأنها تسعى إلي تحقيق متطلبات مشتركة أو هى قسمه مشتركه بين الناس جميعا ، إلا .أن الطرق والاساليب التى تنتهجها هذه الثقافات قد تختلف من مجتمع لآخر فالانسان فى أى مكان فى حاجه إلي الغذاء ، ولكن كيف يحصل عليه ؟ وما نوعيته ؟ وما الطريقه التى يستخدمهـا فى اعداده وما عاداته عند تناول هذا الطعام ؟ من يشاركه ؟ (*) ، الاوقات المناسبة لتناول هذا الطعام ، افكاره

الذى يأخـذ الموتى ، ويرسل البرق ليقتل كل من يفعل الشر ويرتكب الآثام ، ... يتحدث هؤلاء لغه خاصه بهم فضلا عن معرفتهم بلغه البانتو .

(محمد عبد الفتاح ـ افريقيا الارض والناس ، ص ٤٤)

(*) يشارك الرجل المرأة لطعام في الكثير من الثقافات، في حين نجد أن بعض الجماعات ترفض ذلك ولا نرى أهميه لمشاركه الرجل للمرأة، وعادة ما يتناول الرجال طعامهم أولا ثم يتناول النساء والاطفال ثانيا، وما يرتبط بذلك من أفضليات فى نوعيات الطعام وكميته ، كما نجد لدى بدو الصحراء الغربية فى مصر ، ويختلف هذا كثيرا عما نجدة لدى قبيلة (المساليت) والتي تقع غرب السودان بالقرب من=

حول ما يحب أو يكره ، ما يمنحه المتعة أو الاشمئزاز والنفور وارتباط ذلك بأفكار أو مفاهيم دينية أحيانا كما نجد لدى المسلمين فى تحريمهم أكل لحم الخنزير أو لدى الهندوس Hindus فى الهند وباكستان والذين يمقتون لحم الأبقار بل أن هناك شعوبا لا تأكل لحم الأبقار هذه إلا إذا ماتت موتا طبيعيا وقدلا تذبحها إلا اذا اضطروا الى ذلك كالدنكا، وما ذلك الا حبا واعزازا لها ، ثم هناك الذين يأكلون الجـــراد المشوى أو السحالى أو الثعابين والضفادع كما هو الحـــال لدى بعض الجماعات الافريقية كالبوشمن مثلا ، فى حين نجد أن الصينيين يرفضـون شرب اللبن الذى تعتبره معظم شعوب العالم عنصرا أساسيا فى محتويات طعامهم وهكذا ... بل أن هذا التباين لا تلبث أن تجده داخل الثقافة الواحدة، فبدو الصحراء الغربية يأكلون الجربوع الجبلى فى حين يعافه سكان وادى النيل ... بل أن هذا التغاير يبدو حتى فى مجرد استخدامهم للادوات التى يتناولون بها طعامهم ، فالبعض يستخدم أدواتا مصنوعة من الخشب ، فى حين يستخدم آخرون أدواتا من معدن بينما فريق ثالث يستعمل المحار الذى تجود به البيئة المحليه، فى حين يؤثر فريق آخر أن يتناول طعامه بيده دون الاستعانة بأى أداه على الاطلاق .

ان كل ثقافة تمد أفرادهـا بالطريقة التى يعدون بها مساكنهم من أجـل

= حدود تشاد حيث نجد صوره متطرفه لذلك فالرجال يأكلون بمفردهم فى « الخلوه » أى الخلاء ، أما النساء والاطفال فيتناولون طعامهم فيما بعد أو داخل البيوت ، وقد أبلغنى أحدهم ويبلغ من العمر نحـو ٤٦ عاما « أنه لم يأكل مـع زوجته أبدا » وعلى حد تعبيره « ما عندنا واحد يأكل مع مرة عيب » وحتى إذا ما سقطت الامطار فى الخلاء وأضطروا الى أن يتناولوا طعامهم داخل البيت فإن كل منهما يأكل بمفرده .

المأوى والحماية من الأمطار أو السيول أو البرد أو الرياح أو حـرارة الشمس أو حتى الاعداء من الحيوانات البرية، فسكان القبائل المنتشرة على النيل الأبيض بالسودان يقيمون بيوتهم من الجالوص «الطين» وأحيانا يعيشون فى «قطاجى يصنعونها من النباتات البرية كالكنز المتوفر فى الغابات وأحطاب الببانوس أو النال أو الفلكاپ ويغطون سطح المسكن بالشراجى أى الحبال المعقودة، وسكان القرى المصريه يشيدون مساكنهم من الطوب الأخضر ، والبدو يعدون خيامهم من وبر الابل وصوف الاغنام فى الشتاء ، والاسكيمو لهم مسكنهم التقليدى ذو القباب المصنوع من الثلج Domed Snow House ، يحدثنا هارولد دريفر HaroldDriver فى كتابه عن هنود أمريكا الشمالية ، أن كل قبيلة من هذه القبائل تقيم مأوى خاصا لها ، فالكهوف تستخدم للسكنى بصفه مؤقته، ولكل أسرة مسكن تقيم فيه بعض الوقت، وأن هناك العديد من القبائل التى تستخدم أكثر من مأوى ، وهذا التنوع مرده الى الوقت الذى يقام فيه المسكن ومادة البناء المتاحه ومدى ثراء هذه الأسرة، وعلى سبيل المثال فان هنود نهر الميسورى Mis.ouri River تعيش نحو نصف العام ـ خلال فصل الزراعه ـ فى أكواخ مغطاه ، فاذا ما جاء موسم صيد الأبقار فانهم ينتقـلون الي مساكن أخـــرى مخروطية الشكل مغطاه بالجلد ... وبعض هؤلاء يعيشون فى مساكن بيضاوية الشكل Wigwan تغطى عادة بلحاء الشجر ... ويذكر لنا فى الفصل الثامن من كتابه هذا سبعة عشرة نمطاً لمساكن الهنود تختلف من حيث مادة البناء أو الشكل أو المحتوى ... الخ فمساكن الإسكيمو تختلف عن مساكن هنود Kwakiutle وتلك مغايره لمأوى قبائل Ojibwa أو هنود الـ Crow أو هنود Pawnee[1]

---

(1) Driver, Harold Indian of north America, the University of Chicago press, 1969. p. 116.

وكذلك الحال فيما يتعلق بحمايه الجسم ونوع الملبس الذى يرتدونه والذى يتوقف على ملاءمته للظروف البيئية من ناحية وما تجود به هذه البيئة من ناحية أخرى ، فاسكيمو المنطقة القطبية الشمالية يعدون ملابسهم من جلود الرنه Caribou فهى أكثر دفئا وأخف وزنا واكثر مرونه من جلود عجول البحر Sealskin وعاده ما تتكون سترة الرجال والنساء « الParka » من جلدين يخاطان معا من الأطراف مثبت بها أكمام من الجلود ذاتها وغطاء للرأس « قلنسوه » ويختلف طوله باختلاف المكان ويتراوح ما بين الأرداف وحتى أسفل الركبة إلا أن ملابس النساء أكثر اتساعا وأكثر طولا من الخلف حتى يمكن حمل الطفل داخلها ، وكلا الجنسين يرتديان بالاضافة إلى هذه السترة «سروال من الفراء» فضلا عن ملابس داخلية تشبه الخارجيه إلا أنها من جلود أخف ، وقد يكتفون بها فى فصل الصيف ، كما انهم يلبسون نعالا وجوارب من الفراء الرقيق ، وقد يحشون النعال بالاعشاب جلبا لمزيد من الدفء ، ويمتد الحذاء فى العادة الى الركبة ، هذا فضلا عن القفازات المصنوعة من الفراء[١] .

فاذا ما انتقلنا الى جنوب السودان حيث قبائل النوير Neur فى مديرية أعالى النيل ، وعلى وجه التحديد سكان ضفتى النيل الأبيض جنوبا عند ملتقى النيل الأبيض ببحر الغزال وشرقا حتى نهر سوباط الي الحدود الاثيوبية نجد أنهم أكثر قبائل جنوب السودان احتفاظا بعاده العرى وأكثرهم افتخارا به لأنه ليس هناك ما يشين حتى يستروا أجسادهم على حد تعبيرهم[٢] . ولا يختلف

---

(1) Ibid, pp. 136 - 137

(٢) يوسف أبو قرون ، قبائل السودان الكبرى ، المطبعة الحكومية بالخرطوم ص ١٥٢ .

هؤلاء كثير عن جيرانهم من الدنكا Dinka فهم عراه الاجسام إلا المتزوجات من النساء اللائي يكثرن فى التزين بالخرز والودع ، وهؤلاء على النقيض من جيرانهم فى جنوب كسلا قبيلة « الرشايدة» والذين يمكن اعتبار نسائهم أكثر نساء السودان مبالغة فى الاحتشام وغطاء الجسم فلا تكاد ترى من المرأة إلا عينيها وجزءا من جبينها وكفيها ، فاذا ما تركنا كسلا وأتجهنا الى مصر فى أقصى الشمال الغربى لوجدنا بدو الصحراء المصريه بملابسهم التقليديه إذ يرتدى الرجل فى العادة جلبابا وصديريه وشنه «طاقيه» وقد يرتدى «الجرد» المصنوع من الصوف الخالص ، ويحرص على ارتداء هذا الزى فى المناسبات التقليدية ، ولكنه يرتدى الجلباب فقط حين يزاول نشاطه اليومى ، أما ملابس النساء فهى بسيطة وتميل البدويه الى الألوان الزاهيه وتحرص على ارتداء الحزم ذو اللون الأحمر للمتزوجه منذ خطوبتها والأبيض للمطلقة والأرملة ، ومن العار أن تسير المرأة دون « حزم » لأنه رمز لعفتها ، كما أنها تحرص على ارتداء « العصبة » غطاء للرأس و «البرقع» ومن فوقه وشاحا أسود يسمى القنعة حيث تغطى رأسها وتحجب به وجهها عن الاغراب خاصة إذا كانت صغيرة السن[1] ، وقد تبدو الصورة أكثر وضوحا إذا ما أخذنا فى الاعتبار تنوع الملابس التقليدية داخل الثقافة الفرعية الواحدة وتعددها واختلافها بالنسبة للرجل والمرأة أو صغار السن من الجنسين وعدم السماح بارتداء ملابس الجنس الآخر فى ثقافات دون أخرى، فضلا عن الالوان المناسبة لكلا الجنسين لكبار السن أو صغارهم وأختلافها بأختلاف الفصول ومراعاه التقاليد فى ارتداء أزياء معينة وفى مناسبات خاصة .

---

(١) فاروق اسماعيل ، التغير والتنمية فى المجتمع الصحراوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٣٦ .

إلى أى شيء يمكن أن نعزو الاختلاف الثقافى إذا ؟ القد ظل هذا التساؤل بمثابه القضيه التى شغلت العلماء والباحثين والاثنولوجيين منهم بصفه خاصه ، ولعل ماسبق الاشارة إليه عند الحديث عن الاتجاهات النظريه التطورية والانتشارية وغيرها ماهو إلا محاوله للاجابه على هذا التساؤل . ويمكن القول أن هذا الاختلاف مرده إلى عدد من العوامل لعل أهمها : البيئه الطبيعيه وما تحويه من امكانيات متاحه من ناحيه والمعرفه التكنولوجية من ناحيه أخرى ، فضلا عن نسق القيم السائد والذى يتدخل إلى حد بعيد فى أستغلال الإنسان لامكانيات البيئه ، ولاشك أن هناك عوامل أخرى لاتقل أهميه لعل أهمها امكانيه الاتصال والاستعارة الثقافية أو العزلة والبعد عن المراكز الحضاريه ... هذة العوامل تتضافر جميعا لتشكل الثقافه بما لها من خصائص وملامح متمايزة ، فالصيد أو الجمع والالتقاط والرعى والزراعه البسيطه أو المتقدمه أو التعدين انما يتوقف إلى حد كبير على الظروف البيئيه وما تتيحه من امكانيات أو من مجالات للاختيار ، فالمناخ الجاف والغطاء النباتى قد يحدد الرعى كحرفه رئيسيه وبالتالي ظهور نوع من الثقافة الرعوية بما لها من خصائص وملامح متمايزة ، أى نوع معين من التنظيم الاجتماعى . والقبائل التي تعيش على جمع الثمار البريه أو الصيد كالاقزام الدين يعيشون فى غابات ايتورى Èturi والسيمانج (*) Semang والسكاى Sakai فى شبه جزيره الملايو ، والبوشمن Bnshman فى صحراء كلهارى وغيرهم كثيرين ... يعيشون فى

(*) السيمانج قبائل تعيش فى جنوب شرق آسيا لم يعرفوا الزراعه بعد ولم يستأنسوا الحيوان حتى الآن باستثناء أولئك الذين اختلطوا بسكان الملايو وهم يعتمدون أساساً على النباتات البريه .

جماعات صغيرة العدد تترلوح بين العشرين والثلاثين شخصا كما هو الحال لدى السيمانج،وبين العشرين والمائه كما هو الحال لدى البوشمان،ينتقلون ولايستقرون فى مكان واحد لاكثر من ثلاثة أو أربعه أشهر ، بل أن السيمانـج لاتسقر لاكثر من أيام قليلة ، وقد أرتبطت حياة الحـــل والترحال ببساطه التنظيم الاجتماعى كما أن محتويات ثقافتهم المادية محدودة إلى حد كبير ، وهذا يختلف عن أولئك الذين يعيشون فى بيئات غنيه تتيح لأفرادها امكانيات ومصادر متنوعه للاستغلال ومن ثم يطورون نسقا ثقافيا اكثر استقراراً ، وبالتالى اكثر تعقيدا كما نجد فى المجتمعات التى عرفت الزراعة حيث الانتاج يزداد بازدياد الوسائل ذات الكفاءة والتى تعين على زيادة خصوبه التربة باستخدام طرقاً أفضل سواء للرى أو المخصبات ، فضلا عن استخدام حيوانات الجر والادوات والمعدات الحديثة ، كمـا نجد فى المجتمعات الزراعيه المصرية أو الايرانية أو لدى مزارعى المكسيك مثلا هنا نجـــد نوعاً آخر من التنظيم الإجتماعى والتمايز الطبقى والاتساع فى قائمه المهن والحـرف المرتبطة بالنشاط الزراعى .

فالامكانيات البيئية المتاحه إذا هى التى تحدد نوعية النشاط البشرى ، كما انها توحى بنوعيه التنظيم الإجتماعى أيضا ، ومهما حاول الانسان أحداث تغيير جوهرى فى بيئته الطبيعيه فانه لن يستطيع على حـد تعبير لوسيان فيفر Lucian Febvre أن يزرع المطاط فى المنطقه القطبيه الشمالية أو الكروم فى شمال أوربا ، كما أن الصحراء لن يقوم بها زراعه إلا حول العيون والآبار أو حيث يتوفر ماء الرى ، وسيظل طول فصل الإنبات هو الذى يحدد نطاق حزام القمح فى كندا ، وستظل مشكلة المياة هى التى تواجه مزارعى مارى

ودارلنج فى استراليا ، هذه ظروف بيئية قاهرة تحدد الاطار العام الذى يتحرك فيه الانسان داخله وتحدد مجال الامكانيات التى يختار منها وفق مقدراته ومطالبه الخاصة(١) بل هى التى تحدد الاطار الذى يتحرك فيه الانسان على مدار العام ، ولعل ظاهرة التنقل النوعى التى نجدها لدى قبائل أولاد على فى صحراء مصر الغربية توضح ذلك ، فالنشاط البشرى لديهم يمثل دوره ثابته وفقا للظروف الايكولوجية ، فالرعى وتربية الماشية من أجل موسم الحوالى وبيع الإنتاج والزراعة الموسمية فى حالة سقوط المطر من أجل الحصاد والحصول على النقد ، ثم صيد السمان فى أوائل الشتاء وجمع النباتات الطبية كالعنكه والسكران والبلنتاجو على مدار العام ، أن هناك دورة متكاملة لها جوانبها المتعددة وتستهدف جميعها تحقيق الكفاية الاقتصادية ، وهناك دوما نوع من التزاوج أو الاختيار بين الحيوان والزراعة أو الرعى وجمع الاعشاب الطبية أو الزراعة البسيطة وصيد السمان ، والاختيار ليس مطلقا وانما محدد بظروف بيئية تتمثل فى سقوط الأمطار ونمو العشب وبالتالي إمكانية الزراعة(٢) فاذا لم تسقط الامطار كانت هجرة الرعاة شرقا الى المراعى الخصبة الفسيحة فى مناطق البحيرة وهذا يعنى تغييرا فى التركيب السكانى إذ غالبا ما يقوم بالهجرة الرجال دون النساء والشبان دون الشيوخ والأطفال ... وارتباط ذلك كله بتغيير فى نمط المسكن وعدم اقامتهم خاصة فى مناطق النجوع وفى مساكن ثابتة طول العام واعتمادهم على أنواع أخرى بسيطة من حيث التركيب والبناء

---

(١) د. محمد السيد غلاب ، البيئة والمجتمع ، مطبعة الانجلو المصرية ـ الطبعة الرابعة ، ١٩٦٩ ، ص ٤٢ .

(٢) د. فاروق اسماعيل ، المرجع السابق ص ١٥٦ ـ ١٥٧

متمثلة في الخيام ، ثم بساطة محتويات هذه المساكن ذات الأروقة المتحركة كالحمول والصناديق الخشبية و بعض الأوانى ، فضلا عن أدوات الانتاج الرعوى والزراعى .

وقد يكون من الاجحاف أن نغزو الاختلاف أو التباين الثقافى للبيئة الطبيعية وحدها ، فلاشك أن المعرفة التكنولوجية تلعب دورا حيويا فى هذا التباين كما سبق أن أسلفنا فالمخترعات والابتكارات التى يستخدمها الانسان فى تطويع بيئته الطبيعية ومدى تعقدها انما تلعب دورا هاما فى أعطاء الشكل الثقافي أو الصيغ الثقافية لهذا المجتمع أو ذاك، وتبدوهذه المعرفة التكنولوجيه من خلال الأدوات والاشياء المادية Artifacts أو الأساليب التقنيـة التى تستخدمها الشعوب والجماعات لمقابلة احتياجاتهم المادية ، كما هو الحال فى الادوات التى يستخدمونها للحصول على طعامهم أو فى اقامتهم لمساكنهم من أجل الحماية أو المأوى أو فى اعدادهم للسلع المادية ، أو فى وسائل الانتقال وينبغى أن ندرك أن هناك دائما علاقة وثيقة بين التكنولوجيا كاحد أوجه الثقافة و بين الاوجه الاخرى منها فتكنولوجيا Bushman والا Semang وهنود(٥) Alkonkians تكنولوجيا بسيطة لا تساعدهم على الانتاج ، وارتباط

(٥) قبائل تعيش شمال شرقى كندا يعتمدون فى حياتهم على الصيد وتجارة جلود الثعالب والسمور (حيوان ثمين الفراء) وكذلك حيوان الوشق Lyux من أجل الحصول على السلع التى يريدونها من ملبس وأسلحة وطعام ، يستخدمون الاقواس والسهام والفخاخ والشباك فى الصيد، يخرجون للصيد لفترات قد تمتد لاسابيع طويلة يطاردون الدب البرى خلسة ، يتفقدون فخاخ الثعالب ومصايد الفئران من حين لآخر ويغيرون على السمور ،=

ذلك بانخفاض في كثافة السكان ، وكذلك الافتقار النسبي لتعقد الجوانب الأخرى من الثقافة ، التخصص لديهم يعتمد على الخطوط العريضه لسن والجنس ، جماعاتهم بدوية أو شبه بدويه ، يستهلكون ماينتجون أو معظم ماينتجون يتحركون في منطقه محدودة حاملين منتجاتهم وأمتعتهم ومساكنهم يعتمدون على الطاقة البشريه ، الاسره أساس تنظيماتهم الاجتماعية ، السلطة السياسية تتركز في أيدى كبار السن من الذكور ، تفكيرهم الايدلوجى محدود وضيق ، شعائرهم مرتبطه بأزمات الحياة ، التدرج الدينى محدود ويكاد أن يكون معدوما (١) .

وكلما ازدادت المعرفة التكنولوجية كلما زادت التسهيلات الايكولوجيه المتاحه وامكن استخدامها من أجل تحقيق المزيد من الانتفاع البيئى ، فالتنوع التكنولوجي يتيح الفرصة لانتاجية أوفر وبالتالي تحقيق المزيد من الأمن الغذائى ، ويصبح الاعتماد على الجمع والصيد أن وجد بمثابة مصدر اضافى أو تكميلي لاحتياجاتهم ، ويصبح السكان اكثر استقراراً ، ويترتب على هذا بناء مساكن اكثر استحكاما سواء من فروع الشجر وأوارقها أو من الجلود والطين أو الحجارة أو غيرها ، وكذلك فان شكل الملابس ونمطها يرتبط بتكنولوجيا المعيشه ومدى تقدمها ، وكلما زادت المعرفة التكنولوجية كلما

= يعتمدون في غذائهم على ثمار التوت البرى واللحم الجاف ، يشربون مياه الثلج المذابة ، يحفظون اللحوم عن طريق التدخين ...

Hammond, op. cite: PP 37 — 38 .

(1) IBid. P - 38 .

كان لدى الانسان وقت أطول ومواد متاحه تعطى الفرصه للتخصص وأنتاج سلع أخرى ، ومع وفرة الانتاج ووجود الفائض تظهر العمليات التجارية للادوات والسلع الاستهلاكية ،والفائض من انتاجية الارض سواء فى صورة مبادلات أو للحصول على النقد مباشرة من أجل شراء سلع أخرى يفتقدون إليها ،ومن خلال الزيادة التدريجية للتطور التكنولوجى تتطور وسائل وطرق الانتقال ويبدو التغير الواضح فى كفاءة النقل ، هنا يمكن أن يظهر التفاضل الطبقى والاجتماعى ، ومن هنا تأتى الحاجه إلى المزيد من التنظيمات الاجتماعيه والإقتصاديه والسياسيه الاكثر تعقيدا .

ومن ناحية أخرى لا يمكن الزعم بأن التنوع الثقافى مرده إلى البيئه الطبيعية أو المعرفة التكنولوجية وحدها، فلا شك أن نسق القيم يلعب دوراً هاما سواء فى استغلال البيئه أو فى اختيار الامكانيات المتاحه وتطويرها على اعتبار أن القيم هى الموجه للسلوك بل هى وسيلة من وسائل تنظيم هذا السلوك ، ومن هنا فان تقدير الناس للشىء أو السمة أو نوع السلوك وادراكهم لقيمتة على أنه يمنحهم الرضا والاشباع ، أنها توجه الافراد إلى محتويات البيئة المادية والتى يمكن اعتبارها مرغوبة ونافعة كما توجههم إلى السلوك المقبول اجتماعيا أو غير المقبول ، نشجعهم لأن يفعلوا الشيء الصحيح ونمنحهم الشعور بما يستحق هدا الشيء من تقدير واحترام ، فالجهاز الثقافى لأى مجتمع أو ثقافة من الثقافات انما يمد الأفراد باطار محدد من القيم الاخلاقية والدينيه والإقتصادية والاجتماعية يكون بمثابة الموجه للسلوك سواء فى تعاملة مع البيئة أومكوناتها أى ماتحتوى عليه من نبات أو حيوان أو جماد (١) . هذا الاطار هو الذى جعل البدوى فى

---

(١) د . فاروق اسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

صحراء مصر الغربيه يأكل نوعا من الفئران « الجربوع الجبلى » ويعتبره فى المأكولات الشهيه فى حين يطارد نوعا أخر منها « كالبيوص » ويرى أن أكله حرام وأن قتل « أبو كشاس » « والحربايه » و « أبو دقيقه » و « أبو درنه » و «أبو عماية» أمر مستحب ومرغوب فيه لأنها شاركت فى قتل ناقه الرسول، هذا الإطار القيمى هو الذى يدفع قبائل الدنكا السودانيه إلى عدم ذبح الابقار والتى يحبونها إلى درجة القداسه والتى لا يأكلون لحمها إلا إذا ماتت ولا يأكلون أى نوع من الطيور فى حين يأكلون الوعول والغزلان وكذلك لحوم الاسماك والورل وغيرها على نحو ماسنرى عند الحديث عن الدنـكا، ولايختلف هذا فى كثير عما نجده لدى الهندوس حيث يمتنعون عن أكل لحـوم الابقار وبالتالى عدم أستغلالهم لهذا المصدر الحيوانى الهام ، وكذلك تقديس بعض الشعوب والجماعات فى الديانه الطوطمية للحيوان أو النبات ، ومن ثم يمتنعون عن قتله أو صيده إذا كان حيوانا أو قطعه أو أكله إذا كان نباتاً ، وكذلك اليهود الذين يتجنبون أنواعا من الاطعمه يعتقدون أنها مهينه للكائنات الروحيه العليا التى يؤمنون بها ، بل أن بعض قبائل منطقه جبال الانقسنا يرون أن طائر «السمبربه» لايجوز صيدة أو أكله» ويعتقدون أن أحد ابنائهم أو احفادهم الذين تركوا المنطقة فى أزمنة قديمة قد عادوا إليها فى صورة طائر السمبريه ومن ثم يجب اطعامه واكرام وفادته وعدم المساس به ، وهذا يعنى أن الثقافة بما تحويه من عادات وتقاليد وقيم هى التى تحـدد اتجاه الافراد فى الاختيار واستغلاله لامكانيه البيئية المتاحه أو عدم استغلاله لها .

وإذا كنا بصدد القاء الضوء على التباين الثقافي فاننا لانستطيع بأى حال

من الأحوال أن تتغاضى عن أهمية الاتصال الثقافى (*) Cultural Contact ، بمعنى آخر من القاء الضوء على التأثر والتأثير المتبادلين بين الثقافات المختلفه بحثا عن اكتشاف الانماط والسمات الثقافية والذى يؤدى بالتدريج الى ظهور صيغ ثقافية جديدة ، وقد يحدث هذا التأثير الثقافى نتيجة المعيشه معا أو فى جوار مشترك وقد يترتب على مجرد مرور الاعضاء الذين ينتمون الى جماعة ثقافية فى منطقة إقامة جماعة أخرى ، كما يحدث نتيجه الاتصال فى مناطق الحدود أو المناطق التجارية أو قطاعات العمل .[1] فالاتصال فى مثـل هذه المجـالات قد يترتب عليه ظواهر ناتجة عن التقاء الجماعات ذات الثقافة المتباينة والتى تدخل فى اتصال مستمر وما يترتب على ذلك من تغييرات فى الانماط الثقافية لاحدى

(*) لقد عرض كثير من الباحثين الاتصال الثقافى فى محـــاولتهم معالجة موضـوعات الانتشار الثقـافى Cultnral diffusion والتكـيف الثقـــافى Acculturat ion والتمثيل الثقافى assimiliation والتغير الثقافى Cultural change كما نرى فى الدراسات القديمة التى قام بها الباحثون كتلك التى قامت بها مرجريت ميد Margaret Mead حين عرضت للاتصال الثقافى بين الهنود والبيض وكما فعل Paul Radin فى دراسته عن نتائج الاتصال الثقافى بين قبيلة Winnibago الهندية والبيض وكذلك Schapira فى دراسته عن تأثير الثقافة الأوربية على ثقافة pono والذين ينتمون الى قبائل ال Bantu أو دراسة Herskovits عن التكيف الثقافى للزنوج الامريكيين أو Lindgren لقبائل ال Cossaks الروسية

(Hammond. op cite. pp. 272.)

(١) د. فاروق اسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية . ص ٩٢

هذه الجماعات ، ولعل ما تعرضت له ثقافة الاوركواى Iroquois (٥) خلال فترة اتصالهم بالمهاجرين البيض انما يوضح لنا ذلك وقد اخترت هذا المثال بالذات دون أمثلة أخرى كثيرة وعديدة لأنه يوضح لنا الى أى حد يؤثر الاتصال الثقافي وكيف أن هذا التأثير يمتد الي الجانب الايديولوجى فضلا عن الجوانب المادية الأخرى التى ندركها لأول وهـــله في أى دراسة عن الاتصال الثقافى .

احتلت قبائل الاوركواى المنطقة الشمالية المتاخمه لحدود مدينة نيويورك الحالية ، وكانت لديها القدرة على حماية منطقتها الاقليمية وبالتالى الحفاظ على طريقتهم التقليدية فى الحياة من تجمعات قبلية متناثرة هنا وهناك ، يزرعون محاصيل القمح والقرع واللوبيا ، كما يعتمدون على الصيد، وظل الحال كذلك حتى نهاية القرن الثامن عشر حيث بدأت ثقافة الهنود تنهار نتيجة لقيام الحرب بين المهاجرين البيض من الفرنسيين والهنود وتدمير مستوطناتهم ، واستيلاء هؤلاء المهاجرين الجدد من الفرنسيين أو غيرهم على مزارع الهنود ومناطق الصيد ، ووجد الاوركواى أنفسهم فى نهاية المطاف محصورين فى مناطق محدودة للغاية تنتشر بين مستوطنات البيض المزدهرة كاقليات مستضعفة ، فقدت الأرض وتكاد تفقد وحدتها تحت تأثير المهاجرين الجدد ومحاولات القمع المستمرة من ناحية واحتياجهم الاقتصاد النقدى من ناحيـــة أخرى ، نظمهم الاجتماعية والإقتصادية التقليدية لم تعد تفى باحتياجاتهم ، وترتب على

---

(٥) درس هذه القبائل العديد من الباحثين مثل Dcard Orff ١٩٥١ ، Oswalt ١٩٦٦ ، Wallace ١٩٦٢ ، وآخرين .

ذلك أن ضعفت معنويات القادة المحليين الذين واجهوا الهزائم المتتالية وسرعان ماانتشر الفقر والسكر والعربده ومظاهر العنف واللا مبلاة ودب اليأس فى نفوسهم ، في هذا الوقت بالذات ظهر أحـد زعمائهم ويدعى Sereca وزعم أنه رسول جاءإليهم برسالة من السماء تدعوهم إن ارادوا البقاء إلى الاخذبالأساليب العصرية وإلا فانهم يحكمون على أنفسهم بالدمار ، يجب عليهم أن يطبقوا أساليب الرجل الأبيض فى الزراعه ، وأن يتركوا جانبا أساليبهم التقليدية فى فى زراعة الأرض ، وأن يتعاون الازواج مع زوجاتهم فى الاعمال الزراعية وأن يتغير نظام الاسرة الاموية Matrilineal التقليدى أو نظام الانتساب إلى الأم والاقامة الاموية ،وأن يتجهوا إلى بناء أواقامة وحدات معيشيه households تقوم أساسا على الزوج والزوجه وأبنائها وأن يتعلمو الانجليزية،وأن يكفوا عن شرب الخمور والادمان ... الخ ، ولقد استجاب هنود الاركواى لزعيمهم ونبذوا الكثير من أساليبهم التقليدية ، واكتسبوا سمات ثقافية جديدة حتى يمكنهم التكيف مـــع الظروف المتغيرة فى حياتهم ، وظهرت مزارع الهنود الجديدة على غرار مزارع الأوربيين ، وقامت وحداتهم الاسـريه على غرار عائلات المهاجرين ... الخ ، لقد وجـد هؤلاء الهنود لأنفسهم نوعا الن التبرير الايديولوجى Ideological Justification لهجرة المبادىء التقليدية تحت وطأه الدمار الذى احاط بهم من كل جانب ، ولم يمضى وقت طويل حتى ظهرت صيغ ثقافية اقرب إلي ثقافة البيض السائدة (١).

مما سبق يتبين لنا كيف أن الصيغ الثقافية أو الانماط الثقافية المتباينة أو التجهيز الثقافى أن صح هـذا التعبير انمـا يعتمد على عوامل كثيرة متداخلة

---

(1) Hammond, op. cite pp. 272 - 273 ,

ومترابطة بعضها مع البعض الآخر ، فالمعرفه التكنولوجية الضرورية للانتاج والمتمثلة فى استخدام الأدوات والمعدات والاسلحة والتى تعـين الإنسان على استغلال الموارد البيئية المتاحة أو التسهيلات الايكولوجية الممكنه انما ترتبط إلى حد بعيد بالتفكير الايديولوجى أو النظام الأخلاقى والعقلى السائد والذى يعتمد على الدين والقانون والقواعد الاخلاقية ، وتلك تتأثر إلى حد بعيد بامـكانيه الاتصال الثقافى أو العزلة الثقافية وجميعها تعمل معا وبطرق متفاوتة ومتداخلة على تشكيل الثقافة القديمه ، بمعنى آخر وعلى حد تعبير مالينوفسكى Nalinowski تعمل كجهاز ضرورى لتشكيل كل جيل من الكائنات البشرية بمثابة معمل تلتقى فيه الإنعكاسات والمؤثرات والميول للكائن (١) .

ولكن ندرك مدى هـذا التنوع أو التباين الثقافى سوف نقدم مثالين أحدهما من القبائل النيلية التى تقطن جنوب السودان « الدنـكا » Dinka فى شرق افريقيا والآخـــر لقبائل التيف Tiv والتى تقطن شمال نيجيريا فى فى غرب افريقيا .

* * *

(I) Malinowski, Bronslaw. Encyclopaedia of tle Social Sciences. P, 623 ;



الفصل الخامس

الدنــــكا

- الظروف البيئية
- فى البناء القبلى والعائلى
- النشاط البشرى
- الضبط الاجتماعى
- الحياة الدينية

أحدى القبائل النيلية nilotic tribes الهامــــة التى تحتل حوض النيل الاوسط فى جنوب السودان(*) وينتشرون بين مديريتى بحر الغزال ومديرية أعالى النيل ويتركزون بصفه أساسية فى المديرية الأولى وينتشرون فى منطقة فسيحه تتجاوز ٦ درجات عرضيه من ٦° إلى شمال ١٢° شمالا من الرنك ـ من الشمال الي مايبعد بنحو ١٩٠ ك . م من حدود أوغندا مع امتداد عرضي يشمل معظم مديرية بحر الغزال إلى الجزء الجنوبى من كردفان، وأن كان هناك جيب كبير يحتله النوير بين ٢٠ر٧° ، ٣٠ر٩° شمالا يفصل بين دينكا النيل الابيض ودينكا بحر الغزال[١](انظر الخريطه ص١٨٩)ويذهب الكثير من التقارير إلى أن تعدادهم يزيد عن المليون فاذا اخذنا فى الاعتبار أنهم ينتشرون فى مديريتى بحر الغزال وأعالى النيل وأن تعداد هاتين المديرتين وفقاً لآخر احصاء ٠٠٠ر١٩٨٥٠ نسمه لوجدنا أن سكان الدنكا يشكلون نسبه كبيره من سكان

(*) يشتمل المجتمع السودانى على ٥٩٧ قبيلة يتجمعون فى جماعات قبلية اكبر تمثل ٥٦ وحدة قبلية، وتنقسم إلى مجموعة القبائل الجنوبية والعربية والبجة والنوبيين ، ويطلق على القبائل العربية والبجه والنوبيين مجــــوعة القبائل الشمالية انظر .

The population of Sudan, Philosophical Society of Sudan in Conjunction With he departement of Statistics Government of the Republic of Sudan, Uuiversity of Khartoum, 1958 ,

(١) د . محمد محمود الصياد ، د ، محمد عبد الغنى سعودى ، السودان ، دراسة فى الوضع الطبيعى والكيان البشرى والبناء الاقتصادى ، الانجلو المصرية ، ١٩٦٦ ، ص ٦٦٧ .

هاتين المديريتين ، وتنقسم مجموعه قبائل الدنكا إلي قبائل فرعيه مستقله تفتقد الشعور بالانتماء أوأدراك الاصل المشترك ، وعلى الرغم من عدم وحدتهم فانهم يبدون تماثلا ثقافيا فيما يقول Francis M. Deng (*)اولقد حافظوا على هذا التماثل على الرغـم من اتصالهم بالاخرين لقرون (تحيط بهم قبائل الشولك والنوير والبارى والزاندى ...) ، أن لديهم شعور بالذات واعتزاز بثقافتهم ، يتمركزون حول العرق ويعتبرون أنفسهم مقياساً لكل ماهو طبيعى ، يدعون أنفسهم MonyJang « مونيجانج » ، ويشيرون للاخرين من جـيرانهم أو الغرباء الذين ينتمون إلى قبائل أخرى بكلمة Juur (ومفردها Jur) أى الغرباء [1] (**) .

وقبل أن نستطرد فنعرض للبناء القبلى للدنكا يجـدر بنا الاشارة فى ايجاز

(*) وزير الدولة السودانى الحالى ومؤلف أهم الكتب الحديثة عن الدنكا.

(**) وفى الحقيقه أن ماذهب إليه F. Deng فى أطلاق هذا الاصطلاح Jur على الغريب مرده ـ فى رأيى ـ إلي أن هناك قبائل مناخمه لهم من النيليين يسمون Jur ، ومن ثم اشاروا على كل من لاينتمى إليهـم أو إلى منطقتهم بأنة من الـ Jur أى الغرباء ، ولعل اشارتهم للافراد التابعين لقبائل الـ Luo فى بحر الغزال بالغريب الأسود والعرب فى منطقة كردفان بالغريب ذو اللون البنى أو راكبي الخيول ، واستخدامهم لكلمه « الاتراك » للاوربيين أو ذوى البشرة البيضاء تؤكد هذا الرأى .

(1) Deng M. Francis, The DinKa aud their Songs, The Oxford Library of African Literature, 1973; P. 2.

إلى الظروف البيئية باعتبارها الاطار الرئيسي الذى يمكننا من فهم هذا البناء والقاء الضوء عليه .

المنطقة فى عمـــومها غنية باعشاب السافانا الكثيفةحيث الاشجار القصيرة، والعديد من الأخوار الدائمه الجريان،حتى فى موسم الجفاف نجدأن المنطقة تقدم التسهيلات الايكولوجية المتمثلة فى الاعشاب والاشجار والجزر والمستنقعات . . ومن ثم بتوفر المرعى لأبقارهم وللانواع العديدة من الحيوانات مثل الزراف والحمار الوحشي والظباء والبقر الوحشى والفيلة والنعام ، ويميلون بطبيعتهم إلى الابتعاد عن المناطق المرتفعة والاماكن الجبلية وأن كانوا يفضلون المسطحات المرتفعه نسبيا لاقامة مساكنهم حتى يكونوا بمنأى عن مياة الأمطار أوالفضيات ويختارون هذه المسطحات حيث تتوفر الأخاديد في فصل الجفاف وحتى يمكنهم الحصول على الميـاه وتتوفر الحشائش والاعشاب كما هو الحـال فى جهات « بور » Bor ، وشامبى ، Shambe ومن ثم يضطرون إلي رفع مساكنهم عن سطح الارض بأعمده من الخشب تفاديا لميـاه الامطار واتقاء للحيوانات والحشرات الضارة[1] . ويمكن القول أنهم يدركون أربعة فصول علي مدار العام فهناك الربيع ويسمونه Ker حيث تسقط الامطار (*) وتزرع الحقول

(١) سليمان محمد سليمان ، الدينكا والنوير ، بدون تاريخ ، ص ١١.

(*) تختلف مواعيد سقوط الامطار باختلاف المناطق ففى الجنوب تسقط فى أواخر فبراير وحتى نوفمبر فى منطقة بحر الغزال ، ومن ابريل إلى اكتوبر في المنطقه الجنوبية من المديرية الاستوائيه ومن مايو إلى اكتوبر فى منطقة السوباط وهكذا .

التي سبق اعدادها وتمتد فتره الربيع من أواخر ابريل إلى أوائل يوليو ، ثم يأتى الصيف Reul ويستمر طول شهر يوليو حتي اكتوبر وهى فترة الامطار الغزيرة والاقامة المستمرة فى القرى ، يلى ذلك فصل الشتاء Rut وهـو اكثر بروده حيث تبدأ الرياح الشمالية في نوفمبر ويستمرهذا الفصل إلى شهرفبراير، والشتاء هنا دافىء جاف حيث تنعدم الامطار وكذلك الحال فى الخريف Mai وتصبح المياة نادرة وتجف مجارى الانهار فيحفرون الآبار بالقرب من القرى التى يقيمون فيها ، ويعتـبر الخريف من اكثر فصول العـام جفافاً وأشدها حرارة (*) ويستمر حتى أوائل مايو [1] . ويختلف معدل سقوط الامطار وقد يزداد معدلها خاصة فى شهور الصيف لدرجة تؤثر على الحياة كما حدث في أعوام ١٩٤٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٤حيث تغمر الارض بالسيول وتهدم القطاطى « مفردها قطيه » أى المسكن الدينكاوى ولاتصلح الطرق للانتقال ، بل قد تغمر قرى بأكملها فيمتد الدمار إلى الحيـاة النباتية والحيوانية ، وبصفة عامة يمكن القول أن المنطقة تتعرض للامطار منذ أواخر إبريل وأوائل مايوحيث يبدأ الغطاء النباتى وتنمو الاعشاب، ثم لايلبث أن يزداد معدلهافى فصل الصيف وتتدفق الامطار ويزداد تبعا لذلك منسوب مياة الانهار وتكثر المستنقعات والاخوار ويستمر الحال كذلك حتي نهاية الخريف (*) .

وعلى هذا يمكن القول أن مجموعه قبائل الدنكا من القبائل التى تعرف الحل

(*) تصل اعلى درجة حرارة فى منطقة الرنك إلى نحـو ٤٦ درجة وادنى درجه٨ درجات .

(1) Deng of op. cite. p. 37 .

(**) يبلغ معدل سقوط الامطار فى منطقة الرنك مثلا نحو ٥٢٤ مم .

والترحال أسلوباً للحياة ، فهناك فترة الاقامة والاستمرار في القرى في الفترة من مايو إلى اكتوبر ثم فترة الانتقال وتبدأ في نوفمبر وتستمرحتى ابريل أى حتى بداية موسم الامطـار والفيضانات التالي ، أما فى موسم الجفاف وحين ينحسر المـاء عن السهول المنخفضه ، وغالبا مايكون هذا فيما يقول Godfrey Lienhardt في ديسمبر أو يناير أو في وقت سابق وفقاً للظروف البيئية المحلية وموعدسقوط الامطار، حيث يقوم كبار السن بصفة خاصه بأختيار المراعى القريبه من النهر(السوباط، بحر العرب، بحر الجبل .. الخ)ويعسكرون هناك في مساكن مؤقتة حتى ابريل أو مايو - ويزعم الدنكاويون أنهم في الماضي كانوا يملكون هذه المراعى ويسيطرون عليها بالقوه ولايسمحون لمن عداهم بالاقتراب منها إلا إذا كانوا ينتمون إليهم بصلة القرابة أو الصداقة فإذا جاء شهر ابريل أومايو يعودون ادراجهم لاعداد الارض وذراعتها ، ويعتبر هذا الوقت من الفترات الحرجة لأن الامطار قـد تكون كمياتها من الضآلة بحيث لاتفي باحتياجاتهم أو لاتكفى لنمو الغطاء النباتى اللازم لقطعانهم ، فاذا ماجاء شهر يوليو وزرعت الارض ، وبدأ الفيضان يظل الرجال والنساء للاشراف على زراعة الحدائق بينما يخرج الشبان إلى المراعى الفسيحة بابقارهم (١) .

وهم يقيمون مساكنهم فيما يقول Seligman على سلسلة التلال المرتفعة نسبيا وتسمى Duk وتبعد نحـو من ٣٠ إلي ٤٠ ميل عن النهر وتمتد شمالا

(I) Middleton. John & Toit, David, Tribes Without Rulres, Studies in Af.ican Segmentary Systems Routledge & Kegan Paul, Ltd. P. 99 .

وجنوبا حيث تقام القرى الدائمه [١] . السابق الاشارة إليها وتنتشر الاكواخ أو القطاطى فى القرية ويقيمونها عاده على ركائز من أشجار الغابة حيث يعدون حفرة عميقة تثبت بها أعواد من الخشب على شكل مستدير ، ثم يثبتون هذه الاعواد المغروسة فى الارض باعشاب رفيعة ينسجونها ثم يثبتون هذا النسيج باطار من نسيج الاعشاب أيضا ، فى لك الوقت يعد الجزء الاعلى ويرفع ليوضع على الدائرة المغروسة فى الارض ثم يستخدمون سيقان الذرة لصنع أطار المسكن أو القطية(*)، والمسكن فى عمومة يرفع من على سطح الارض حمايه له من مياة الامطار والرطوبة ، وما يرتبط بذلك من انتشار بعض الحشرات التى تتواجد مع ارتفاع نسبة الرطوبه ، وقد يعدون بعض القطاطى لحماية صغار الماشية أو الابقار من الامطار ، كما يعدون قطاطى أخرى لتقوم بدور المطامير فى حفظ المحاصيل ، ونظرا لحالة الحل والترحال التى يعيشها الدنكاوى فان أثاثه بسيط للغاية شأنهم فى ذلك شأن الجماعات القبلية البدوية أو شبة البدويه الدائمة الانتقال فلا نكاد نجد إلا القليل من الاثاث والمتمثل فى بعض الجلود والادوات التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية كالحراب والسكاكين والعصى والمدى الخشبية والتى يثبت فيها سكين حاد تستخدم فى الطعن ، وآنية القرع « نبات برى » فضلا عن السكسك والأوانى الفخارية

---

(1) Seligman, Charles, Pagan Tribes of the nilotic Sudan, Routledge and Kegan Paul, P. 135 .

(*) كما يعدون « اللواك » Lwak وهى حظائر الماشية ويصنعونها من فروع الاشجار والقش أو الاعشاب .

والكدوس لتدخين التمباك[١] بالاضافة إلى القليل من الملابس المصنوعة من الجلود المدبوغة أو الاقمشة وأدوات الزينة كحبات الخرز وبعض قطع الحديد والفراء .

٭ ٭ ٭

وعلى الرغم من أن الدنكا تعرف على أنها من أهم الجماعات العرقية واللغوية لمجموعة الشعوب النيلية وتربطها علاقات اجتماعية وعلاقات نسب ومصاهرة بجيرانهم (كالنوير والنيليين المتحدثين لغة Lwoo من أمثال قبائل Luo في بحر الغزال والـ Shilluk والانوال Anuak) إلا أنهم ينقسمون إلى العديد من الفروع القبلية المستقلة والتى تحتل مساحات منفصلة أو متمايزة بمحددات طبيعية كالانهار والمستنقعات والأحراش والغابات قليلة المياة . ويذهب Godfrey إلى أن تعداد هذه الفروع القبلية يتراوح بين ٣ ألاف و ١٥٠ ألفا كما نجد عند جماعة (الرك) Rek والتى تعتبر من اكبر الفروع القبلية فى حين نجد أن Luac لايتجاوزون . . . ١٤٠٠ ومالوال Malwal ٣٧٦٤٠ ... الخ[١] .

وقد اتخذ كل فرع من هذه الفروع القبليه له اسما خاصا استمده من الظروف البيئية أو الطبيعية أو ما ينتشر بالمنطقة من حيوان وحشرات وقد يسمى بعضها باسماء الحراب أو السهام التى يستخدمونها ، (أنظر الخريطه)

---

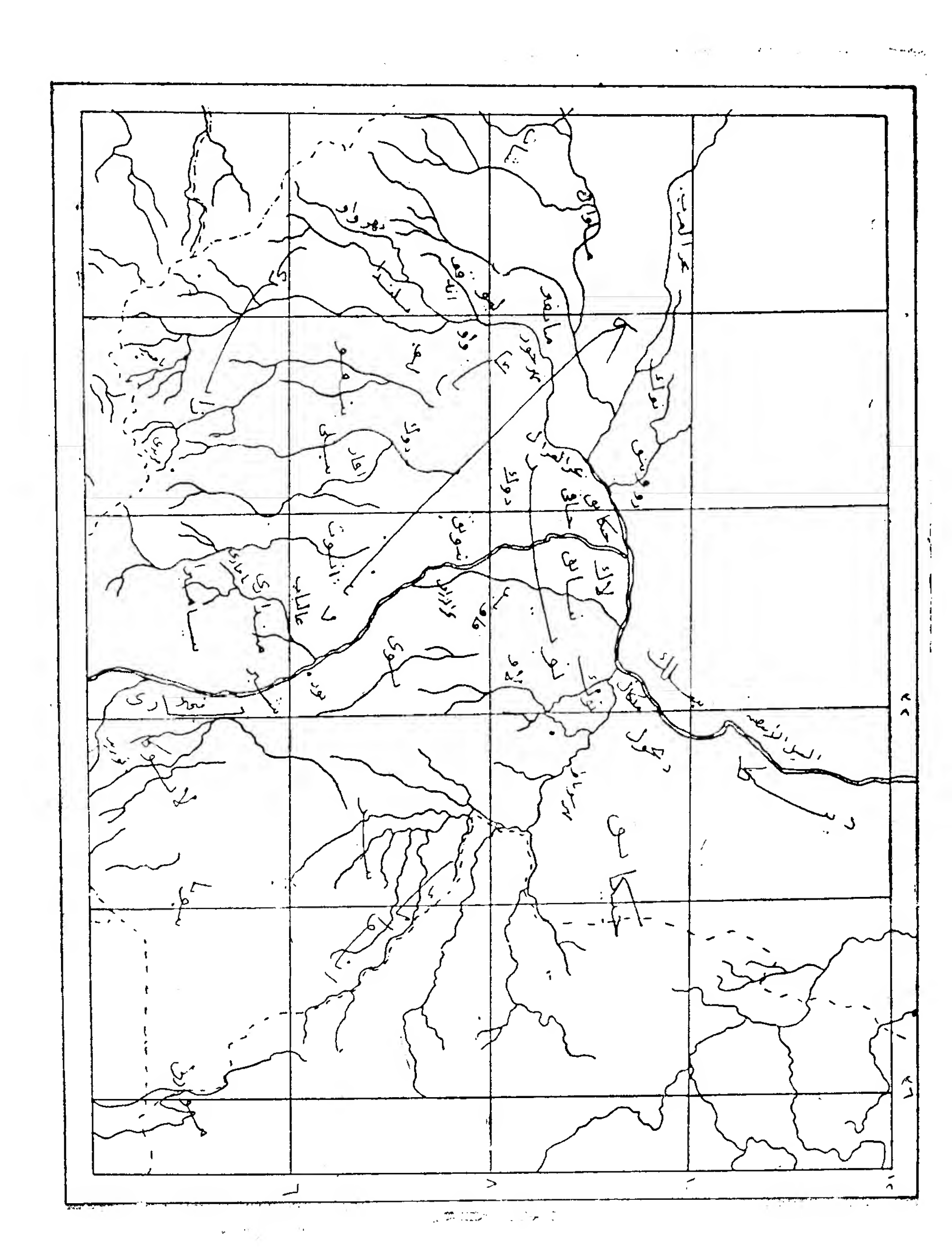
(1) Lienhardt, Godfrey « The Western Dinka » in Tribes Without Rulers, Editednby John middleton, Darid Tait P, 10 . .

بل و لكل منها سماته الثقافية المميزه، وقد اختلفت الآراء في عدد هذه التقسيمات القبلية فيذكر F. Derg الى أنها تمثل نحو ٥ فرعا قبليا رئيسيا كما يشير سليجمان C. G. Seligman أستاذ الانثربولوجيا بجامعه لندن فى دراسة له أجراها منذ نحو نصف قرن (١٩٣٢) إلى أنهم مجموعة من القبائل المستقلة التى تحتل مساحة شاسعة من الأرض وأن دراسته الحقليه التى قام بها وزوجته قاصرة على دنكا النيل الأبيض White Nile Dinka [١] ثم يشير إلى أن المادة الاثنوجرافيه التى يعرضها فى كتابه قد أستمدها من أفراد ينتمون إلى سبعة فروع قبلية [٢] هذه الفروع القبلية (٥) تنقسم بدورها إلى عـدد من العشائر الطوطميـــــة الاكسوجاميه Exogamous Totenic Clans تنتمي الي خط الذكور .

(1) Seligman, op. cite, p. 135.

(2) Ibid, pp. 136 - 137,

(٥) مثل دينكا « الماندارى » Mandari و « الشير » Shir و « العليـاب » Aliab ، و «البور» Bor و « أتوت » Atwot و « بيلى » Beli إلى الغـرب من أتوت ثم « آقار » Agar و « جامبيك » Gambek ثم « السيك » Cic شرق رامبيك Rumbek بالقرب من النيل الأبيض جنوب منطقة «شامبي» Shambi و « توى » Twi على الضفة الأخرى للنيل وتقترب من شامبي إلى حد كبير . ثم دينكا « مانانقير » ManaNgeir على فرع بحر الغزال المتجه غربا ثم الريك Rek بالقرب من نهر جور جنوب « الما نا نقير » ثم دينكا « المـلوال » Malwal في أقصى الغرب ثم « النوك » Ngok إلى الشمال الشرقى من الملوال ، ثم « كيرو » Kiro و « نوج نيانج » Ngong Nyang وتعيش على بعد من ٢٠ الى ٣٠ ميل جنوب منطقة Soda إلى أقصى الشمال من قبائل « المونتان » Monthan . أنظر الخريطه من أسفل النيل الأبيض متجها إلى أعلى).



ويمكن القول أن هذه القبيلة من أكثر القبائل السودانيه انقساما فمتى أستشعر أحدهم قوته وسطوته وأن له عزوة من الأخوة والأبناء الذين جاءوا من العديد من الزوجات ، فضلا عن الأتباع والمؤيدين ممن هم أقل شأنا ، ترك القرية وبحث له عن مكان آخر ، اتخذ له أسما مغايرا وهكذا يذهب F. Dang إلى القول نظراً لاعدادهم الكبيرة وانتشارهم فى مساحات شاسعه ـ كما أوضحنا ـ وصعوبة الاتصال فيما بينهم فإننا لا نستطيع الزعم بان الدنكا يعرفون بعضهم بعضا(١) أي بمعنى آخر ليس كل دنكاوى على وعي أو دراية بالجماعات الدنكاوية الأخرى ، فدنكا (الرنك) Renk على النيل الأبيض في أقصي الشمال قد لا يعرفون شيئا على الاطلاق عن دنكا شير Shir أو دنكا (الماندراى) Mandari فى الجنوب ، على الرغم من اطلاق كلمة الدنكا على هذه المجموعة من القبائل النيلية(*) ، إلا أنهم

---

(1) Deng, op. cite, p. 6.

(*) تتحدث القبائل النيليه nilotic Tribes اللغة السودانية Sudanic Language كما هو الحال لدى القبائل الواقعة في حوض النيل وان كانت تبدى الكثير من الاختلافات الفرعية فيما بينها ، ولقد حاول وسترمان Westermann تصنيف النيليين على أساس لغوى فاستخدم اصطلاح nilotic ليدل على مايتصل بحوض النيل Nile Basin إلا أن الانثربولوجيين استخدموا الاصطلاح ليشير الى نمط فيزيقى محدد يرتبط بثقافة معينة ، ولقد صنف وسترمان النيليين إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالى :

(١) المجموعة النيلية العليا وتشمل قبائل Mittu و Madi و Moru و Lendu و Wira و Luba و Abaka و Abu Kaya

=

يدعون أنفسهم بالجانقى Jang والتى حرفها العرب(٭) فيما يقول Seligman الى الدنكاوى Denkawi[1] فالجانقى أو الجانقية إذا هى الاسم المتعارف عليه ويستخدمونه فى الاشاره إلى ذاتيتهم العرقية Ethnic Identity أو إلى وحدتهم القبلية ، وهذا لا يمنع من أن بعض الفروع القبلية مثل النوك Ngok في كردفان والتى تقع الى الشمال الغربى من ملوال والذين يعيشون فى عزله نسبيه عن بقية الفروع القبلية يشيرون إلى أنفسهم على أنهم دنكاويين ، وأحيانا نجد قبائل

= (٢) المجموعة النيلية الوسطى مثل Shilluk و Anuak و Beir و Jur و Belanda وكثير من قبائل شرق أوغندا .

(٣) المجموعة النيليه الدنيا وتشمل على قبائل الدنكا Dinka والنوير Nuer ومن الملاحظ أنه على الرغم من هذا التصنيف اشتمل على مساحات شاسعة جغرافيا بحيث تشمل معظم السودان ومع ذلك فإنه لا يتضمن البارى Bari وفروعها القبلية العديدة ، وكذلك مجموعة القبائل التى تتحدث لغة اللاتوكا Latuka ، ان وسترمان يصنفهم ضمن مجموعه القبائل النيلية الحامية ـ Nilo Hamites ، كالمساى Masai والتركانا Turkana ... الخ . والقبائل الاخرى التى توجد في أجزاء كبيرة من كينيا ومناطق من أوغندا وحدود السودان والاجزاء الشمالية من تنزانيا .

أنظر :

C. G. Seligman, Races of Africa, Oxford University press, 1966, p. 111

(٭) العرب المجاورين لهم في مناطق كردفان والمناطق الإخرى المجاورة

(1) Deng, op. cite, p. 6

أخرى متفرقة تعيش فى عزلة لقرون عـديدة لديها نفس الأسم وبعيداً عن نوك كردفان ، نجد فرعا قبليا أخر يسمى نوك Mgok تعيش فى مديرية أعالى النيل والاتصال بينها محدود للغاية على الرغم من أنها تحمل نفس الاسم (١) وهذا على النقيض مما نجده مثلا في مناطق أخرى حيث الفروع القبلية لأولاد على في الصحراء الغربية المصرية والتى تحمل نفس الأسم انما ترتبط فى الواقع بشبكة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية،فالتوزيع الايكولوجى لا يعنى انعدام الروابط أو ضعف الصلات أو التغاير فى الانماط السلوكية على النحو الذى نجده لدى مجموعة قبائل الدنكا ، ويرتبط انعدام الصلات أو ضعف الروابط يتعدد لهجاتهم المحلية وأن كانت جميعها تنتمى إلي أصل لغوى واحد أو لغة مشتركة إلا أن التوزيع الايكولوجى على الرغم من ذلك يبدى نوعا من المماثلة أو التشابة فى عدد من الخصائص أو السمات المميزة للقبائل الفرعية فقبائـل النوك Ngok والتى درسها Howell فى كتابة المسمى Tho Ngok Dinka (١٩٥١) تنقسم إلى تسع فـــروع قبلية Snb — Tribes تتشابة فى الخصائص والسمات التالية :

(١) وجود اسم مشترك .

(٢) أهـــداف مشتركة تقوم على مشاعر عميقة وشعور بالولاء والانتماء والتضامن فى الدفاع عن أنفسهم والهجوم علي أعدائهم .

(٣) منطقة مشتركة للسكنى الدئمة .

(٤) منطقه مشتركه للمرعى حيث الحقوق المكفوله للصيد والقنص ، وتتضافر الجهود لحماية هذه الحقوق وقد يحاربون إذا أقتضت الضرورة .

(1) IBid. P, 6

( ) نسق مشترك لمجموعة المصطلحات والمسميات والمفاهيم Nomenclature المرتبطه بطبقات العمر Age Sets وحتى الاسماء التى يشار إليها بالنسبة لهذه الفئات تكاد تكون قاصرة على الفرع القبلى دون سواة .

ويضيف F Deng إلى هذه الخصائص أو السمات اعترافهم بزعيم قبلى يقوم بدور العمدة أو الناظر أو الوكيل كما كان الحال من قبل فى المجتمع السودانى ويرى أن قبيلة « النوك » تميل إلي المركزية اكثر من غيرها من القبائل الدنكاوية ويبرر ذلك باتصالهم المبكر بالعرب مما كان له تأثيرات واضحه على النظرية السياسية والممارسة [1] ولا يقتصر الانقسام القبلي على قبائل النوك فقبيلة « الرك » Rek تنقسم إلى ٢٧ قبيلة فرعية وجماعه « الملوال » Malwol إلى ٦ قبائل فرعية وهكذا، لكل منطقتها للاقامة الدائمة ومراعيها فى موسم الأمطار أو فترات الجفاف ، وهذه الاقسام القبلية شأنها فى ذلك شأن المجتمعات الانقسامية تنقسم إلى أقسام أخرى لها نفس الخصائص البنائية لأنها تقوم أساسا على الانحدار من أصل واحد وتتوقف درجة الانقسام دون شك على عدد أفراد القبيلة من ناحية ومن ناحيه أخرى على العوامل الإيكولوجية والتى لا يمكن اغفالها أذ أنها قد تحول دون الاتصال الاكثر عمقاً [2] . وعلى الرغم من أن الدنكا لا يسودها الشعور بالانتماء والولاء كمجموعة قبيلية كما نجد لدى قبائل « أولاد على » فى مصر أو قبائل « الجعليين » السودانية حيث لا يشعر الفرد بالاطمئنان ولا يؤكد ذاته إلا في نطاق جماعته القرابية ، فالقبيلة تحميه

---

(1) Deng, op. cite p. 7 .

(2) Linton R. : the Study of Man, p. 66

وتكفل له الحرية،أن ثمه شعور بالنوع ناتج عن المشابهه فى الخصائص الفكريه وروح الجماعه والتى تخلق عاطفة الولاء،وتلك من الأهمية بمكان فى البناء القبلى وهذا يلعب دوراً هاما فى تماسك أفراد المجتمع أذ يرتبط الأفراد أو الجماعات بالبعض الأخر ارتباطا وثيقا على الرغم من التوزيـع المكانى أو الجغرافى ، وهناك علاقات وثيقة على الرغم من أختلاف مواقعها ؛هناك أدراك لوحـــدة القبيله وفروعها وأصلها الذى تنتمى إليه ، يذهب رالف لينتون R·Linton فى كتابة « دراسه الانسان » إلى أن « القبيلة فى أبسط أشكالها جمـــاعه من الزمر bands تحتل أرضا متجاوزة لديهم الشعور بالوحدة والانتماء ناتج عن المشابهة العديده فى ثقافتهم والاتصالات الودية والمصالح المشتركة ولديهم تنظيم قبلى رسمى يتفاوت فى تفاصيلة »[1] وفى الحقيقة لانستطيع أن نطلق هذا فى عمومه على مجموعة قبائل الدنكا ، ويكفى أنهم يفتقدون الأصل المشترك أو الشعور بالانتماء، فاذا ماأراد أحدهم أن يعود إلى الماضى ويذكر مؤسس « البدنه » التى ينتمى إليها فغالبا مايختلط الأمر علية وقد لا يستطيع أن يعود إلى الوراء لاكثر من خمس أجيال،وهذا على النقيض مما نجده لدى قبائل البدو (أولاد على) فى مصر حيث نجد أن هناك اشخاصا يستطيعون الرجوع إلى الوراء وتذكر التاريخ القبلى فى الكثير من تفاصيلة،أو عند قبائل « الجعليين » فى السودان والتى يستطيع بعض أفرادها أن يذكر الاقسام القبليه الثلاثةعشر التى ينقسم إليها ونسبها إلى « جعل » وإلى « العباس » ومواقعها الجغرافية من الخرطوم حتى عطـــبره على ضفاف نهر النيل (شندى وكردفان وجنوب الأبيض ، عطبرة ... الـخ) ، أما الفروع القبلية الدنكاوية فليس لديهـا هذا

(1) Linton, op. cite, P: 516

الادراك ، فاذا أضفنا إلى ذلك اختلاف اللهجات وصعوبة الاتصال ومن ثم التباين الثقافى النسبى والذى يعكس انعدام الاحساس القوى بالوحدة القبلية أولئك الذين ينتمون إليهم وأولئك الذين لاينتمون إلا على مستوى البدنه ، وهذا ماأكده Lienhardt فى مقاله عن الدنكا الغربيين the WasternDinka فى كتاب Tribes Without Rulers ، حيث يذهب إلي أن الدنكاوى لايدرك البناء الجينولوجى Geneological Structure للعشيرة ككل ، أنه يعرف أن هناك العديد من العشائر الفرعية Sub Clans والتى انحدرت من الزوجات والابناء لمؤسس العشيره ولكنه قد لايذكر أسماءها أو مواقعها ، فمجموعه قبائل غرب الدنكا مثلا تزيد عن المائه عشيرة والتى ترجع إلي أصول طوطمية معظمها يفتقد الشعور بالارتباط أو الاصل الواحد[1] ولعل ماأشرنا إليه الآن يقدم لنا تبريرا لأولئك الذين يستشعرون بقوتهم فيعلنون أنفصالهم واتباعهم بين الحين والآخر ويتخذون لأنفسهم مقرا جديدا وأسما جديدا مغايرا لعشيرتهم التقليدية . .

وعلى الرغم من أن الدنكاويين لايعرفون التمايز الطبقي التقليدى ، وهم يعتبرون أن الناس جميعا متساوون ، إلا أن الانحدار أو القرابة تحمل فى ثناياها قدكبير من التصنيف الاجتماعى أوالتمايز الطبقى ، وهذا مرده إلي التمايز القائم بين عشائر «الخصه» أو مايسمى فى لغتهم عشائر الـ Bany وعشائر «العامة» أو مايسمونه Kic حيث الفئه الأولى تشير إلى أولئك الذين ينتمون إلى عشيرة الرئيس أو الزعيم وسلالته — مع أن هناك اشخاص أخرين يمكن أن يصبح لهم نفوذ ويكتسبوا قوة لسبب مهارتهم فى استخدام رماح الصيد — وبصفة

عامة فإنهم يعتبرون عشائر الخاصة كما لو كانوا سادة رماح الصيد كما هو الحال في قبائل النوك Ngok حيث يعرفون كزعماء للصيد أو رؤساء للرمح وهؤلاء يرتدون جلود النمر ويمارسون دورهم الديني ... أما الـ Kic فأولئك الذين لاينتمون إلي عشائر الرؤساء أى العامة ، ولكنهم قد يمارسون نفوذا سياسيا على مستوى أدنى فى التنظيم الاجتماعى ، أن التمايز الطبقي فيما يرى Deng بين قبائل الدنكالا بد من النظر إليه من خلال مجتمع المساواة Egalitarian Society إذ أن كل منهم يستطيع أن يحقق لنفسة سلطه أو تأثير من خلال القوة أو الثروة ، فمن المفروض أن يكون الدينكاوى عطوفا مضيافا كريما لدية الاحساس بالجماعة ، والزعيم أو الرئيس انما تعنى الشخص العطوف الشهم الشجاع النبيل الطاهر ، وبقدر ما يتحلى الشخص بهذه السمات انما تتحدد قدراته الكامنه التى تمكنه من تحقيق السيطره والنفوذ (١) .

وبصفة عامة تتعدد زعامات الدنكا وليس لديهم زعيم واحد - فيما يقول سلجمان - يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية ، ويحتل الزعيم الدينى على مستوى القبيلة الفرعية أهمية بالغة،فهو يمارس نوعا من السلطة الدينيةوالدنيوية معا ويطلق عليه Ban Bith أى رئيس الحربة أو الخبير فى الاسلحة أو زعيم الحربه المقدسه التي توارثها عن الاسلاف ،وهو القاضي العادل والفاصل فى الخصومات ، له الكلمة الأولى والأخيرة ، صانع المطر ، يرجعون إليه فى كل مايعن لهم من مشكلات وسلطته لاتتجاوز الحلة أو القرية التى يعيش فيها ، وإليه ترجع سلامة العشيرة أو البدنه (٢) .

(I) Deng. op cite. pp. 8 – 9 .

(2) See, Seligman' op cite, p. 142 .

ولا نستطيع أن نعرض للبناء القبلى عند الدنكا دون الاشارة الى نظام طبقات العمر والذى يعتبر فيما يقول Godfrey Lienhardt بمثابة عملية للتكاثر أو التوالد أو الانقسام القبلى عبر الزمن ، وأنها (أى نظام طبقات العمر) تمثل احدى خواص أو ملامح البناء القبلى الدنكاوى ، فانقسام القبيلة يمكن ادراكه من خلال ظهور طبقات عمرية جديدة باستمرار [١] ، هذا النظام يضع الأفراد فى دوائر أو فئات تسودها الألفة والمودة والمساواة حيث يشتركون فى قيم جماليه وحربية ، حيث يضعف دور الأسرة ويقل الصراع الطبقى مما يساعد على حفظ النسق [٢] . ويمكن النظر إليه على أنه نوع من شعائر المرور Rite de passage ، حيث أن اجتياز شعائر التكريس initiation Ceremonies يعنى الدخول فى طبقة عمرية جديدة والبلوغ مبلغ الرجال وأقدم طبقة اجتازت شعائر التكريس هذه هى أرقى الطبقات الاجتماعيه وأكثرها أهمية ، فى حين أن آخر المجموعات مرورا بهذه الشعائر تعتبر أقل طبقة فى المكانه الاجتماعية ، ومن أجتازوا شعائر التكريس لدخول الطبقة أصبحوا أحراراً ، يحق لهم المشاركة فى استعراض الثيران وفى الرقصات الجماعية والاقتراب من الفتيات ، فضلا عن أن الجماعة القرابيه تعول عليه فى الحرب والدفاع عنها .

ويصفة عامة فان المجتمع الدنكاوى يعطى أهمية بالغة للتمايز العمرى ، أن صح هذا التعبير ، حيث يعد الافراد منذ مرحلة الطفولة لإجتياز مراحل متباينه تمثل كل منها طبقة عمريه ، فمنذ سنوات الطفل الأولى يحرص الآباء والأقارب

---

(1) Lienhardt, Godfrey, Divinity and Experience the religion of The Dinka, Oxford University Press, 1967 pp. 118 - 132

(2) Deng, F., op. cite, p, 46

على استثارتهم واشراكهم فى مشاجرات مع أندادهم كأن يخبر الطفـل مثلا أن آخر قد أهانه أو أهان عائلته أو أن يقوموا باخفاء أحد الثيران التي يرعاها فى قطيع آخر استثارة للخلاف أو الشجار بينهما، حيث تستخدم فروع الأشجار أو الأيدى المجردة ، ويرى F. Deng أن مثل هذه المشاجرات تستهدف تدريب الاطفال على القتال أو المصارعة فى سن مبكرة فضلا عن أنها تعمل على تقوية روح التضامن والولاء لجماعته القرابية، ويصبح معيار القوة والشجاعة والجرأة هو المحدد للاكثر كفاءه ، فى حين أن البكاء والخضوع والسقوط على الارض أو الاستسلام بمثابة المعيار لتحديد الاقل كفاءه من الصبيه أو الاطفال .

وفى نحو الخامسة الى السابعة من العمر يمر الذكور بعملية الختان كما هو الحال لدى جماعة النوك Ngok مثلا ولا يستثنى من الختان إلا الأبله أو المعتوه أو المريض بمرض مزمن ، وتلك العملية من الاهميه بمكان فاذا لم يختن الطفل يعرض نفسه للنقد الاجتماعى والسخرية كما لو كان قد ارتكب إثما أو فعـلا ذميما من قبل رفاقه وانداده ، بل قد يرفضون حتى مجرد مشاركته اللعب أو الطعام ، ويبرر الدنكاويون أهمية الختان على أنه مرغوب فيه من النـــاحية الجمالية ولتحقيق النظافة والحيوية .

وفى مرحلة لاحقه يبدأ شكل آخر من أشكـال التكريس initiation حيث يحدثون عددا من الجروح الدامية على الجبهة (لاتترك أثرا فى العاده) ويصحب هذه العملية عددا من المناشط الاجتماعية والاحتفالات حيث يعد الصبي من الناضجين أو البالغين ، هنا يبدأ هؤلاء الصبيه فى ممـارسة بعض أنواع المشاجرات التي يستخدمون فيها الهراوات وسيقان الذره أو سيقان نبـات السرغوم Sorghum (نبات يشبه الذره) أو فروع الاشجار الحاده الطويلة ،

انهم يقلدون المنازعات القبلية ، ويعتبر F. Dang هذه العمليات بمثابة نوع من التكريس الرائف Mock initiation [1] ، فاذا ما اشتد عود الصبى واكتمل ظهور الاسنان ومعظم الضروس فيما يقول أحد الاخباريين فإنهم يخضعونه لعملية أخرى من عمليات التأهيل أو التكريس حيث تقتلع الاسنان الاربعة الامامية والتي تتوسط الفك الاسفل فاذا ما سألتهم عن مبررات أقتلاع الاسنان أرجعوا ذلك الى أسباب جماليه بحته . فالاسنان أن ظلت كما هى فإنها تملأ الفم فضلا عن انها تضغط على الشفاة السفلي الى الخارج ، وهذا من شأنه أن يجعل الفم قبيحا ، وأيا كان الامر فان أقتلاع الاسنان عاده يألفها الدنكاويون ويرون أن عدم مراعاتها يفقد الدنكاوى جلاله ومظهره سواء أكان رجلا أم أمرأه .

أما التكريس الرسمى Formal initiation فانه يتم عاده ما بين سن السادسة عشر والثامنة عشر ، ويعتبر من أهم التجارب أو الخبرات التى يصادفها الدنكاوى فى حياته ، وقبل أن يجتازها فهو لا يخرج عن عداد الصبية أو الاطفال فى نظر المجتمع يقوم بالاعمال المعتاده كحلب الابقار (٥) ويخرج بها إلى المراعى كما يقوم بمعظم النشاط المرتبط بتربية الماشية أما الذين أجتازوا شعائر التكريس فانهم لا يحلبون الابقار أو يرعونها الا فى ظروف استثنائية حيث الرعى مثلا

---

(1) Ibid, p. 42

(٥) يرى سليجمان Seligman أن قبيلة الـ Kiro من قبائل الدنكا تستخدم كلمة Mak أى « اللبن » للاشاره لطبقة العمر ، كما يستخدمون كلمة Pelrakd وتعنى حرفيا « أن يكف عن حلب اللبن » وأن ايقاف الحليب يمثل متغيرا هاما فى نوعية الممارسة أو النشاط الذى يضطلع به أولئك الذين اجتازوا شعائر التكريس .

Seligman, op. cite. p. 171.

فى مناطق يحتمل ظهور الحيوانات المتوحشة فيها ، كما أنهم لا يسمحون لأولئك الذين لم يجتازوها بالمشاركة فى استعراض الثيران أو فى الرقصات الجماعية ، ولا يسمح لهم بالرقص ومغازلة الفتيات وإذا حدث هذا فانهم معرضون للسخرية والاستهزاء ، وما ذلك إلا لأن هويته لم تتحدد بعد، أى لم يعد بعد فى عداد الرجال .

والجدير بالذكر أن لكل طبقة عمر جديدة راع أو أب وعاده ما يكون أحد الأفراد المرموقين فى البدنه ، وهو الذى يمنحها الاسم التقليدى ، ويستمد عادة من أسماء الثيران التى تستخدم فى شعائر التكريس ، أو من أسماء الطيور فى بعض الأحيان ، فقد تسمى الطبقة العمرية Kiec اشارة إلى نحل العسل أو النسر الأعظم Cour أو البقرة Anyaar أو التمساح Nyang وهكذا ، والاب الروحى هو الذى يسمح للطبقه المتطلعه للتكريس باجتياز الشعيرة ، وقد يمتنع هذا الاب عن الاذن لها فى حالة وجود وباء أو فى حالة ضعف انتاجيه الأرض ، أو وجود فيضان أو فى حالة عدم توفر الاسماك فى البحار أو الخيران أو المستنقعات حيث يعتبر السمك الغذاء الرئيسي للشباب خلال ممارستهم لشعائر التكريس وعادة ما يحرم عليهم اللبن ومنتجاته .

وتستلزم عملية التكريس أحداث من سبعه إلى عشرة جروح عميقة بانتظام فى الجبهه تمتد من الاذن اليمنى الى اليسرى ويجب على الفتى أن يتحمل الألم فى صمت دون اظهار ذلك لأن هذا يسبب المتعه والبهجة لاقاربه وذويه وأصدقائه من الجنسين ، وعادة ما يجتمع هؤلاء الفتية فى قرية أو «حلة» خاصه بهم لعدة شهور حتى يتماثلوا للشفاء ، وهم من وجهة النظر الشعائرية غير متطهرين ، ومن ثم يجب عليهم الامتناع عن الاقتراب من الابقار ، وعن شرب اللبن أو منتجاته

كما سبق أن أسلفنا ، ويعتمدون على العصيده واللحم والسمك ، وقد يرتدون في هذه الفتره أقنعه أو غطاء للرأس من ورق النخيل ، وملابس مزخرفة ، يزهون بها في كبرياء حيث يتبارون ويتنافسون في حلبات الرقص وقد يتشاجرون ، وتحرص الجماعة على استبعاد الهراوات وأن كانوا يستخدمون أعواد الذره أو السياط ، فإذا ما تم التكريس يطلق عليهم « Lung » ومعناها الحرفي فيما يقول Deng الحر الطليق وبينما يستشعرون الامهم يهاجمهم بعض الافراد من طبقة العمر السابقة في فجر أحد الايام ويضربونهم بفروع الشجر في محاولة لتضييق الخناق عليهم والقذف بهم في البحر ، فاذا ماخرجوا من المياه فإنهم يصبحوا متطهرين من وجهة النظر الشعائرية حيث يزينون سواعدهم ورقابهم وجباههم بالخرز الملون والاصداف .

ولا يمضى وقت طويل حتى تدخل طبقة العمر الجديده في المشاجرات مع طبقات السن الاعلى تعرف باسم Biok ، وقد يستخدمون الهراوات ويحمون رءوسهم بما يشبه الخوذات ... ويعتبر بمثابة طريقة عمليه للتدريب على القتال حتى يتولوا دورهم كمحاربين ، كما انها نوع من التعبير عن التنافس بين الاجيال ، وقد تتردد الاغانى التى تقلل من شأن الجماعة الاخرى وتثير روح المنافسه والاقتتال ، ولا يقتصر التنافس والصراع على ما سبق الاشاره إليه الآن ، بل أن هذا العنف قد يوجه إلي المارقين عن الجماعة أولئك الذين يرتكبون الآثام ، كما في حالة السرقات إذ أن هذا الخطأ يستدعى عقابا رادعا من طبقة العمر أو كما هو الحال فى أغتصاب فتاه أو اعتداء على أمرأه ، أو رفض المشاركة في العمل الجمعي والدفاع عن البدنه ... في مثل هذه الحالات فإن طبقة العمر التى ينتمى إليها تمسك بالثور الشخصى للمعتدى أو المارق وتسفك دماءه بالرماح وبطريقة عنيفة رمزا لاتجاه طبقة العمر وتعبيرا عن سخطها تجاه

صاحبها .. والجدير بالذكر أن النساء تشارك الرجال جنبا الي جنب في كل هذه الشعائر حتى فى الحروب فانهم يتتبعونهم لمساعده المصابين، وجمع الرماح وتزويدهم بالطعام .

* * *

من خلال هذا البناء القبلى Tribal Structure يمكننا أن ندرك نوعا مميزا من العائلة التقليدية يقوم أساسا على تعدد الزوجات Polygynous Families ، والتى تتكون من الزوج وعدد من الزوجات وأبنائهم ، ولاشك أن معالجة العائلة الدنكاوية من خلال الماده المتاحة سواء تلك التى عرض لها الباحثون فى كتاباتهم ، أو تلك التى استطعت الحصول عليها من بعض الاخباريين Informants يمكن أن يلقى الضوء على هذا النمط من الاسرهالقائمة على تعدد الزوجات ودور الجماعة القرابية فى تحقيق التوازن بين الفرد والجماعة ، هذا فضلا عن أن معالجة بعض الموضوعات وثيقة الصلة بالعلاقات بين الجنسين ومراحل الزواج من اختيار الشريك والمهر ونمط الاقامةوالقيود والتحريمات والعلاقات الاسرية ومصطلحات القرابة .. الخ يمكن أن توضح لنا الي أى حد يختلف النظام الاسرى عند مجموعةقبائل الدنكا وماهى الاختلافات الاساسية أو أوجه التشابه بينه وبين النظم التقليدية الاخرى .

وإذا كنا قد أشرنا منذ قليل إلى أن هذه القبائل تفتقد الشعور بالانتماء أو الاصل الواحد فانه يمكن القول أن الجماعة القرابية Kinship group تلعب دورا هاما فى حياة الفرد فهى التى تحميه وتمنحه الأمن

وتقف إلى جانبه أمام الغرباء . هنا وعلى هذا المستوى يمكن أن نجد اطاراً من العلاقات الاجتماعيه ، ربما يبدو فى أوضح صورة فى الزواج والذى يمكن أن يشير إلى علاقه خاصه بين طرفين ، كما نجد فى مجتمعنا الحديث حيث تواجد الاطراف الاخرى أو تداخلها انما هو بمثابة إضفاء لشرعيه هـذه العلاقه أو تأمينها،ولكن فى المجتمع الدنكاوى لايعتبر الزواج أمرا خاصا بطرفى العلاقه وانما أسرتيهما بل والجماعة القرابية بأسرها ،على الرغم من أن هناك حرية كاملة للفتى أو الفتاة لاختيار الشريك Tinj denya فكلاهما لديه فرصا اجتماعية كثيرة للمقابلة والتعارف والمشاركه فى الرقص واحتفالات الاعياد وحفلات الزواج ، يذهب F.Deng إلى القول بأنه من المقبول تماما أن يحاول الرجال تعقب الفتيات فى الطريق والسير إلى جانبهن بدافع المغازلة , وقد تطالب الفتاه بأن تختار أحد الشبان زوجا لهامن خلال عمليات الملاحظه والمغازلة والمشاركه فى الرقص والمناسبات الاجتماعية ، واختيار الشريك عاده مايدعم العلاقه التى قد تنتهي بالزواج ، وفى عمليه المغازلة Courtship قد تدعو الفتاة الشبان من صغار السن كنوع من الضيافة،بل ودعوتهم لمشاركتها الاقامة فى الكوخ دون استنكار Reprobation وطالما هناك توقع لحدوث نقض أو انقطاع للعلاقة الودية بين الفتى والفتاه فان هناك بعض القيود الجنسية التي يجب أن تؤخذ فى الاعتبار،فاذا تورطت الفتاه فى علاقه غير مشروعة أوحملت فانها تعوض بالماشية هذا من ناحيه ومن ناحيه أخرى فان قيمتها الزواجية تنحط إلى حد كبير ، وعادة ماتقدم إلى شخص ما لانخفاض مهرهـا حتى عن قيمته الأسمية [١] nominal bridewealth وقـــد لاحظ O'Sullivan فى مقال له بعنوان

---

(1) Deug, F., op. cite. P. 20 .

Dinka Law وفى معرض حديثه عن العرف السائد « ليس هناك فتاه مضطره أن تتزوج شخصا ما إلا إذا كانت هى تريده ومستعده لذلك ، أن الخـوف من تهديد الأسرة أو الضرب قد يستخدم حتى توافق ولكن الاجبار يعارض قانونهم العرفى ، وكقاعده يمكن القول أن هناك حرية فى اختيار الشريك شأنهم فى ذلك شأن الكثير من الجماعات القبليه المجاورة مثل الشولك(*)Shilluk إلا أن هذا لايحول دون أهمية موافقه الأب أو من يحـل محله من الاعمام أو الاقارب أولئك الذين يناط بهم اتخاذ الإجراءات أو الاشراف على المناشط الجماعيه المرتبطة بالزواج كمفاوضات المهر وتقديرة وجمعه أوتوزيعة والتفاوض بشأن ذلك مع الجماعة القرابية،هذا فضلا عن الاشراف على الشعائر والطقوس المرتبطه به ، والفتاه يمكنها أن ترفض ذلك الذى ارتضاه ذووها وترفض الاذعان لرغبتهم وأن تعلن تبرمها صراحه،وقد تهرب مع من ارتضته ورفضته جماعتها القرابية أو تتورط معه فى علاقة غير مشروعة ، إلا أن هذا فى حالة حدوثه يضعف من مكانتها الاجتماعية ويؤدى إلي نتائـج اجتماعية وشرعية حادة [1] , وفى معظم الحـالات فان الآباء والأقارب يـوافقون على اختيار

(*) عندما يستعد الشاب للزواج يتزين وينظف ، الـــلاو » إزار يربط ويثبت فى أحد الكتفين » ويصقل سلاحه ويذهب ليراقص الفتاه التى تعجبه ويفاتحها فى الأمر فإن قبلت به بعد مباهاته لها بما يملك من أبقار فإنه يبلغ أمه التى تسعى للتعرف على مدى صلاحيه الفتاه كزوجة فإن اقتنعت اخبرت والدها بموافقتها ...(يوسف أبو قرون ـ قبائل السودان الكبرى،المطبعة الحكومية بالخرطوم ص ١٢٧) .

(I) IBid, P. 2I .

أبنائهم ، هذا الاختيار يتم من خلال المناسبات التي يلتقى فيها الفتية والفتيات وماا كثرها لدى جماعات الدنكا من احتفالات اجتماعية،والمشاركه فى الرقص خلال شعائر وطقوس الزواج أو مناسبات الاعياد، واحتفالات الرقص هذه سمة مميزه للقبائل السودانية فى عمومها سواء فى شمال السودان أو جنوبه،،لا وتستهدف جميعها أساسا تقديم الفرصة المواتية للاختيار (*) . وأيا كان الامر

(*) كما هو الحال فى رقصات « البرقو » « والرقبه » و « الكاسول » وفى تلك الاخـــيرة تحتشد الفتيات والنساء خاصه صغيرات السن وأيا كانت أوضاعهن الاجتماعية في حلبة الرقص وقد ارتدين ازهى الثياب وأجملها حيث تبرز إحدى الفتيات ويتقدم نحوها خمسة أو ستة من الشبان وتبدأ الفتاه الرقص فى قفزات عالية (الوثب إلى أعلى والتقدم إلي نهاية الحلبه) حيث يحيط بها الشبان بدورهم ويحـاول كل منهم التحدث إليها ويغازلها والاشادة بجمالها وفتنتها . وهم يصفقون بأيديهم وتحاول الهرب إلى حيث احتشدت الفتيات والنساء في نهاية الحلبة ،وتكرر هذه المحاولة عدة مرات ،ثم تتولى فتاه أخرى الرقص بالتناول وهكذا ، وأيا كان الأمر فان رقصة الكاسوك هذه تؤدى عددا من الوظائف لعل أهمها :

(١) التسلية وقضاء وقت من المرح والصخب فى أيام الأعياد .

(٢) اعطاء الفرصة لنوع من المغازلة المشروعة وحيث تبرز الفتاه جمالها وفتنتها وحتى يراها شباب الحلة الراغبين فى الزواج .

وتستعد الأسرة لهذه المناسبةحيث يشترى الآباء لبناتهم أفخر الثياب والحلي فإذا ماخطبت فإن خطيبها يقوم بشراء الملابس والحلي وتقديمها على سبيل =

فإن الجماعة القرابية تحرص على زواج الفتى فى سن مبكره وتتعاون جميعها فى مساعدته على دفع المهر خاصة فى الزواج لأول مرة ، فاذا ما استقر الفتى على اختيار فتاة معينة فانه يسرع إلى أصدقائه من طبقة العمر التى ينتمى إليهـا ، وفى نفس الوقت ينقل رغبته هده الي زوبة ، ويحاول أصدقاء الفتى من ناحية والمهتمين بأمره من ناحية أخرى من أقربائه العاصبين رؤبة الفتـاة ، مظهـرها الفزيقى ، سلوكها أو الوضع الاجتماعى لعائلتها،فاذا ماوافقوا تبدأ المفاوضات مع أقاربها الذين يبدون فى العادة ترددأ وليس رفضا منذ البـــداية إلا إذا رفضت الفتاة ، وموقف الفتاة يمكن التعرف عليه بسهولة إذ أن أصدقاءه من طبقة العمر حين ينتقلون الى مسكن الفتاة يطلبون منها فى العادة أن تحضر لهم بعض الطباق من أبيها وان أجابتهم الي طلبهم فهذا يعنى أنها توافق على الزواج، وعادة ما ترتبط هذه المحاوله بابداء نوع من التردد من جانب الفتاة ، ومتى أبدت الفتاة موافقتها فان المفاوضات Negotiations على المهر مع أقاربها تأخذ طريقها ، هنا يرسل أقارب الزوج ماشية الخطـوبة Omec بهذه المنـاسبة ، ثم

= الهدية . وتعتبر هذه الرقصة من أعنف الرقصات الثلاث التى أشرت إليها فى مقدمة الحديث وقد تؤدى الى اثارة روح المنافسة بين الشبان على فتاة معينة فيزداد مهرهـــا ويذاع صيتهـــا ، وفى اعتقادى أن الفتاة انما تستعرض قوتها وحيوتتها وقد يسقط وشاحها ـ وغالبـا ما يحـدث ـ الذى ترتديه فتبدو فتنتها وثيابها وحليها ، وغالبا ما تتم هذه الرقصات وهى حافية القدمين، وقد تعترض الفتاة على أحد الشبان وتصر على عدم ممارستها للرقص وتشترط مغادرته للحلبة . وغالبا ما يرتبط رفضها هذا بمواقف سابقة لهذا الشاب مع هذه الفتاة .

يحاول الطرفان مناقشة كمية المهر أو مقداره الذى ستدفعه الجماعة القرابية للزوج ، وغالبا ما تثار هذه المناقشات فى ذرائب الماشية ، يذهب Godfrey Lienhardt الى « القول بأن الرجل فى أى مكان من أراضى الدنكا يمكنه تقدير العدد المناسب من الماشية والذى يمكن تقديمه كمهر لفتاة، أو ذلك الذى يقدم على سبيل التعويض فى حالة القتل homicide ، أو فى حالة الزنا adultery وأن أكبر التعويضات هى التى تقدم فى حالتى الزواج والقتل حيث تشتمل الماشية على الأبقار والعجول والثيران وتلك الأخيرة لا يتخلون عنها ، إذ تلعب دورا هاما فى تكاثر القطيع ويسترسل Lienhardt فى شرح مبدأ التعويض هذا فيقول : أن الماشية تسلم في هاتين الحالتين عوضا عن القتيل أو تعويضا لأسرة الفتاة وانها سوف تتضاعف لأولئك الذين فقدوا أحدأفرادهم، فالماشيه التى تسلم لأبنة ما في زواج سوف تستثمر للحصول على زوجة لأخيها والماشيه التى تقدم على سبيل التعويض فى حالة القتل يمكن تقديمها مهرا لأمرأة تحمل بدورها أعضاء جدد لبدنة المقتول، وهكذا تسترد ماسبق أن فقدته[1].

فإذا تم الاتفاق على المهر ، ودفع سواء جزئيا أو كليا حيث يمكن الوفاء ببقية المهر بعد الزفاف ، فان اجراءات الزواج وهى بسيطة للغاية سرعان ما تكتمل ، إذ جرى العرف أن تنتقل الفتاة الى منزل الزوج بعد دفع المهر أو بعد فترة من الوقت ، كما يقضى العرف القبلى أيضا بأن تدفع الجماعة القرابية للفتاة ببعض الأبقار،أى أنهم يردون على الزوج وأسرته بعض ما دفعه وتختلف كمية مايدفع لاسرة الزوج فتذهب بعض الآراء الى أن مقدارها ⅓ المهر

---

(1) Lienbardt, Godfrey, Divinity and Experience, the Religion of the Dinka, Oxford University Press, 1967, pp. 25 - 26,

الذى دفعه الزوج [1] . فى حين تذهب آراء أخرى إلى أن هـــذا المقدار لا يتجاوز عشر المهر ويسمون هذا الدفع عادة Araeth ، وعادة لا يتم هذا من جانب أسرة الفتاه إلا بعد تسلمها المهر كامـلا أو بعد عام من الزواج ، حيث تستقر الاوضاع وتدرك الجماعة القرابية أن الحياة الزوجية تسير على مايرام ، وبصفة عامة فإن الاتفاق على المهر يتم فى سهولة ويسر ، اذ أن العرف القبلى يعول إلي حـد كبير على الجماعة القرابية وعلى أهمية دورها سواء فى اختيار العروس أو دفع المهر بصفة خاصة ، وإذا كان دفع المهر ليس واجبا أو الزاما للاب فحسب وانما هو بالدرجة الأولى الزام للجماعة القرابية فان توزيع المهر ليس حقا قاصرا على الوالدين،وانما للآخرين الذين ينتمون إلى الجماعةالقرابية وهذا ييسر عملية تدبير المهر من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان هذا العرف يقضى بعدم المغالاة فى المهور (٥) فمن الشين أن يظل الفتى دون زواج بسبب الافتقار إلي الماشيه،وفى حالة حدوث ذلك فان هذا أمر يشين ويسيء إلي الجماعة القرابية أو إلي البدنات الفرعية Sub Lineages ، وأن كان المهر المرتفع يعزز مكانة الفتاه سواء فى أسرتها أو على مستوى البدنه التى تنتمي إليها وقـد ترفض الفتاه في هذه المرحلة ذلك الذى أرتضته منذ البداية إذا لم يقدم لهـا ماتستحق من المهر ، وعلى هذا نجد أن دعم الجماعة القرابية للفرد ومساعدتها له فى دفع المهر ماهو إلا مظهر من مظاهر التضامن العائلى والولاء للبدنه أو الجماعة القرابية ، ومن الشائع لديهم ـ فيما يقول بعض الاخباريين ـ أن المهر

---

(1) Deng op. cite, p, 20 .

(٥) المغالاه فى المهور قد تدفع الشاب الدنكاوى عادة إلي الارتباط بنساء من الجماعات القبلية المجاورة كالشولك مثلا .

الذى تدفعه الجماعة القرابية له قيمة اجتماعية عالية عن ذلك الذى تدفعه الأسرة بمفردها ، ومن ثم فان الشاب يتوقـــع دائما مساعدة أقاربة على الفور بمجرد شروعه في الزواج خاصة من زواجه الأول .

سبق أن ذكرنا أنه بعد دفـع المهر تنتقل الفتاه إلى القطية المخصصة لها تصحبها رفيقات العمر وبعض العجائز من النساء من ذوات الخبرة وحيث الفرصة المتاحه للاحتفال والغناء والرقص ، يحتسون الخمور وتذبح الماشية ويقدم الطعام فى كميات وفيرة الحاضرين ، يذهب Seligman أنه بين دنكا Niel ، وبعد دفـــع المهر يقوم والد العروس بنحر بقرة وحيث تقام الاحتفالات والرقص الجماعي ، وفي المساء تصحب الفتيات العروس إلى منزل الزوجية حيث ينحر العريس بدوره بقرة أخرى ويدهن صدر العروس واكـتافها بمحتويات المعدة : أما لدى قبائل Cic فانه بعد الاتفاق على المهر تقام الرقصات والاغانى الجماعية فى قرية العروس ، وينحر والدها بقره ثم ترتدى العروس ثوبا جديدامن الجلد وتأخذ مكانها في حلبه الرقص،أماالعريس فهو لايشاركها ذلك وانما يغادر المكان إلى حيث منزل الزوجيه وغالبا مايكون في قريته ، وقد يبدى بعض التردد أو يقـاوم فكرة الذهاب إلى هناك ، ومنزل الزوجية هذا انما يعد بواسطه العائلتين وخاصه أمالفتاه وأم الفتى ، إذ تقوم أم الزوجه باحضار العشب لاعداد سقف البيث ،فى حين تقوم أم الزوج باحضار الخشب والطمى ، ويشتركان معا فى بناء القطية لاستقبال الزوجـــين (*) ومتى تم

(*) انظر فى هذا Francis M.Deng ص ١٩ و ٢٣ ومابعدها .

وانظر أيضا Seligman ص ١٥٩ ومابعدها .

=

الزواج فان ثمة مجموعة محكمة من العلاقات والحقوق المعيشية والتحريم محاطة بمشاعر نفسية مثل الحب والاحترام وتبادل المشاعر، كتلك التى تبديها الزوجه تجاه زوجها وأبنائه خاصه أولئك الذين ينتمون إلى زوجاته الاخريات، بل ينبغى عليها أن تبدى هذ المشاعر تجاه الزوجات الاكبر سنا. وأيا كان الأمر فإن مركز المرأة لايلبث أن يتدعم بمجرد الانجاب، بل أن مجرد الحمل (٥) يؤدى إلى الاطمئنان على حياتها الزوجية إذ أن عقم الزوجه يعتبر من أهم العوامل التى قد تؤدى إلى الطلاق وانفصام عرى الحياه الزوجية ويؤكد لى أحد الاخباريين بأنهم لايعرفون الطلاق بالمعنى التقليدى وأن الانفصال أو هجر الرجل لزوجته هو العرف السائد، وحيث يوجد الاطفال فإن الطلاق أمر غير مسموح به إلا فى حالات نادرة كأن تهرب الزوجه مع رجل آخر، ومن الناحية العمليه فإنه أمر متعزر للغايه ولايفكرون فيه، فإذا ماحدث الطلاق نزولا على رغبة الزوجه ـ كما يقولون ـ فإن للزوج الحق فى طلب المهر الذى دفعه وتتعاون الجماعة القرابية على تقديم الأبقار وردها اليه وكما سبق أن أسلفنا فان هذه الابقار ليست ملكا لوالد العروس، وإنما يتم توزيعها على الاقارب وقد تستخدم فى اتمام زيجات أخرى فثمة دورة للابقار حيث تنتقل

= وانظر ايضا Godfrey Lienhardt ص ١٩، ٢٦ ومابعدها.

وانظر ايضا John Middleton ص ١٢؟ .

(*) حيث تمتنع المرأة فى العادة فى اثناء فترة الحمل عن صنوف معينه من الطعام كلحم الميته ـــ مع أنه ليس محرما فى المجتمع الدنكاوى ـــ ولحم أنواع معينة من السحالي . . . ويعتقدون أن اكلها يمكن أن يودى بحياة الطفل .

من بيت لآخر ، ويتعدد انتقالها بعدد الزيجات التي تحدث في هذة الفترة ، ومن ثم فإن اعادتها من الناحية العملية أمر صعب إذ يترتب عليه طلاق هذه الزيجات حتى يمكن ردها لاصحابها ، وفي أحيان أخرى يتحتم على الزوج الراغب في الانفصال أن ينتظر حتى تتزوج المرأة ، وفي هذه الحالة فإن الزوج الجديد يعوضه عن بعض المهر الذي دفعه ، وفي جميع الحالات إذا كان لدى المرأة طفلا، فإن المطلق يترك لزوجته قدراً من المهر عدد من الابقار مقابل تربية الأبن، وعاده مايزاد نسبه مايتركه إذا كانت أنثى لأن البنت عند الدنكا تجلب الابقار عند زواجها (١) .

وأيا كان الامر فان وجود الاطفال غالبا ما يحول دون الانفصال لان المرأة الولود لها قيمة اجتماعية كبيرة . وهذا يؤدي الي استقرارها ، وفي حالة عدم الانجاب فمن الشائع أن يستدعى الزوج أبناء عشيرته ويطلب إليهم الصلاه والدعاء لروح Dingdit ، ويقومون بذبح شاه حول المرأة العقيم بعد أن يعطيهم حارس ضريح Dingdit الأمر ، وتقدم الشاه قربانا من أجل ذلك ... فإذا ما انجبت المرأة الطفل الاول والذى يأخذ مكانه في العادة في كوخ جدته لامه يأتى الاب ليرى ابنه ، هنا تتغير معاملة الحماه لزوج ابنتها ويطرأ الكثير من التغير على هذه العلاقة ، إذ سرعان ما تقوم الحماة بنحر شاه وتعد شراب البيرة ، وتقدم لزوج ابنتها من هذا الطعام ، ويذهب سليجمان Seligman إلى أنها تضع قطعة من اللحم في فمه ، ومن ثم تأخذ علاقه التحاشى السائدة بينهما مظهر آخر منذ ذلك الوقت بعد أن كان زوج الابنة يتجنب حماته ويحرص على ألا يلقاها وجها لوجه والا يتناول الطعام في بيتها باستثناء اللبن والماء —

---

(١) يوسف أبو قرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

وإذا ما صادفها في الطريق العام اشاح ببصره عنها وقد يغير اتجاهه في المسير حتى لا يلقاها . وقد تغطى المرأة رأسها بردائها أو بقطعة من الجلد لمجرد رؤيتها لزوج أبنتها فاذا اضطرت الى الحديث معه فانها تتحدث إليه من وراء حجاب ، كما يخاطبها باحترام كبير[1] . وعلاقة التحاشى ظاهرة مميزة لكثير من المجتمعات القبلية في السودان فلدى بعض قبائل Ingassanna فان الزوج يعد لنفسه بيتا ملاصقا لبيت حماه ، ويدخل من فتحة خاصة الى بيت الزوجة، ويظل الحال كذلك حتى مولد الطفل الاول ، هنا فان حماه « والد الزوجة » سرعان مايغلق هذه الفتحه ويطلب من زوج ابنته أن يستخدم مدخل البيت الرئيسي .

وتسمية الطفل لاتبدأ فور ولادته ، وعادة ماتتم بعد سنة أو سبعة أشهر عندما يبدأ في الحبو ويبررون ذلك بأن الطفل لايفهم شيئا ولن يدرك أسمه منذ ولادته، ويتم تسمية الطفل بواسطة كبار السن، فإذا كان لدى الوالدين ـ وهذا غالبا مايحدث بعض الاقتراحات للتسمية فإنهما يقترحان أسماء معينه وسوف يوافق عليها كبار السن، وأسماء الأفراد مستمدة اما من الاسلاف أو الاجداد وقد يطلقون عليهم اسماء تشير إلى أحداث ووقائع معينة كتلك التى تشير إلى ظروف مناخية قاسية أو إلى صفات شخصيه أو بأسماء الحيوانات التى تسود في أرض الدنكا وخاصة الابقار وغالبا ماترتبط اسماء الابقار هذه ببعض السمات أو الخصائص المميزة لهـا ، وقد يسمون أطفالهم بأسماء الطوطم الذى تنتمى إليه القبيلة أو تتخذه شعاراً

---

(1) Séligman, op cite p. 166,

لها ،والجدير بالذكر أن التسمية المبكرة تتم بواسطة الاخرين أما التسمية اللاحقة والتي تتم مع شعائر التكريس والانتماء إلى طبقة العمر للبالغين كما سبق أن أسلفنا انما تتم بواسطة الاشخاص أنفسهم إذ يسمى كل منهم باسم ثوره المحبب ، ولقد أورد لنا أحد الباحثين العديد من هذه الاسماء مثال ذلك أن طفلا ذكر أسمه Alwot وتعنى هذه فى اللغة الدنكاوية « مطير وبارد » ، وذلك لأن الطفل قد ولد في فترة شديدة البرد غزيرة الامطار ، وأن فتاه سميت Abvwaj وتعنى « قوة » لأن أمها زعمت أن أباها كان مسنا لدرجة أنه لايستطيع الانجاب ، فى حين أن اسم Biar أطلق على طفل كانت أمه غليظة القلب فاقترح الزوج تسمية الطفل باسم (الثعبان) وهو يرى أن زوجته شبيهه به (*) ، وأن هناك فتاه أخرى سميت Alat وهى تعنى فى لغتهم أهانه والتسمية مردها إلى أن أبيها أهين من قبل خالها لعدم قدرته على سداد بقية المهر وأنه اضطر إلى الاستدانه ليفى ببقية الدين ، فى حين أن فتاه أخرى سميت Adhiatu وتعنى البكاء أشارة إلى موت أختها وحالة الحزن التي تسود حياتهم . . وهكذا [١] ...

وطبيعى أن تعدد الزوجات المعروف لدى مجموعة قبائل الدنكا يفرض نوعا من التقارب الوثيق بين الطفل وأمه حيث يمكن القول أن هذه العلاقة أقوى

(*) والجدير بالذكر أن المجتمع الدنكاوى ينظر إلى المرأة كخصم أو معول هدم للحياة الاسرية وكمحطمة للروابط القرابية أو وحدة الاسرة وترابطها وقد انعكس هذا فى أساطيرهم وتراثهم الشعبي .

Deng, op. cite. P. 24 .

(1) IBid, p. 166 .

من تلك التي تربطه بأبيه ، فالأم ترضع طفلها وتحتضنه نحو ثلاث سنوات كاملة وحيث تحرم العلاقات الجنسية ، وهذا يجعل الزوج بعيدا عنها ويعمق علاقتها بأطفالها، وإن ظل الاب على الرغم من ذلك كرمز لتضامن الاسرة ، ويمكن الأولى في القول أن ظاهرة تعدد الزوجات هذه مردها إلى عدد من العوامل المتداخلة والتي توارثها الابناء عن الأجداد تتمثل في العوامل الاقتصاديه والعقائديه وتبد الدور الاقتصادى الذى تضطلع به النساء والابناء فضلا عن العزة والعصبية القبلية على نحو ماتجده في الجماعات القبلية أيا كانت ، والاعتقاد بأن القدره على الانجاب وكثره التناسل يرتبط ارتباطا وثيقا بسعة الرزق والخير الوفير ، فضلا عن عوامل أخرى كعقم الزوجه أو مرضها أو وفاتها أو أسباب عاطفيه .

وتعتبر العائله الدنكاوية بمثابة مركز الحياة اليومية من خلالها يتم تلقين الابناء بشتى ألوان السلوك والخبرات ، في نطاقها يتعلم الاطفال الكثير عن أنسابهم وعن آلهتهم وشعار البدنة والانماط السلوكية الرعوية .. أنهم يتعلمون من خلال الاغانى والقصص الشعبية والاساطير التى تحدثهم عن الاسلاف ... ممارستهم لالعابهم التقليدية تقدم لهم الكثير عن الحرب أو الرقص أو الغناء أو أو التكريس أو نظام طبقات العمر أو المقاضاه أو حياه البقر .. الخ .

* * *

لاشك أن النشاط البشرى يرتبط إلى حد كبير بالمصادر الطبيعية والمعرفه التكنولوجية فضلاً عن الأهداف والقيم والعادات والتقاليد والعرف السائد الذي يلعب دوراً هاما فى توجيه النشاط ، وأقتصاد الدنكا يقوم أساساً على الرعى ، ورعى الابقار بصفة خاصةحيث الغطاء النباتى الكثيف وحيث تسود الانماط والقيم السلوكية الرعوية ، وسوف نحـــاول فيما يلي أن نعرض لهذا الاقتصاد محـاولين ابراز أهمية الابقار والتى تمتد لتشمل جوانب متعدده فى حياتهم الاجتماعيه والاقتصادية والدينية والسياسية ، كما أنها تلعب دوراً هاما فى التماسك والضبط الاجتماعى ، بل ويمكن القـول أنها محــور حياتهم اليومية من خلالها تتم ضروب النشاط المختلفة التى ترتبـط ارتباطاً وثيقا باسلافهم وآلهتهم وأساطـيرهم وممـارستهم وشعائر تكريسهم وأغانيهم وزيجاتهم ... الخ .

وإذا نظرنا إلى أقتصاديات الدنكا وجدنا أن المصادر الكبرى للانتاج لاتخرج عن الارض سواء من أجل الغطاء النباتى أو الاعشاب البرية والجذور الدرنية أو الزراعة البسيطة إذا ماقورنت بالرعى من حيث أنتاجيتها أو من حيث أقبال الدنكاوى عليها ، وترجع أهمية الارض بالدرجة الاولي إلى توفر مساحات شاسعة من الاعشاب من أجل مرعى الابقار . ومن ثم اصبح الرعى المهنه الاولى التى لاتنازع حيث يخرج الشبان بصفة خاصة إلى المراعى البعيدة بحثاً عن الغطاء النباتى خاصة فى موسم الجفاف أو فى الفتره من نوفمبر إلى مايو أى فصلى الشتاء Rut أوالخريف Mai وتقام المعسكرات حيث تتوفر الاعشاب والمياة ، والجدير بالذكر أن لكل قبيلة مناطقها الخاصة ومـوارد المياة التى

تردها فى موسم الجفاف على ضفاف الانهار والبحيرات ، هنا نجد مظاهر العمل الجمعى والتعاون فى أوضح صورة،وجميع المناشط في هذه المعسكرات تستهدف حماية الماشية ورعايتها أو الحفاظ عليها ، وغالبا مايقوم الشبان والصبيه أو الفتيات بالمشاركة فى هذا العمل ، حيث تسود روح المرح والدعابة ، وحيث الرقص والغناء وتبدو مظاهر العمل الجمعى فى تقسيم العمل فى المعسكر حيث يقوم الصبيه بجمع الاخشاب واعداد ضفائر الاعشاب (بمساعده الفتيات) لاعداد القطاجى أو اللوك ، حظائر الماشية ، ـ بينما يقوم أخرون بالبحث عن الاسماك فى مجارى المياة،وعاده مايقوم صغار السن بتنظيف الحظائر منذ الصباح الباكر من الروث وينشرونه حتى يجف حتي يمكنهم استخدامه ليلا واحراقه فيتصاعد الدخان الذى يطرد الناموس ويحول دون ازعاجه للابقار هذا من ناحيه ومن ناحية أخرى فإنهم يستخدمونه كنوع من الوقود أو كسماد فى بعض العمليات الزراعية ، هذا بالاضافة إلي استخدامهم للرماد المتبقى من عمليه الحرق هذه فى دهن اجسامهم قبل النوم فى حظائر الماشية حماية لانفسهم من خطر الناموس(٥) وقد يساعد هؤلاء الصبية أمهاتهم في حلب الابقار وتتولى النساء فى العاده صناعة منتجات الالبان ، أما كبار السن فإنهم يمكثون فى قراهم الاصليه حتى يتم الحصاد ، وقد يشارك البعض منهم فى أعمال هذه المعسكرات حيث يشعلون النيران ليلا ويثبتون الابقار فى مرابطها وأوتادها .

والجدير بالذكر أن لكل معسكر من هذه المعسكرات قائد beng du wut

(٥) كما يستخدمون هذا الرماد فى تنظيف الاسنان .

يتولى الأمر بالتحرك من وإلى المعسكر أو إلي المراعى القريبة أو البعيدة أو الي مصادر المياه أو المناطق المرتفعة نسبيا ... الخ .

ولاشك أن رعاية هذه الأبقار سواء فى القرى أو المعسكرات مهنة لها أسلوبها وتحتاج إلى مهارات خاصة، كأختيار المرعى المناسب البعيد عن الفيضانات أو فى المناطق المرتفعه نسبيا ، كيفية حمايتها سواء من الحيوانات المفترسة أو من الناموس أو الحشرات أو السرقات ، وقد تساعدهم الاجراس الكبيرة المثبتة فى أعناقها فى أطر من الحديد ، وكذلك الأوتاد التى تربط إليها ليلا ، فضلا عن مشاركتهم الذرائب ليلا علي تحقيق هذا الهدف ، وحماية الصغار وعدم أرهاقها فى المسير ، وتوليدها وعلاجها من الأمراض ... ويعطى الدنكاوى أهمية خاصة لتزيين أبقاره « بشرابات » تثبت على قرونها ، وتسير القطعان إلى المرعى فى تجمعات حيث يختلط رنين أجراسها بخوارها بدبيب حوافرها بصيحات أصحابها ... وهم فى حلهم وترحالهم ينشدون ويغنون(*) وملكية الأبقار ملكية جماعية تعاونية وهى العمود الفقرى لأقتصاديات الأسره (يأكلون لحومها إذا ماتت ويستخدمون جلودها كفراش أو كلباس وقرونها فى صناعه أدوات النفخ أو كملاعق وروثها كسماد أو كوقود لاشعال النار...

(*) تلعب الاغنية دوراً هاما فى المجتمع الدنكاوى وبصفه عامة فإنهم يعطون قدر كبير من اهتماماتهم للغناء للابقار ، وعادة ما تدور هذه الأغنيات حول شكل قرونها أو تعقيداتها اللونية أو قدرتها على الاحتمال أو طريقتها فى المسير أو خوارها ، انسجام صوت أجراسها أو طاعتها وعدوانيتها ... الخ .

Deng, op. cite, p, 99

فضلاً عن قيمتها التبادلية في المهور (*) بالإضافه إلى التعويض فى الجزاءات العرفية وتقديمها كقرابين ... الخ) حيث الكلمه الأولى لرب الأسرة في أن يتصرف كما يشاء فى هذه الماشية أو الأبقار ولاشك أن للاخرين حقوق فيها خاصة الابناء لتفي بمهورهم ، وفى الحقيقة لانستطيع أن نتحدث عن ملكيه الأبقار دون أن نأخذ فى الاعتبار نسيج العلاقات الاجتماعية وما يرتبط بها من حقوق وواجبات تلعب دوراً هاما فى توزيع الابقار وتبادلها ، فعلي الرغم من حرص العائلة الدنكاوية على عدم تفتيت ملكيتها حتى بعد وفاة عائلها ، إذ يظل الاخوه المتزوجين متجاورين متعاونين فيما بينهم على رعاية القطيع ، إلا أنهم لا يترددون فى اسهامهم الاجتماعى وفقا لما يقضى به العرف السائد ، وفى هذا يقولون « آن ما تقدمه سوف يرد إليك ولكن ما تستهلكه مفقود »

Kéci gaam Ke Cath Kure Ci Lick

ويقولون « أن الماشية ملك لكل الناس »

Weng eken Jang eben

وهذا يعنى أن قيمتها الاجتماعية تفوق قيمتها الاقتصادية ، قيمتها ليست في كثرتها العديدة بل في مساهمتها الاجتماعية أى فى تكوين زيجات جديده دعما للعصبية والتضامن العائلى القبلى وهذا على النقيض مثلا مما تجده لدى البقاره فى مناطق أخرى من السودان مثل المسيريه والرزيقات فى جنوب دارفور ، وعلى خلاف ما نجده لدى قبائل أولاد على فى مصر حيث كثرة القطيع العددية وأهميتها الاقتصادية لاتقل بأى حال من الأحوال عن أهميتها

(*) يحدثنا Lienhardt أنه فى الأوقات العصيبة فيما مضي كانوا يعتمدون على الضأن والماعز فى دفع المهر عند الزواج .

الاجتماعية ، ويمكن القول أن تبادل الأبقار لدى الدنكا يلعب نفس الدور الذى يلعبه نظام التبادل المعروف باسم نظام « الكولا » . (*)

فالدنكاوى يسعى لان يكون له قطيع من الابقار يفى بالتزاماته الاجتماعية دعما للروابط العشائرية والقبلية أولا ، وقلما يفكرون فى بيعها أو التخلص منها إلا فى حالات الضرورة القصوى حين يضطرون الى ذلك للحصول على بعض الحبوب وحين لا تجد الابقار ما يفى باحتياجاتها ، ويمكن القول أن العرف الدنكاوى لا يعمل بأى حال على تراكمها وكثرتها العددية ، فالمشاركة المستمرة فى المهور تقلل من أعدادها وقد يضطر رب الاسرة أحيانا الي الانتظار ريثما يعود القطيع إلى قوته الاصليه حين يشارك فى مهر أبنائه الآخرين حفاظا عليها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تعرضها للامراض والحشرات التى تفتك بها يحول دون زيادتها ...

وأيا كان الامر فإن للابقار بصفه خاصه والماشيه بصفه عامة أهميه كبرى

النظام فى أساسه يقوم على تبادل بعض السلع التي لا تتمتع بقيمة تجارية أو اقتصادية ، ولكن لها قيمة اجتماعيه وشعائرية عالية تضفى على من يمتلكها مكانه ساميه فى المجتمع ؛ وتتكون هذه السلع من عقود طويلة من الاصداف الحمراء وأساور من الاصداف البيضاء ... وتتوقف مكانه الفرد على مايحصل عليه من أصداف نادرة نفيسه ولكن يذيع صيته ويرتفع شأنه فى المجتمع أكثر من ذى قبل حين يتنازل عن هذه النفائس لعملائه وشركائه .

(أحمد أبوزيد ـ البناء الاجتماعى ـ مدخل لدراسة المجتمع ـ الجزء الاول المفهومات الطبعة الخامسه ص ١١١ و ١٤٢ .

فى حياة الدنكاوى، فالرجل لايكون دنكاوياعلى حدزعم Godfrey Lienhardt ـ بدونها وأحيانا ينظر إليهـا كما لو كانت أهم من حيـاة الانسان ، يجب أن يحاربوا من أجل اقتنائها وأن يموتوا من أجل الزود عنها ... أنهـــا امتداد لهوية الانسان وذاتيته يعيش معها ، يقلدها فى أفعالها ، ينتفع من خـــيرها ، يستخدمها كوسيلة للتبادل الاجتماعى فى مواقف معينه .

ولا يقتصر الأمر على الرعى والحيـاة الرعوية ، ولكنهم يعتمـدون على الزراعة كمهنة من الدرجة الثانية، أنهم ينظرون إلى فلاحة الأرض كما لو كانت مهنة سالبة للحرية ويؤثرون عليها الحل والترحال ، بل وينظرون إلى القبائل التى لا تمتلك أبقاراً كما لو كانت أقل فى المنزلة والمكانة كما هو الحال فى نظرتهم لدنكا النوك والسيك وغيرهما ... أولئك الذين لا يمتلكون إلا أعدادا ضئيلة للغاية منها ويعتمدون على مصادر أخرى فى معيشتهم .

وبصفة عامة يمكن القول أن الدنكاويين المجاورين لعـــرب الشمال أكثر اقبالا على الزراعة وأكثرها فيها للعمليات الزراعية وهم لا يعرفون الاقتصـاد النقدى الذى يستهدف الانتاج الزراعى من أجل السوق إلا فى أضيق نطاق ، وغالبا ما يستهدفون الانتاج للاستهلاك الذاتى ، وهم يعرفون نوعا من الزراعة المتنقلة Shifting agriculture لأن خصوبة الأرض لا تلبث أن تقـل ، ومن عادتهم فى الحصاد أن يتركوا جزءا من سوق النباتات ثم يتركونها حتى تجف ثم يقومون بحرقها حيث يستخدم الرماد كمخصب للتربة، والزراعة فى عمومها غير مستقرة لأنها تتوقف على موعد سقوط الأمطار ، فضلا عن كمية الأمطار ومعدلاتها . ومرات سقوطها ، فالامطار الكثيرة قد تحول دون الانتاج بل قد

تؤدى الى خسائر فادحة كما حدث فى أعوام ١٩٤٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ (*) .
وقد تودى بحياة صغار الماشية وتدمير القطاطى ، فضـلا عن غرق مساحات شاسعة من الاراضى ، وقد يبذرون الحب مع سقوط الامطـار ثم لا تلبث أن تنقطع لفترة طويلة الامر الذى يؤدى الى فساد البذور وعدم صلاحيتها ، وليست هذه هى المعوقات التي تحول دون وفره الانتاج الزراعى فهناك ضـآلة خطهم من المعرفة التكنولوجية المستخدمة فى العمليات الزراعية ، فأساليبهم محدودة وآلاتهم ومعداتهم بسيطة للغاية وليس لديهم معـرفة بالاسمدة أو المخصبـات باستثناء الرماد المتبقى من حرق جـذور وسوق النباتات ، كما لا يعـرفون الدورة الزراعية ولا يكترسون كثيرا بنظافة التربة من الأعشاب والحشائش الطفيلية وما أكثرها ، وتبدأ الزراعة فى بداية الخـــريف فى أواخر ابريل وأوائل مايو فى مساحات محدوده حول قطاطيهم ولا يبذلون جهدا كبيرا فى العناية بها ، ومن أهم محـاصيلهم الدرة والتي تزرع عادة فى شهـر يوليو ويتم حصادها فى يناير ، وهنالك أنواع منها يتم حصادها بعد فترة وجيزة وانتاجها لا يصل الي حد الاكتفاء الذاتى ومن ثم يعتمدون الي حد كبير على السوق

(*) وكما حدث في العام الماضي ١٩٧٨ ، حين أجتاحت السيول عددا من المناطق فى الجزيرة وبورت سودان ومروى وقد أسفرت خسائر السيول عن تدمير ٢٣٥ قرية من بينها ٦٥ قريه دمرت تماما بالاضافه الي غرق مئات الآلاف من الافدنة ... لقد بلغت المياه التى أحاطت بالقرى أكثر من ٥ مليون متر مربـــع .

(أنظر ملف التنمية ، المركز القومى للدراسات الاعلامية والتنمية والتعمير ، العدد ٠ ، ٠ أكتوبر ١٩٧ !

الخارجى أو مساعدة الدولة لهم (*) . كما يزرعون الفول السودانى والسمسم ويزرعونه بكميات كبيرة نسبيا إذا قورنت بالمحاصيل الاخرى وكذلك اللوبيا والفاصوليا والبامية والتبغ ... وعاده ما يتم الحصاد فى فترة نهاية الامطار ويسمونها Anyoic حيث تنضج المحاصيل ، ويشارك الرجال والنساء المقيمين فى القرية الاصليه فى عمليات الحصاد هذه ويحتفظون فى العاده ببعض الابقار لتمدهم بما يحتاجون اليه من منتجاتها ، وقد تتسبب هذه الابقار فى اثارة الكثير من الخلافات حيث يخشى المزارعون على محاصيلهم منها .

ويمكن القول أن تقسيم العمل لدى الدنكا يتبع الخطوط العريضة للسن والجنس شأنهم فى ذلك شأن المجتمعات القبلية فى كثير من أنحاء العالم فليست هناك مهارات خاصه أو خبرات نوعية إلا فيما ندر، وأن هناك تداخل فى الدور وليس هناك تحديد قاطع لتوزيع العمل فالمرأة تشارك فى تربية الابقار ، وفى الذهاب الى المرعى وفى تنظيف الحظائر من الروث وتجفيفه وحلب الابقار وصناعة الالبان ، كما تشارك فى بذر الحب وتلعب دوراً هاما فى الحصاد فضلا عن جمع الدرنات البرية ، وعادة ما يقوم الرجال باختيار المرعى المناسب والخروج بالابقار الى حيث معسكراتها فى موسم الجفاف واعداد النيران المدخنة وحراستها وقد يضطرون الى حمل صغار العجول فى أثناء المسير خوفا عليها من الإرهاق ويقومون عادة باعداد الحفر لبذر الحب وتنظيف الحشائش والإعشاب ويشاركون فى عمليات ، وقد يحلبون الإبقار فى بعض الاحيان . أما الإطفال أو الصبية فيقومون فى العادة بتنظيف الذرائب وإزالة المخلفات ونشر الروث وقد يساعدون فى عمليات الحلب فضلا عن حمل بعض الاوانى كقرع اللبن

(*) تقوم وزارة الزراعة السودانية ببعض المشاريع التجريبية لزراعة الإرز بمنطقة أويل معتمدة على توفر المياه وارتفاع حرارة الجو وهناك محاولات لزراعة الفاكهه .

عند الذهاب الى المرعى وقد يشاركون فى بعض العمليات الزراعية وخاصة بذر الحبوب .

ولاشك أن ملكيه الأرض فى المجتمع الدنكاوى امتداد للاوضاع الاجتماعية وتقترن بنظام محدد من الحقوق والواجبات الملزمة التى نص عليها العرف ، ونحن حين نتحدث عن الملكية ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار كما يقول Hoebel امتلاك الشيء الذى يخول للفرد أو الجماعة حق خاص لأن يستخدم هذا الشيء وبالتالي على الاخرين أن يمتنعوا عن استخدامه ، وحين نتحدث عن الملكية ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أمرين : الشيء ذاته ونسيج العلاقات الاجتماعية التى جعلت هذا الشيء ملكا لشخص أو جماعة دون غيرها . فإذا نظرنا إلى أرض الدنكا نجد أنها من الناحية الميثولوجية قد وزعت بواسطة زعيم القبيلة على تابعيه الاساسيين والذين يمثلون القبائل الفرعية . وقد قام هؤلاء القادة بتوزيعها بدورهم على جماعاتهم وهكذا ، ومن ثم فإن حق استغلال الأرض سواء للزراعة أو المرعى وقف على أولئك الذين ينحدرون من الفرع القبلى أو العشيرة ، ويخبرنا Deng أن هذا ليس له قيمة عملية الآن ، فالدنكاوى له الحق فى أن يقيم ويزرع فى المنطقه التى يعيش فيها، وأن كانوا يدركون أن الأرض ملك الزعيم والذى لديه الحق فى منح مساحات منها للوافدين، أنه حامى الأرض ولدية القوة المسيطره عليها ، وقوته هذه مردها للامتياز الدينى أو الالهى divine Prerogative والتى يمكن أن تتحكم فى الانتاج بل وتدمره إذا أرسلت الأمطار أو الطيور أو الجراد ، وأن كانت سيطره الزعيم من الناحيه العملية محدودة طالما يحتل كل مساحه من الأرض للاقامة أو الزراعة دون احتكاك أو صراع، ولاشك أن النزاع على الحدود لايلبث أن يظهر ، إلا أن الزعماء المحليين يحولون دون تفاقمه ويضعون حدا للصراع ، وينص العرف

(1) Hoebel, Man in the Primitive Society, op. cite, pp. 431-432

الدنكاوى بعدم بيع الأرض، ولكن من حق الفرد أن يمنح أرضة سواء للاقامة أو الزرع لمن يشاء من جماعته القرابيه، إلا أن تغيير مكان الاقامة يتطلب استئذان أو موافقة القادة المحليين وقد جرى العرف على أن تؤول الأرض بالارث إلى اكبر الأبناء من الزوجة الاولى سواء أرض الزراعة أو الإقامة ، كما يقضى العرف بأن تخصص مساحة من الارض للابن متى اجتاز شعائر التكريس وأتم مراسيم الزواج (١) .

ولا تقتصر أهمية الارض على توفر المرعى المناسب أو الغطاء النباتى وانما تتيح لهم وفرة من النباتات أو الجذور الدرنية كالبطاطا وغيرها كما تتوفر فيها العديد من الحيوانات البـــرية ، ويقبل الدنكاوى على صيدها والانتفاع بلحومها وجـلودها كالزراف والوعـول والغزلان والتمساح والفيل والأصلة والورل (نوع من الزواحف البرمائية)، وهم يختبئون دائما مستعدين بحرابهم لأى صيد يصادفونه ، فإذا ماحصلوا على غزال فإنه يشوى ويؤكل على الفور وفى حالة صيد وعل ضخم مثل التيتل فإنهم يطاردونه ومعهم كلابهم خاصة فى اعقاب المطر حتى يصعب عليه الفرار .

ولاشك أن البيئة قد أتاحت لهم مخابىء طبيعية تتمثل فى أشجارها الضخمة وأعشابها الطويلة ليرصدوا من ورائها حركة الحيوان كما يفعلون حين يقتربون من الفيلة ، والتى يصطادونها بالقاء مـدى مدببة حادة فى نهايتها اثقال كبيرة، كما ينتفع الدنكاوى من سن الفيل إذ يقسمون السن إلى حلقات عريضة تلبس فى الاذرع كنوع من الزينة، وقد أعتادوا على مطاردة الزراف إلى مكان

(1) Deng, op. cite, pp 32 - 26 .

مسدود أو مسور حيث يطرونه بحرابهم ويأكلونه أيضا[١]. وأدوات الصيد لديهم متنوعة كالافخاخ والشراك والمدى والعصى الغليظة أو الهراوات كما يستخدمون القوارب فى صيد البحر .

ولاشك أن للوفرة الهائلة في الحيوان البرى أثر كبير على التكافل الاجتماعى كما نجد لدى قبائل Kung ! من البوشمان فى « تتسوانا » حيث يوزع الصيد على الجماعة القرابية والجوار الاجتماعي وقد لا يحصل الصائد نفسه إلا على قدر ضئيل من الفريسة ، فالمشاركة والتبادل سمة مميزة لاقتصادهم ، فالكل يشارك في الصيد، خاصة فى حالات الصيد الضخم ومن يملك السهم القاتل يقوم بتقسيم الصيد الى خمس أو ست أجزاء توزع على من يشاركوا فى الصيد بالفعل وكل منهم يقسم نصيبه على أقاربه وأصدقائه وجيرانه وهكذا [٢] .

ويذهب بعض الكتاب الي أن الدنكاويين أنفسهم لا يميلون لقتل حيوان الصيد لا لأنهم فى غني عن لحومها وانما لانشغالهم الدائم برعاية الأبقار وحمايتها مما جعل معظم الحيوانات البريه التى تعيش فى منطقتهم كالزراف والبقر الوحشي تبدو وكأنها مستأنسه بشكل يبعث على الدهشة[٣]. على الرغم من أن المصادر الكبرى للانتاج محدودة وتتمثل فى الأرض، إلا أن خصوبة المراعى ووفرة الحيوانات سواء الماشية أو الأبقار من ناحية والحيوانات البرية من ناحية أخرى

---

(١) حسن محمد جوهر وحسين مخلوف، السودان أرضه وتاريخه ، ص ١٠٤ وما بعدها .

(2) Bates & Plog, op. cite. pp. 217 - 318.

(٣) حسب الله الحاج يوسف ، « النيليون بجنوب السودان ، ملامح عن حياتهم وعاداتهم » ـ مجلة الخرطوم ، العدد العاشر ، أكتوبر ١٩٦٨

وامكانية الزراعة من ناحية ثالثة يعنى أن البيئة تقدم الكثير من التسهيلات الايكولوجية ، وأن الانتاج يفي باحتياجاتهم باستثناء إنتاجيه الحبوب فهى قاصرة ، ومن ثم حاجتهم الى السوق الخارجية أو دعم الدولة لهم ، ونظرا لضآلة حظهم من المعرفة التكنولوجية فإنهم يحتاجون الى بعض السلع الأخرى الاساسيه كالحراب والاسنه والمدى والادوات المعدنية الأخرى، وقد يضطرون إلى الحصول على احتياجاتهم منها الى بيع بعض الماشيه أو الحبوب أو سن الفيل أو الجلود ... ، كما يحتاجون إلي بعض المواد التى يستخدمونها فى الزينة .

ولاشك أن هناك نتائج اقتصادية هامة على الرغم من التسهيلات الايكولوجية وتوفر الغطاء النباتى والحيوانات البرية والأبقار تتمثل في أن التكنولوجيا البسيطه وتقسيم العمل المحدود من ناحية والظروف والبيئة من ناحية أخرى تؤدى الى نوع من عدم الثبات خاصة عند حدوث الفيضانات كما سبق الاشارة فى معرض حديثنا عن معدلات سقوط الأمطار .

من العرض السابق يتضح لنا أن الاقتصاد القائم يقوم فى أساسه على توفر حد أدنى من المعرفه التكنولوجيه يتمثل في الآلات البسيطة التى يعرفونها ويستخدمونها فى العمليات الزراعية المحدودة ، وليس لديهم سوى المجهود البشرى كطاقة ، ولاشك أن هذه البساطة من ناحية والظروف البيئيه العامة من ناحيه أخرى قد أدت الى وجود نوع من الترابط والتعاون بين العائلات في كثير من العمليات الاقتصادية كما هو الحال في اشتراكهم فى الصيد البرى أو الخروج الي معسكرات الأبقار بحثا عن المرعى أو فى عمليات الحصاد .

* * *

والدنكا شأنهم فى ذلك شأن أى مجتمع لديهم مجموعة من القواعد السلوكية يملى على الأفراد الاستجابة بطريقة معينة لمواقف معينة ، هذه القواعد هى التى تحدد اطار السلوك ومن ثم فإن ثمة ضرورة من أن يكون هناك أفراد يعملون من أجل هذا الهدف في ظل هذه القواعد السلوكية،وأن أقتضى الأمر بالاجبار والالزام وفق مانقضي به القواعد العرقية القبلية ، التى تستهدف تحقيق المطابقة والتوافق مع المعايير والقيم ، ومن ثم ينبغى أن يكـــون لديهـــم أدنى من القبول والتوافـق لـــا يسميه Merill بالتوقعـات المعيـارية [1] normative Expectation

فإذا مانظرنا إلى العملية القضائية لدى الدنكا وجدنا أن أى أضطراب فى النظام الاجتماعى كوقوع جريمة قتل أو اعتداء أو سرقة الابقار أو انحراف تبلغ إلي رؤسائهم أو زعمائهم (Banbith زعماء الرمح أو الحربة) أو القضاة المنصفون ولهم مكانه هامة ، ويجمعون بين السلطة الدينية والاجتماعية أوالمدنية حيث يناط بهم ـ فضلا عن وظائف أخرى سنتحدث عنها فيما بعد ـ فض المنازعات والفصل فى الخلافات،فالفكر الدنيكاوى لايميز فى الحقيقة بين الاتجاه الدينى والدنيوى فى الممارسة العملية ، فالزعامة السياسية لديهم مقدسه ولها صفه إلهيه ، وقد انعكس هذا فى أساطيرهم وأغانيهم [2] والزعيم يعمل من خلال مجلس وليس بمفرده وهـؤلاء سرعان مايتولون القضيه ، ويتكفلون بالوساطة

---

(١) فاروق اسماعيل ـ التتير والتنمية فى المجتمع الصحراوى ، الهيئه المصرية العامة ١٩٧٦ ص ١٨٩ .

(2) Déng, op. cite, P 52 ,

من خلال المناقشات بقصد الوصول إلى تسويه Compromise وحسم النزاع أو الصراع بين الطرفين ، والزعيم Banbith يعبر فى نهاية المطاف عن رأى كبار السن ، وطبيعى أن يتوقف الحكم فى القضيه على نوع الجريمة ودرجه الصلة بين المتنازعين وانتمائه للعشيره أم لا وموضوع النزاع ومدى أهميته ، وغالبا مايحاولون التنصل من العقوبات الصغيره إلا إذا استشعروا قهرا اجتماعيا .
ومجلس كبار السن هذا يتكون فى العادة من زعماء الرمح وطرفى النزاع أو من ينوب عنهما وأقاربهما من كبار السن من المناصرين والمؤيدين لمناقشه موضوع النزاع ، وغالبا ماينفرد أحد زعماء الرمح فى القيام بالشعيره على مرأى ومسمع من الجميع خاصه تلك التى تستهدف تسوية النزاع في جرائم الزنا أو فى حالات القتل ، وفى مثل هذه الاحوال فإن طرفى النزاع يجلس كل منهما بمنأى عن الطرف الآخر كما سوف نرى حين نعرض لهذه الشعائر والممارسات ، وبصفه عامة فإن الجرائم الصغيره كالاعتداءات أو السرقات انما تواجه فورا ، والزعيم المحلى كفيل بالتسوية ووضع حد للنزاع على الفور ، أما الجرائم الكبيرة فهناك أجراءات وممارسات اكثر تعقيدا وسوف نشير الى الشعائر التى تستهدف تسوية النزاع فى حالات القتل والزنا والممارسات التي يتبعونها ، وبصفة عامة يمكن للقول أن الجرائم الكبيره تتطلب نوعا من قرابين الطهاره Parificatory Sacrifice شأنهم فى ذلك شأن الكثير من الجماعات القبلية كما هو الحال لدى قبائل المندارى وغيرهم . ففى حالة القتل وإذا ماأمكن الكشف عن شخصية الجانى باستقراء الظروف المحيطه والاستدلال المنطقى للتصرفات والسلوك ، فإن الأمر يعرض على الزعيم ، وفى أحوال أخرى يلجأ الجانى إلى بيت الزعيم طلبا للحمايه ، وعادة مايحاول أقارب المجنى عليه الانتقام من القاتل ، ولكنهم لا يستطيعون

النيل منه طالما كان في حمايه الزعيم , والقاتل في مأمن ، في هذه الاثناء يتولى زعماء الرمح السعى بين الطرفين،ويتعرفون على مايمتلكون من الماشيه والابقار وإمكانيه مايقدمون منها ، وقد يعرض الزعيم على أهــل المجنى عليه الديه ومقدارها وقـد يرفضون ، ومن ثم يهددهم بأن اللعنه ستحل بهم فينصاعون ويستجيبون لرغبته ، وتقدر الديه بنحو ثلاثين من الأبقار ويذكر لنا Lienhardt في كتابه Divinity and Experience. the Religion if the Dinka, وصفا تفصيليا للشعائر التى تستهدف تسويه المنازعات واعادة جو الألفه والسلام بين طرفى النزاع فى حالة القتل -- وأن كان لينهارد يذكر لنا أنه لم ير بنفسه تلك الشعائر وانما اعتمد على المادة التي قدمها Titherington ، ووصف لنا هذا الأخير كيف أن الفريقين المتنازعين يجتمعان معا للصلح ويجلس كل منهما على انفراد وبينهمامسافه تقدر بنحو ٢٠ ياردة على جانبي مجرى مائى قد جفت مياهه أو متباعدين ، وغالبا مالايحضر القاتل وانما من يمثله من أقاربه ، ويوضـع التعويض المتفق عليه من الابقار « Duk » على مرمى من الطرفين وطبقا لروايه Titherington فإن الذى يوجه الشعائر ويقوم بالممارسات أما أن يكون زعيما للرمح أو كجور Kujur وطبيعى ألا يمت بصله للطرفين [1] . هنا فإن زعماء الرمـح فيمايقول Lienhardt يبتلهون ويتوسلون مناشدين أرواح الاسلاف التى أوجدت التعويض Duk بين الناس ، عاده الابنـاء والاجـداد أن تأتى لزيادتهم لفترة قصيرة لمساعدتهم وتمكينهم من رأب الصدع وايقاف العداوه واعاده الإمن والطمأنينة النفوس ولتقضي على مايقلقهم ويعكر صفوهم [2] هنا وبعد اعطائهم

---

(1) Lienhardt, Gcdfrey, Divinity. and Experience. p. 386 .

(2) IBid, p, 287 .

أشارة البدء يشارك كلا الطرفين فى الامساك باحد الثيران المعدة للشعيرة ، حيث يمسك أهل القتيل الأرجل الخلفية ، رأهل القاتل الأرجل الأمامية للايقاع بالثور ، ويطعن كل منهما برمحه فى صدره ويقوم زعيم الشعيره بقطع الثور إلى نصفين ، وإستخراج الأمعاء ونثرها على المجتمعين من كلا الفريقين ويقتسم كل فريق نصيبه من اللحم . ثم يذهب زعيم الرمح إلي حيث نحر الثور وحيث البقايا والاشلاء مثبتاً رمحه فيها ، ثم يتبادل الطرفان البصق كل منهما على الاخر إلى اليمين واليسار وإلي أسفل أقدامهم ، وينثر زعيم الرمح الرماد المتبقي من أشعال النار على الطرفين ، وهـــذه هى نهايه الشعيرة ، وليس ثمه أى نوع من الكلام أو المناقشات [١] على نحو مانجده عند قبائل Bwamba في أقصى غرب أوغندة حيث يتبادل طرفا النزاع النقاش والخوص فى تفصيلات كثيرة [٢] .
هنا كما لاحظنا نجد نوعا من السلوك الرمزى يتمثل في البصق ، نثر امعاء الثور ونثر الرماد ، المشاركة فى الايقاع بالثور ، وفى أحيـان أخرى كسر الزعيم لعدد من الزماح أو ثنى اطرافها تلك التى يمسك بها الأفراد من عائلة المجنى عليه ممن يشتطون غضباء أنواع من السلوك الرمزى تستهدف تهدئه النفوس والاشارة الى أن العداوة قد أنتهت ، وأن النفوس يجب أن تصفوا وأن يشاركوا فى تحقيق السلام ، ويرى Lienhardt أن نثر الامعاء والرماد والبصق وماإليها انما تشير إلي أشكال للطهارة والمباركة .. والجدير بالذكر أنهم يعتقدون أن من يتسبب فى أشعال العداوه من جديد سوف يلقى حتفه بالتأكيد ...

ومن الجرائم الأخرى التى يوليها المجتمع اهتمامه جرائم الزنا ، فالعلاقات

---

(1) IBid, p. 287

(2) Winter, Edward, op. cite, p 145

الجنسية خارج الزواج أمر غير مسموح به والزنا Incest ويسمونه Akeeth ويعتقدون أن له نتائج وخيمة العاقبة , فقد يؤدى إلى أمراض جلديه خطيرة أو قد يترتب عليه عقم المرأة (٥) Steriliry ، بل إذا حملت قد يترتب عليه موت الطفل وقد يبررون فى بعض الأحيان موت الاطفال لإحدى النساء بأن لها علاقات غير مشروعه مع أحد الاشخاص و نتيجه للخوف من النتائج المترتبه على الزنا (٥٥) (لا يعتبر سببا مباشرا للطلاق) فإنهم ينفذون مايسمى بشعائر الانفصال بين طرفى العلاقة حتى يقضون على تأثيره ، ويحدثنا Lienhardt أنه رأى بنفسه هذه الشعيرة حين ارتكب شاب هذا الاثم مع زوجه أبيه (يقضى العرف القبلى أن تعترف المرأة بهذا ...) وقد ظل الأمر مخفيا لفتره من الوقت وتقضي الشعائر التقليدية باستخدام أحد الثيران أو الابقار لتحرير الآثمين من نتائج فعلتهما ، هنا يقوم زعيم الرمح بالتضرع أو التوسل Invocatfon من أجل الغفران ، بينما يقف المذنبان أمامة ومن حولهما أقاربهما وعلى مقربه من بركة مليئة بمياه الامطار ، وكنوع من المزاح الخشن يدفع الشركاء فى جريمة الزنا إلى مياه البركه ليغتسلا بهذه المياة ، وبينما هم كذلك يدفع بالثور أو البقره

---

(٥) لاحظ أن المرأة الولود لها أهمية كبيرة ، لا تستقر المرأة ولا يكتمل زواجها أو تتخذ وضعها الاجتماعى إلا بعد الانجاب .

(٥٥) يذكر لنا سيلجمان أن الفتاه التى ارتكبت الزنا سوف تضطر للاعتراف بذنبها وتقديم القربان ، أما الشاب فإنه يجب عليه تقديم ثلاث بقرات على الأقل ، بقره أو اكثر تذهب إلي والد الفتاه وأخرى للقائم وبالشعيرة ... (المرجع السابق ص ١٥٧) .

المعدة للشعيرة إلى البركه أيضا وتغمر بالمياة عدة مرات ، ويعتقدون أن دفع المقترفين يطهرهما ويذكيهما ، وأن الاثم أو الذنب يتحول إلي الثور،هنا نجد نوعا من الرمزية المتعمدة Concicus Symbolism ، فالاثم يذهب بطريقة ما إلي الماء ... بعد ذلك يسحب الثور بعيد عن البركه وينحر ويقسم إلي نصفين طولا ، وسواء اكانت الضحيه أوالقربان ذكرا أو أنثى فإن الاعضاء التناسليه تقطع إلى نصفين طولا ، فى هذه الحالة فإن اللحم يحمل بعيدا لأكله ، وفى أحيانا أخرى يقال أن « البهيمة» التى تقتل هكذا لاتؤكل ... الجزء الهام فى هذا كله الرمزيه الواضحه والتي تتمثل فى فصل الاعضاء التناسلية وبترها(١) والتعويض عن الزنا فيما يقول Seligman يقدر بنحو من ٥ : ٨ رؤس من الماشية تدفع الزوج،فإذا كانت المرأة أرملة فإن التعويض يحفظ كوديعه لورثة الزوج ، وعادة لاتعاقب المرأة على فعلتها أوتطلق لهذا السبب ، إلا أن اساءه معاملة الزوج لزوجتهقد يجعلها ترفض الحياه معهوتعود إلى بيت أبيهاوحينئذ يتعذر أستمرارها (٢) وفى حالة الفتاه التى ضلت أو غوت وحملت سفاحا فإن التعويض يقدم إلي أبيها ، والجدير بالذكر أن قيمتها كزوجة تنحط إلى حد كبير ، وعادة ماينخفض مهرها عن القيمه المتعارف عليها (٣) ؛ ويمكن القول أن التعويض سمة واضحه فى العرف القبلى فإذا اخطأت المرأة في زوجها فإن ثمه نوع من التسوية باعطائه بعض الماشية والدفع يسمى Amec ، اما إذا أشتكت الزوجه من زوجها فإن عائلة الفتاه لاتتدخل ويعتبرون هذا من قبيل

---

(1) IBid, p. 285 .

(2) Seligman, op. cite p 162 .

(3) Deng, op. cite, p. 20 .

الشئون العائلية ولا يتدخلون إلا فى حالة الضرورة القصوى ، فاذا ما كان الخطأ من الزوجة أو أحد أقاربها فمن المتوقع رد المهر على الفور خاصة إذا ما استحالة الحياة الزوجية .

أما خلافات الأرض أو ملكية الأبقار فإن الزعماء المحليين يقومون على الفور بتسوية النزاع فى سهولة ويسر ومن الجدير بالذكر أن « قانون الدنكا العرفى » يحرم بيع الأرض إلا أنه يخول للشخص حق المنح لأرضه لذلك الذى ينتمى الي جماعته القرابية ، وتؤول الأرض الى الابن الأكبر Wendit من الزوجة الأولى بالوراثة كما سبق الاشارة ، ولا يحق لشخص أن يستغل أرض شخص آخر بالمرعى إلا بعد الاستئذان وموافقة الزعيم .

وقد يلجأون الى اليمين Oath ، واليمين بصفة عامة سمه مميزة فى كثير من المجتمعات الافريقيه، ويعتمد عليها فى الفصل فى المنازعات خاصة تلك التى تتعلق بالقضايا المجهولة كالقتل أو السرقة وادعاء ملكية الغير والاغتصاب ، كما نجد عند جماعة Akans فى ساحل الذهب التى درسها Maston حيث يطالب مجلس كبار السن باليمين المتبادلة خاصة فى حالة ادعاء الملكية ، وعند جماعة الا Shanti التى درسها Rattray وجماعة Ibo التى درسها Green ، وفى منطقة الا Ramba كثيرا ما يلجأون الي اليمين المسماه Kithitu Oath إذا كان النزاع بين جماعتين مختلفتين أو على مستوى القبائل ، أما إذا كان النزاع على مستوى العائلة أو القبيلة الواحدة ، فهناك يمين آخر يسمونها Ndendu Oath ، والفرق الوحيد بينهما هو أن تلك الأخيرة أقل فاعلية من الاولى حيث اليمين الكاذبه فى الحالة الأولى لا تؤثر فحسب على المؤدى لليمين ذاته ولكن على أكثر الناس قربا له مثل زوجته وأولاده، فى حين اليمين الحانثة فى الحالة الثانية يقتصر ضررها علي الفرد نفسه ، وأن رفض اليمين يعني الادانة وتحمل

المسئولية[١] . أما لدى قبائل الدنكا فإن لديهم نوع من اليمين الملزمـة حيث يذهب الراغب فى أداء اليمين الي الحداد ، يلعق مطرقته قائلا «إذا فعلت كذا سوف ألقى حتفى » وهم يعتقدون فى ذلك ، أما دنكا الا Agar فانهم يلعقـون أسورة حديدية ويقرون الواقعة كما يرونها ، فى أحيان أخرى يتم أداء اليمين بوضع رمـح أو عصا على الارض ثم يقفزون من فوقها فى وثبات مخاطبين Deng dit بأنهم لم يفعلوا هذا وان فعلوه فلتكن نهايتهم ويضع الرمح على قبورهم ، وهذا يشير الى عاده قبائل Agor فى وضع الرماح والاساور على قبر الميت لمدة سبعة أيام ، وعادة ما يتم القسم عند ضريح Deng dit[٢]، ولاتختلف قبائل البارى المجاوره لهم في أدائهم لليمين ، فقد يقفزون من فوق الحراب أو يلعقون الحربة أو يقسمون على رءوس جثث الموتى أو يحلفـون بشعب مدخل بيت البقر من أجل نفى التهمة فى جريمة القتل مثلا ، وقـد يحضرون ترابا من قبر الميت ويخلط بالماء ويسقى لاولئك الذين يتهمونهم بالقتل كنوع من القسم[٣] .

وعلى الرغم من المكانة التى يحتلها زعماؤهم وأستجابتهم لهم خوفا من غضبهم وبالتالي لعنتهم،فإن الكثيرين منهمقد يرفضونالاحكام التييقضون بهاويعلنون رغبتهم في الحصول بأنفسهم على حقوقهم ولو أقتضي الامر استخدام القوة ، ولا يختلف هذا عما نجده لدى جيرانهم من قبائل (المندارى) Mandarl الذين

---

(١) د. فاروق اسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجمـــاعات العرقية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧

(2) Seligman, op. cite, p 194

(٣) يوسف أبو قرون المرجع السابق ص ١٤٢

قد لا يرتاحون للاحكام التى قضى بها زعيمهم Mar وينتظرون حتى غيابه لينتقموا لانفسهم[1] وهذا لا ينفى بالطبع أهمية الدور الدى يقوم به هؤلاء القادة فى تحقيق التوافق بين الانماط السلوكية والمعايير السائدة ، وصفات الزعيم لدى مجموعة قبائل الدنكا تتمثل فى القدرة على الوساطة والتحكيم وفض المنازعات القبلية ودرايتهم بوسائل فض المنازعات وما يتطلبه الموقف من أراء و نظريات ومن ثم يتمتعون بالسلطة والتأثير ، أى حق أتخاذ القرارات وتنظيم أفعال الآخرين ، ومرد ذلك الى الاحترام والسيادة وعلاقة المودة التى يتمتع بهـــا هؤلاء القادة فضلا عن صفاتهم الشخصية ، فالزعيم فيم يقول F. Deng بمثابة أب للعشيرة أو البدنة ، مقدرته تكمن فى صفاته الروحية حيث يستمد الوحى والالهام الالهى والحكمة ، لديه القدره على النظرة الصائبة للامور حتى يمكن أن يكون وسيطا بين الناس ، أنه نموذج للطهارة والنقاء والصلاح والاستقامة ، ووفقا للتعبير الدنكارى أن يكون هادئا رابط الجأش[2] ، أما Lienhardt فيرى أن الزعيم هو الذى يتميز ببرودة القلب واللسان ، وأن (البرودة) ترمز السلام والهدوء والصحة والاطمئنان ، أنهـا تشير إلى غيـاب الانفعـال ، والآلهة هى التى تمنحه هذه (البرودة) وتثلج صدره ، أن يكـون للزعيم فم (بارد) خير من أن يكون له فم ساخن أو قلب ساخن Twic puou فإن هذا يعنى المزاج الحاد وعدم التعقل والانفعال والتقلب فى العاطفه والميل للعنف وعدم التروى بل والاعتلال فى التفكير ، أما لسان الزعيم (البارد) فيعنى

---

(1) Buxton, Jean: « The Mandari of the Southern Sudan » in in Trfbes without Rulers, Routledge & Kegan paul London, 1967, p. 88.

(2) Deng, op. cite. p. 61.

السلام والهدوء ورباطه الجأش والصدق فى القول ، لديه القدرة على تهدئه النفوس والوساطة بين الناس لفض المنازعات ، لديه رؤية وبصيره بالحقيقه والزيف ... هذه هى اخلاق الزعيم أو رئيس الرمح [1] الزعامة فى مفهوم الدنكاوى مستمده من التنوير الآلهى أو الوحى الآلهى ، ويمكن القول أن وظيفة الزعيم تنحصر فى :

أولا : الوساطة والتحكيم حيث يجمعون بين أطراف النزاع ، ويحاولون الوصول إلى نوع من التسوية أو التعويض المقترن بالتسامح .

ثانيا : أنهم حماة الأفراد والملبين لرغباتهم، فالمحتاج أيا كانت حاجته يبحث عن الزعيم ليساعده ويلبى حاجته .

ثالثا : أنهم ينظمون المجتمع ويباشرون قضاياه فهم أداة النشاط الجمعى يعملون من أجل حل مشاكل الجماعة ورفاهيتها وفى هذا يقول فرنسيس ونج «إذا ماوجدت كارثة أو نكسة كقصور فى الانتاج فى أحد المحاصيل الرئيسية أو دمار يجتاح الأفراد أو الابقار ، فإن وظيفة الزعيم تتمثل فى الوساطة بين العالمين الواقعى والروحى لرأب الصدع واصلاح العلاقه واعادة التجانس والانسجام أو الوحده ـ فى مثل هذه الحالات فإن أرواح الاسلاف تستدعى باعتبارهم حماة القبيلة وهذا ماتكشف عنه الترانيم والتراتيل التى يترنمون بها عند تنصيب الزعيم إذ تشير إلى أنه أشبه بومضة النور التى تضىء الحياة ، أو أنه المرشد للطريق والموحد للكلمة ... [2]

---

(1) Lienhardt, op. cite. p 139 .

(2) Deng, op. cite. pp. 62, 63 .

وبالاضافة إلى الدور الذى يقوم به الزعيم فإنه يعتبر المـــوجه إلى التغير الاجتماعى ، فاذا ماكان هناك ابداع أو تلقى المجتمع سمه ثقافيه جديدة فإنه أول من يدعمه ويدعو إليه ... والزعيم لايعزل ولايقتل ، ومـع ذلك فإن موقفه يمكن أن يضعف خاصه إذا ماتعاون كبار السن ورفضوا دعمهم له وتأييدهم أياه .

يذكر بعض « الإخباريين » أنه حينما حاولت الدولة فى السنوات الاخيرة ضمن نطاق تنظيماتها الادارية تعيين المشايخ كمسئولين اداريين وحاولت دعمهم فإن الدنكاويين رفضوا وقاوموا هذه التغييرات مقاومة عنيفه وكانوا يهزأون بأرائهم وتصرفاتهم وافعالهم ، بل أنهم كانوا ينظمون الاغانى مستهزأين بهم مستخفين بقراراتهم حتى ذهبوا بنفوذهم ، ولم يستطيعوا ممارسه دورهم الفعلى إلا بعد أن اتخذوا من القادة المحليين — إن صح هذا التعبير — مساعدين لهم من كبار السن لمشاركتهم ومشاورتهم فيما يتخذون من قرارات أومايخرجون به إلى حيز التنفيذ والآداء ...

° ° °

يجمع الباحثون على أن مجمـــوعه قبائل الدنكا من اكثر الشعوب تدينا (Seligman, Lienhardt, Deng وغيرهم) وأغلبيه الدنكا حتى الان وثنيون وأن كانت توجـد أقليات بينهم من المسلمين والمسيحيين [1] ، أما الوثنيون منهم فانهم يعتقدون فى عالم من الارواح Spirit العديده والتى يسمونها Gok

---

(١) يوسف أبو قرون ، المرجع السابق ص ١٣٨ .

وهى بمثابه قوى خارقة تتميز إلى حـد كبير عن قدرات الانسان والمخلوقات الدنيويه Terrestrial Creatures، وهذه القوى فيمايرى Codfrey Lienhardt تعمل وراء مجال الافعال الانسانية ولكنها لاتشكل عالما خاصا بها مستقلا عن الإنسان ، أنها تشارك فى الحياة البشرية بل وفى اتجـاهات الناس نحو الخير والشر ، فالدنكاوى ينظر إلى العالم المحيط بة وكأنه ينقسم إلى قسمين أولئك الذين ينتمون إليه من الناس والقوى الروحية أو أولئك الذين يشاركونه طبيعته الدنيوية ، ثم أولئك الذين يتميزون عنه ويشكلون طبيعه مغايرة (١) هذه النظرة الثنائية هى التى تشكل الفكر الدينى الدنكاوى والذى يدور اساسا حول التمايز القائم بين طبيعتين تعملان معا فى عالم واحد وفى واقع التجربة والممارسة اليومية .

فالدين عند الدنـكا يشير إلى ارتباط جماعة انسانية بآلهة وعلى حد تعبير دى لاجراسرى Dela Grasserie « تجمع بين معتنقى الديانه الاحيـاء منهم والاموات وآلهتهم فى مجتمع واحد يعتبر جزء لا ينفصل عن الكون الطبيعى » هذا التفسير ينطوى على اعتبار الآلهه كائنات حيه ترتبط بعضها ببعض وبالبشر بعلاقات مودة أو كراهية (٢) . أنهم يعتقدون فى نسق على درجة عالية من التعقيد لمجموعة من الآلهه المتعدده والمتدرجة من حيث المكانة فهناك الاله الخالق أو القوة التى لديها القدرة على الخلق والتدمير Nhialic والتى تشير إلى الكائن الأعلى أو الأسمى، ومن صفاته فيما يعتقدون القوة والعداله والسمو والارتفاع

(I) Lienhardt, op. cite. p. 28 .

(٢) د . احمد الخشاب ، الاجتماع الدينى مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العمليه مكتبة القاهره ١٩٦٤ ص ٧٢ .

أنه المهيمن على المناشط العديدة للكائنات(*) ثم هناك Dengdit الكائن الروحي المقدس ، أو هو الكائن الوسيط بينهم و بين Nhialic وإليه ينسبون قدرات الخير و الشر و المنح و المنع وصنع الخوارق و المعجزات، إليه يتوسلون ويبتلهون ويلجأون عند الشدائد كما فى حالات العقم أو المرض ... الخ وتتعدد الآلهه أو الكائنات الروحية المقدسة لتشمل آلهه العشائر Clan divinities ويعتقدون أن لديها القدرة على حماية أولئك الذين ينتمون إليها أو الاساءة إليهم ، أنها تزورهم لفترات قصيرة من أجل الوساطه والتوفيق بين الإنسان والآلهه الأخرى ، قد تحل بالإنسان وتستحوذ عليه وتبتليه بالمرض أو الألم وقد تدفع عنه هذا البلاء[1] وآلهة العشائر هذه تمثل نوعا من القرابة الطوطميه إذا أنهم يعتقدون بأن هناك صلة وثيقة بين الإنسان والطوطم الذى انحدر منه وبالتالي إنزالة منزلة القداسة ، وتتخذ الطوطم اشكالا ماديه كالحيوان أو النبات أو القوى الطبيعيه أو الجماد ، فعند « الثان » Than مثلا طوطم يمثل روح المعشر وهو الثور ويسمونه كوار Kwar ويعتقدون أنهم من سلالة هذا الحيوان ولذلك فهو أصل لكل تقديس ، وتظهر معالم ذلك فى طرق عبادتهم ، فهو دون سائر الحيوانات يحرم على كل أفراد البطن لمسه أو الحاق الاذى به ... أما عندالأجار Agar فالتوتم نباتى تحوطه هالة من التقديس ، ومن مظاهر هذا

(*) يذهب Lienhardt إلى أن استخدام كلمه الله God واطلاقها على الآلهه الدنكاويه سوف تثير الكثير من المشكلات الميتافيزيقيه Metaphysical Semantic

(1) Deng, op. cite p 49 .

التقديس ترك النبات الذى يمثل الطوطم على حاله نموه الطبيعي فلا تلمس ثمرته ولا تؤكل ، بل يحرم عليهم قطع النبات ومن يفعل ذلك ففية تدمير لحياته ، كما أن الدخان الذى يتصاعد من احراقه كفيل بأن يوذى ببصره [١] ولا يقتصر البناء الكهنوتى المعقد عند الدنكا عند هذا الحـــد فهناك أرواح الاسلاف ancestral Spirits ويعتقدون فيها إلى حد بعيد ويخافون منها ويحاولون استرضاءها بتقديم القرابين والضحايا ، وعلى الرغم من اعتقادهم أن ارواح الاسلاف ذات طبيعة متمايزة عن أرواح الأحيـاء إلا أنهم يعتبرونهم امتداد طبيعى لحياتهم ، وأنهم قد يجلبون لهم الخير والشر ، ومن هنا جاء تقديسهم لها وممارسة الطقوس والشعائر نحوها .

أن مفهوم الالوهية Divinity عند الدنـكا يتلخص فى نظرتهم إلى أنهم محاطون بقوى أوأرواح أو كائنات أعلى مقدسه ومسيطرة ، ومن ثم يعملون على استرضائها بتقديم القرابين والضحايا ، يرى Déng أن الدنكاوى ينظر إلي الجنس البشرى كما لو كانـ خاضعا لقوه واحدة عليا لديها القدرة على الخلق والتدمير ، وطالما كان هؤلاء البشر مختلفين فإن آلهتهم مختلفه، ومن تم فإن لكل جماعة سواء اكانت عشيرة أو بدنه آلهتها الخاصهوالتى يعبر عنها الدنكاوى حين يتوسل إليها قائلا « يا إله أبى » أو « ياإله أسلافى » أو « ياأسلافى » وأنهم يلجأون إليها لاستعادة التجانس الذى كان قائما وخاصه حين يقاسى الانسان من سوء الحـظ أو المرض أو الوفاه ويعتقدون أن آثار الآلهة واضحة فى الكون تتمثل فى كل مالا يستطيع الانسان تبريره أو ادراكه ، وفى الحقائق

---

(١) د. احمد الخشاب ، المرجع السابق ص ٢٠٥ ، ٢٧٦ .

غـير المعروفة بالنسبة لهم ، فالرعد والبرق والمطر جميعها مرتبطة بالآلهة ، الرعد يتمثل فيه الصوت الغاضب للآلهة ، والبرق يشير إلى الهراوة المتوهجه والتى تمسك بها الآلهة لتقوض شـرور العالم وخطاياه ... الشمس تفهم كما لو كانت ترتحل من الشرق إلى الغرب ثم تعاود سيرتها في ظلام الليل دون أن يراها أحد، انجاب الاطفال هدية من الآلهة ، النساء اللائى لاينجبن ربما أسأن إلى أنفسهن أو اساء اليهن آخرون ، ربما تغير الآلهة موقفها إذا ماقـدمت القرابين والضحايا المناسبه [1] .

والآلهة لديها قدرة مطلقة فى الكشف عن الصدق والزيف أنها المسئول عن العدالة بين الناس ، إنها تقدم الجـزاء لأولئك الذين يستخدمون القسوة أو يكذبون أو يخدعون ... ليست هناك مشكلة ، فيما يتعلق بالمذنب أو الآثم فهم على ثقة أن الآلهة سوف تحقق العدالة ، وطالما قاسى الأفراد أو صادفوا سوء الحظ أو سقط الموتى ، أو مرض بعض الأفراد أو مرضت الابقار أو نفقت ، فهناك دوما أدلة مادية لأولئك الذين يرغبون فى تأكيد عـدالة الآلهه divine Justice ، ومن ثم كان الدنكاوى يكافح من أجل الحفاظ على التجانس بين ذاته والعالم الخارجى ، أنه يؤول التنافر الكوزمولوجى Cosmological discord والذى يتجسد فى الحظ العاثر ، فالتجانس مع العالم الخـارجى يمكن تحقيقه والوصول إليه إذا ما اتسقت مطالب الانسان ورغباته مع الأرواح والاسلاف إذ يمكـن رأب الصدع وتحقيق التجانس بالشعائر والطقوس ، الدنكاوى الذى اصابه المرض أو لحق به الحظ العاثر يبحث فى أعماقه ويستبطن ذاته عما

(1) Deng op. cite. p 52 .

اقترفه من ذنوب أدت إلى عدم التجانس ، وحتى فى الحالات التى يمكن معرفة أسبابها بسهولة كأن يسقط من فوق شجرة وتكسر ذراعه فانه يبحث عن السبب الذى اغضب الآلهة سواء اقترفه بذاته أو الآخرون من أقاربه (١) وفى جميع الأحوال فإن الآلهه تستدعي من أجل تصحيح الموقف وتحقيق التجـــانس .

وعلى الرغم من الاتصال الوثيق بين عالم الاحياء والاموات وعلى الرغم من اعتبارهم أن الموتى امتداد لعالمهم فان الدنكاوى يفزع من الموت ، فإذا مات أحدهم فان أقاربه يتجنبونه ، ويحرص الغرباء على عدم الاختلاط بذويه ، فلا يسمح لهم بتناول الطعام أو الشراب في منازلهم أو الالتقاء بهم فى المناسبات الاجتماعيه فإذا مات الدنكاوى مزقت النساء رداءها الجلدى وتركته جافا فلاتدهنه بالزيت من حين لأخر كما كان الحال من ذى قبل ، لاتتزين بالودع أو الخرز ، يهيلن التراب على رؤسهن ويتركن أجسامهن بيضاء من تأثير الرماد والتراب ، يهملن شعورهن ويحرص اقارب المتوفى على القيام باحدى الشعائر المعروفه Cvol بعد وفاه الذكر بثلاثة أيام أو أربعه أيام للانثى ، حيث ينحر أحد الكباش ، وبعض الدجاج كقربان للآلهة فى منتصف الليل ، ولا يأكل الاقارب من هذه اللحوم وربما يأكلها أخرون من غير الاقارب ، وتستهدف الشعيرة مقاومة المرض واستبعادة عن الاحياء ؛ عندما يموت أحدهم يقولون « لقد جاءت به الآلهه وها هى قد أخذته » أنهم يصلون للالهه والارواح الاخرى كما لو كان المتوفى مستمرا فى الوجود فى مكان أخر (٢) وأن روجه تظل تهيم حـــول قبره أو مسكنه

(1) IBid, p, 53 .

(2) IBid, p. 21 .

ويبتهلون إليها أن تساعدهم وتحميهم من الامراض والمصائب وأن تعينهم على الشئون الدينوية ، أنهم يعتقدون أنها سوف تحل باجسادهم وتساعدهم على الشدائد ، وتحقق لهم مايريدون ثم لاتلبث أن تفارقهم ، ومن ثم يستدرون عطفها من حين لآخر ويقدمون لها القرابين ، يقولون «بأسلاف الاب الاعظم Luol بأسلاف الاجداد Ayok أناديكم في صلواتي من أجل أن تدعموناو تزورونا زيارة عابره وتسمعون لنا فنحن اطفالكم ، أن الانسان إذ دعى آلهة الآباء فسوف تحقق له مايريد ، ساعدونا أن الشيطان يباغتنا لينال منا ،[1] وهم يحرصون على ألا تغضب أرواح الاباء أوالاسلاف ويتذكرونها في كثير من مواقف الحياة اليومية ويقيمون نحوها الشعائر والطقوس، كما يحدث في بعض حالات الزواج حين يتزوج الرجل من فتاه يتيمه الاب فانه بالاضافة إلى المهر المتفق عليه من الابقار — كما سبق أن اسلفنا — يقوم بتقديم أضحية تسمى Acama ويمكن أن تكون ثوراً أو شاه أوماعز إذا ماكان الزوج فقيرا معدما ويعتقدون أن عدم تقديم هذا القربان للاب المتوفى سيؤدى إلى وفاه أرملته (أم العروس) إذا ماشربت اللبن من الابقار التى دفعت كمهر في أبنتها ، بل تلقى حتفها إذا ماوطئت قدماها روث هذه الابقار .

وتنحر القرابين ليلا خارج القطيه التى تسكنها أرملة المتوفى،وعاده مايقدم أهل الفتاه الرمح الذى يستخدمه من قتل الـ Acama ليصبح ملكا لمن يقوم بهذه الشعيرة ، فضلا عن الفأس التى يجمع بها الدم والنفاية المتبقية من الذبيحة لنقلها إلى مكان بعيد ، أما عمة الزوج المرتقب فتعطى قدر من الماء وسلة مملوءه

---

(1) Lienhardt op, cite. p. 106 & p. 39 .

بالرماد لتعيد طلاء كوخ أم العروس من الداخل ، والجدير بالذكر أن لحم Acama يؤكل بواسطة اقارب العروس وخاصة النساء ليقمن بعد ذلك بتجفيف عظام الضلوع فى الشمس ويحملنها إلى حيث يقيم الزوج وهناك تغلى العظام ويوزع الحساء على الاطفال دون البالغين [1] ولاشك أن تقديم مثل هذه القرابين إلى أرواح الاباء ماهو إلا نوع من الترضية فى محاولة لاستدرار عطفها وتأييدها لما سوف يقدمون عليه ، ودرءا لغضبها الذى قد يودى بحياة أرملته إذا ماتجاهلوا أرواح الاباء .

ولايقتصر تقديم القرابين على مثل هـــذه المواقف فهناك دوما العديد من المناسبات التى تقدم فيها القرابين والضحايا، كالرغبة فى الإنجاب أوعقم الزوجة أو تفاديا للشرور التى قد تلحقهـا آلهه الشر بهم Macardit والتى يعتقدون أنها نوع من الآلهه لاتستهدف إلا أيقاع الضرر بالإنسان والقضاء على الخصوبة والنماء والحياة أينما كانت، تعاملهم بقسوة دون عطف أو احترام، أنها مصدر الشرور والاثام ، ومن ثم لايتوسلون إليها لتساعدهم على تحقيق الخـــير أو المنفعه ، وأن كانوا يقدمون لها القرابين درءاً لشرورها واستدرارا لرحمتهـا بهم ، ويرى Lienhardt أن هناك فارق بين القرابين والضحايا التى تقـدم للالهه الخيرة ، وتلك التى تقدم لهـذه الالهه المؤذية Malign divinity . ففى الحالة الأولى فإن لحوم القرابين تسلق ، لأن الشواء وهو قاصر على اللحوم التى تقدم لـ Macardit فيه امتهان لها، هذا بالإضافه إلى أن القرابين التى تقدم للالهه انما يحتفى بها فى وسط التجمع السكانى ولدى الزوجة الأولى ، وألوانها يغلب

---

(1) Seligman op, cité. p. 176 .

عليها اللون الأبيض أو الأحمر أو البنى ... ألوان مبتهجه تدعو إلى التفاؤل
فى حين نجد أن القرابين التى تقدم لـ Macardit انما تنحر أمام بيت الزوجة الصغرى
وقد تنحر فى أطراف الارض الزراعيه بعيداً عن الاكواخ ويغلب عليها اللون
الاسود (١) كما يحرص الدنكاويون على تقديم القرابين من أجل سقوط المطر
ويعتقدون اعتقادا بالغا فى شخصية Ban Bith (صانع المطر) والذى يحتل مكانه
مرموقة فى العشيرة ، وأن هناك صله مابينه وبين Lerpio ولديه القدرة على
التوسط إليه من أجل اسقاط الامطار، من أجل ذلك فإن دنكا الـ Rek على
سبيل المثال قد يتكبدون المشاق ويرتحلون نحو ٧٥ ميلا من أجل تقديم الثور
كقربان لصانع المطر، وحتى يصلى من أجل أن تسقط الأمطار فى منطقه الرك
الوسطى (١) ، وطالما يلجأون إليه من أجل مايسمونه برقية الجفاف Yak ،
ولا تقتصر مهمة صانع الأمطار على الوساطة لدى Lerpio بل يتجاوزها إلى
شفاء الأمراض وابعاد الارواح الشريرة التى سبق الاشارة إليها منذ قليل ،
فضلا عن وظائف أخرى تستهدف رفاهية الجماعة والتغلب على الصعاب التى
تواجهها .

وتختلف شخصية صانع الأمطار Rain - maker فى مجتمع الدنكا عن
شخصيته لدى قبائل «المندارى» حيث يعتبر فى تلك الأخيرة بمثابة حارس المطر
والارض والمصادر الطبيعية وحيث يضطلع Marlokudu بطقوس المطر سنويا
إلا أن «المندارى» يميزون بينه وبين مايسمونه بزعيم الانهار والأشجار
Marlotor ، وأن كانوا يحرصون على تقديم القرابين لهاتين الشخصيتين

---

(1) IBid, p. 78 .

الدينتين الهامتين ، ولا يقتصر دورهما على الأمطار والخصوبة والنماء ، وإنما يساعدان الناس فى التغلب على الكوارث وسوء الحظ والمرض[1]. ولا يختلف هذا كثيرا عما نجده لدى قبائل Lugbara فى الكونغو حيث يضطلع صانع المطر opiezo بهذه الوظائف تقريبا وقد يبذل جهدا ملحوظا فى القضاء على الصراع القبلى لما له من تأثير سياسي واضح[2] .

بيد أن هناك نوع من الشعائر Rites قد لا تقترن بتقديم القرابين إلا أنهم يحرصون عليها من حين لاخر كتلك التى تستهدف الوقاية من الملاريا أو تلك التى تمارس من أجل الانتصار فى حروبهم القبلية (خاصة فيما مضي) . يذكر Nunn فى مقال له Dinka Public Health ، أن شعيرة الملاريا تتم سنويا فى أوائل نوفمبر حيث يتوقعون انتشارها ، فيتجمع الناس من القرى ويتجهون صوب النهر فى الصباح الباكر كل يحمل كمية من السرغوم «نبات يشبه الذره» Sorghum ، وبعض السيقان الاخرى من نفس النبات بعدد أولئك الذين ينتمون إليهم ولم يستطعوا المشاركة فى الشعيرة ، ويتولى أحد زعماء الرمح صانع المطر Banbith الذى أشرنا إليه منذ قليل الاشراف على هذه الشعيرة ، ويستطرد Nunn قائلا « أن الزعيم الدينى وبعض كبار السن يتجهون إلى النهر حيث ينشدون ويرتلون ويحركون أيديهم كما لو كانوا يغنون له ، ثم يتقدم صانع المطر ويغطس فى نهر ويتبعه الحاضرون جميعا ويرشون بعضهم البعض

(1) Buxton, Jean, op. cite p. 83 .

(2) Middleton, John, the Political System of the Lugbara of The nilo Congo Divide: in Tribes without Rulers. p. 224 .

بالماء ، ويهتم الآباء بمس أبنائهم بصفة خاصة ممسكين فى أيديهم سوق العنرغوم ، التى تمثل أقاربهم الغائبين ، ثم يخرجون من النهر وقد أمسك كل منهم بأحد جذور أوفروع النباتات التى تنمو على حافتة ليضعها حول رقبته طولة اليوم... أنهم يعتقدون أن ممارسة هذه الشعيرة انما تخفف من حدة الملاريا وقد تحول دون الاصابه بها .

أما شعائر الحرب فتلك على قدر كبير من الأهمية حيث يتولى الزعيم Beyn دهن أرجل المحاربين من عند الركبة بالبن والزبد متوسلا للاله أن تهدىء من روعهم وتنزل السكينه على قلوبهم وأن تمنحهم الشجاعة ليحققوا النصر على اعدائهم فإذا ماأتم Beyn ذلك دهن نفسه بالزيت ونثر بعض التراب على رأسة وجلس في الشمس المتوهجه بقية اليوم صائما عن الطعام مصليا لنجاح جنوده وهم على قناعة بالغة من أن الكائن الأعلى سيقف إلي جانبهم في الاوقات العصيبه (١) .

من هذا العرض الموجز لهذا النسق المعقد يتضح أن الدين لدى مجموعة قبائل الدنكا يشير إلي مجموعة من التصورات الذهنيه تتمثل فيها ثنائية واضحة لعالمين متمايزين عالم الآلهة والارواح المقدسه وعالم البشر . وأن هذين العالمين رغم أنها غير منفصلين — إلا أنها من طبيعتين مختلفتين، ولكنها يعملان معا فى عالم واحد ، وأن عالم الآلهه والارواح يشمل على آلهه مشخصه كما يشتمل على الكائنات الحيوانية والنباتية والتى يخلعون عليها العديد من الصفات والخصائص كالخلق والخصوبة والنماء والصحةوالقوةوالمرض والفناء،ومن ثم

(1) Lienhardt op. cite p. 105 .

يقترن نسقهم الدينى بمجموعه من الممارسات والشعائر وثيقة الصلة بالآلهة والاشخاص المقدسين تستهدف تحقيق التجانس بين الانسان والعالم المحيط به معتقدين أن كل مايصيب الانسان من الآم وامراض وكوارث واحباط أو نجاح وازدهار مردة إلي هـذه الآلهه أو عالم الارواح أو الاسلاف ومن ثم فإن تحقيق التجانس هـــذا لايتم إلا عن طريق تقديم القرابين والضحايا والابتهالات والصلوات .

٭ ٭ ٭

الفصل السادس

التيف The Tiv

— الظروف البيئية .
— فى البناء القبلى والعائلي
— النشاط البشرى
— نسق الضبط الاجتماعى
— نسق المعتقدات



خريطه تبين موقع النيف وبعض القبائل الأفريقيه الهامة



التيف The Tiv *

إذا كانت مجموعة قبائل الدنكا تشكل أكبر المجموعات القبليـة فى جنوب السودان فإن قبيلة الـ Tiv النيجيريه تعتبر بدون شك من أكبر الجماعات القبلية فى شمال نيجيريا ، إذ يتجاوز عدد سكانها فيما يقول Bohannan المليون نسمة نزحوا إلى اقليمهم الحالي من الجنوب الشرقى لنيجيريا ليعيشوا فى سهل منبسط بالقرب من نهر Benue ورافده الهام Katsina Aha .

وتتميز منطقتهم بالارتفاع والذى قد يصل فى بعض أجزائه إلى عدة مئات من الاقدام كما هو الحال فى المناطق القريبة من النهر فى الشمال والجنوب (٣٢٥ قدم) وقد يزداد الارتفاع ليصل فى بعض المناطق الأخرى إلى عدة آلاف من الأقدام خاصة عند هضبة Bauchi فى المناطق المتاخمـة للكاميرون والتى تعتبر امتداداً طبيعياً لها، وكذلك جبال Son Kwala فى الجنوب وأن كان ارتفاعها ينخفض ليصل إلى نحو ١٣٠٠ قدم .

والمنطقة فى عمومهـا مغطاة بأعشاب السفانا الطويلة والأشجار القصيرة والتى لا يتجاوز طولها عشرة أقدام خاصة على ضفاف النهـــر وفى المنطقة

---

* اعتمدنا فى هذا الجزء على الدراسات الميدانية التى قام بها - Paul Bohannan والتى نشرت عام ١٩٦٥ ، وكذلك الدراسة التى قامت بها زوجته Laura لنفس المنطقة ونشرت فى الستينات أيضا ، فضلا ، عن دراسات أخرى قديمة العهد كتلك التى قام بها Ruppert East فى العشرينات ومراجع أخرى سوف نذكرها فى حينه .

الشمالية (١) يحدهم من الشرق قبيلتا Chamba & Jukun ومن الغرب قبيلة Idoma ومن الشمال قبائل Koro & Bassa & Angwee وقد تتشابه هذه الجماعات القبلية مع الـ Tiv من الناحيتين الاجتماعية أو السياسية ، إلا أن هناك تبايناً واضحاً في اللغة .

يذهب Greenberg إلى أن للتيف لغة متمايزة تنتمى إلى أسرة اللغات النيجر وكونجيه niger - Congo وهى تحتل مكانه تماثل تلك التى تحتلها أسرة لغات البانتو Bantu ، وقد كان اللغويون إلى عهد قريب يعتبرونها إحدى لغات البانتو ، والجدير بالذكر أن لغة التيف تشتمل على عدد من اللهجات المتباينة — كما رأينا عند مجموعة قبائل الدنكا — وتختلف مفرداتها واستعمالاتها إلى حد كبير كما يقول Arnott (١٩٦٤) . إلا أن Paul Bohannan يذهب إلى « أنهم أقرب شبها بجيرانهم من قبيلة Jar فى هضبة Bauchi خاصة أولئك الذين يعيشون فى جنوبها الشرقى ، ويبدو التشابه فى كثير من السمات الثقافية خاصة اللغة والدين ، إلا أن التباين يبدو واضحاً إذا ما قورن بينهم وبين جيرانهم من القبائل التى تعيش فى مناطق البانيتون Pantheon * فى الاقليم الساحلى » .

وعلى الرغم من الأرض المنبسطة ونمو الأعشاب الطويلة فإن الـ Tiv

(١) Bohannan , Paul , « The Tive of Nigeria » in Peoples of Africa , Edited by James Gibbs , Holt , Rinehardt and Winston Inc°., 1965 , P. 515.

* هيكل الآلهة .

لا يعرفون الرعى أو الحياة الرعوية كتربية الماشية أو الأبقار على النحو الذى ذكرناه عند الدنكا ويمكن اعتبارهم مزارعين إلى حد كبير ، إذ أن ظروفهم البيئية الصعبة والتى تتمثل أساساً فى إنتشار ذبابه التسى تسى Tse Tse قد أثر على ثروتهم الحيوانية ، فتنوعهـــا محدود للغاية ومع هذا فإن التسهيـــلات الأيكولوجية تسمح لهم بزراعة الحبوب فى الشمال وبنمو اليام Yam فى الجنوب ...

* * *

وبنائهم القبلى يقوم أساساً على البدنة الأنقساميـــة كما أشار Bohannon ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ ، و Sahlins ١٩٦١ فى معالجتها للنسق السياسي للتيف Tiv Political System ، فالقبيله تنقسم إلى عدد من البدنات nongo ، أى يمكن النظر إلى النسق الاجتماعى الكلى عند الـ Tiv على أنه مجموعة من البدنات أو تكتل لبدنات ننتمون إلى جد واحد هو مؤسس البدنه الـ Tiv نفسه ، كل عضو فى هذه الجماعة يمكنه أن يتتبع انحداره السلالى (سواء أكان هذا الإنحدار حقيقيا أم زائفاً) حتى يصل الى مؤسس البدنة ، هذ يعنى (نظريا) ارتباط البدنات جميعها فى نسق كلى يحمل فى ذاته خاصية الإنقسام المستمر نتيجة لظهور بدنات جديدة باستمرار .

هذا النسق الإنقسامى يشكل أساس العائلة كما يشكل الأساس للوحدة المعيشية ، كما يشكل أيضاً فيما يقول Bohannan الأساسى لنمط الاستيطان Settlement Pattern(١)

(١) IBid, p. 525 .

وهم في استخدامهم لكلمه الـ nongo إنما يستهدفون وصف الانقسامات الأساسية وتحديد هويتها بالإشارة إلي الممثلين الإحياء للبدنة كأحد الأفراد الإحياء البارزين (شيخ أو زعيم أو رجل ذو سلطه وتأثير ، أحد كبار السن المبرزين).

كما يشتمل الاصطلاح علي متضمنات عاطفية ترتبط بالالتزامات تجاه القرابة العاصبة من الاحياء * . ولعل أهم مايميز النسق الانقسـامى للبدنة ظاهرة عدم التشتت لاقسام البدنة أو الوحدات الاجتماعية الداخله فى تكوينها على النحو الذى لانجده لدى مجموعة قبائل الدنكا ، فالجماعات المحليه مدمجة إلي حد كبير ومن ثم يمكن القول وعلى حد تعبير بيتر هاموندPeter Hammond أن كل بدنة Lineage تشغل منطقة معينة أو إقليم واحـد ، وتتجاور البدنات فى مناطق متقابله متلاصقة إلى حد بعيد ، حيث القرابه العاصبة تشكل محور الحياة اليومية وتحدد شبكة العلاقات الاجتماعية ... هذه البدنات المتعددة المتجاوره إنما تتحد فى بناء متمايزا فى أوقات الحرب لمواجهـة أولئك الذين يشكلون بناءا متمايزا آخر ، أما فى حالة السلم فليس هناك تهـديد خارجي وليس هناك حاجة للتوسع الإقليمى وحيث تتوفر السلع ، وبالتالى فإن الحاجة إلي التضامن والاتحاد محدوده[1].

وعلى الرغم من أن البدنه تشكل جوهر التنظيم السياسي لدى التيف إلا أنه

(*) والجدير بالذكر أن الارتباطات المتعلقة بالأسلاف والأجداد لاوجود لها عند الـ Tiv على النحو الذى وجدناه عند مجموعة قبائل الدنكا.

(١) Hammond, p., op. cite. pp. 233--234.

يمكن القول أن الـ Tar أو البدنة الجزئية تشكل محور الحياة اليومية . والإصطلاح يستخدمونه للاشاره إلى المنطقة التى تشغلها الجماعة القرابية ، ويمكن القول إنها مشابهه تماما لما نسميه نحن فى مجتمعاتنا القبلية «بالنجع»، حيث يعيش أولئك الذين ينتمون إلى الجماعة القرابية العاصبة فضلا عن الأقارب وغيرهم من الأفراد الذين منحوا حق الإقامة والمشاركه في العمليات الزراعية الـ Tar إذاً يشكل وحدة جغرافية معيشيه اقتصادية(١). ويمكن القول أن هذه الوحدة تشتمل على العديد من الجماعات الاجتماعية أو الزمر Bands ويتراوح تعداد كل منهـا بين ٧ ، ١٥٠ فرداً (من ثلاثة أكـواخ إلى نحو ٤٠ كوخا) ، وتمثل هذه الجماعة الاجتماعية مركز الثقل من حيث التضامن والولاء ، حيث الروابط العائليـة ، والقرابة ، والجوار الاجتماعي ، والاعتماد الإقتصـادي المتبادل والإقامة المشتركة ... إلخ . وعلى هذا نجد أن الـ Tar يشتمل على عدد من الزمر أو الجماعات يتراوح أعدادها بين ١٥٠ و ١٥٠٠ نسمه(٢) .

فإذا ماأردنا إلقاء الضوء على السلطة أو مصدر القوة في نسق البدنه الانقسامى هذا لوجدنا أن السلطة غير مركزية فلايوجد زعيم مسئول يعهد إليه بالسيطرة أو التأثير ، وهذا لايمنع دون شك أن هناك أدوار محدده يضطلع بهـا بعض الأفراد على مستوى الـTar* ، ولعل من الجدير بالذكر

(1) Bohannan Paul; Justic and Judgement among the Tiv, Butler & Tanner, Ltd. London 1968, pp. 1—5.

(*) هذا يعنى أن ليس لديهم سلطة سياسية متخصصة ومنظمة ، حيث الأدوار يضطلع بها جهاز إداري محدد .

(2) IBid, p. 5.

هنا أن نذكر ماذهب إليه Max Gluckman فى مقال له عن مدخل لدراسة الانساق السياسية فى أفريقيا ، وفى معرض معالجته الارتباط بين الزعامة والكثافة السكانية حيث أوضح أن المجتمعات الصغيرة نسبياً قد يكون لديها نظام للزعامة القبليه مثل Tikopia . . ، وأن هناك أوضاع يشكل فيها السكان وحدة سياسية دون أن تكون لديهم زعامة ... بل يذهب إلي أن بعض الأجزاء المأهوله بالسكان مثل مناطق الـ Tiv والـ Bantu بالقرى من بحيرة فكتوريا حيث الكثافة السكانية . نحو ٢٠٠ نسمه فى الميل المربع . تفتقر إلى الزعامة بينما نجد أن جماعات Zulu & Bemba كثافتها دون ذلك بكثير « نحو ٤ نسمه فى الميل المربع» ومع ذلك لديها نظام زعامى واضح ، ويبرر Max ذلك بقوله أن التنظيمات الحكومية لدى هذه الجماعات قد تستهدف تحقيق نوع من التنمية الإقتصادية وهذا قد يؤدى إلي ضعف البناء السياسى التقليدى واختفاء الزعامات التقليدية[١] ... فالزعامه لدى الـ Tiv لاتظهر إلا على مستوى الـ Tar حيث أفراد قلائل يناط بهم إتخاذ القرارات وتحقيق السلطة والتأثير ، ولاشك أن وجود هؤلاء الزعماء من الأهمية بمكان لتحقيق التوافق بين الأنماط السلوكية والمعايير الاجتماعية وهؤلاء القادة أو الزعماء يتمتعون بالسلطة والتأثير فى مجالات محدودة وتستهدف محاولاتهم حفظ الأمن والاستقرار ووضع حد للخلافات والاضطرابات وتسوية المنازعات كما سوف نرى.

(I) Gluckman, Max; Poltics Law and Ritual in Tribal Societies, Printed in Great Britain, For Basil Blackwell and Mott, Ltd, 1965 pp. 84—85,

والأشخاص الذين يناط بهم من ذوى النفوذ يطلقون عليهم Shaghaor ولهم قدراتهم الخاصة التى تفرض نفسها فى عمليات النصح والإرشاد والتوسط والتفاوض وإصدار القرارات ، إذ ينبغى أن يكون مثل هؤلاء القـادة على دراية بالعــــرف القبـلى والتاريـخ الشخصى والجينولوجى Geneological and personal history لقرابته العاصبه ، هذا فضلا عن صفات أخرى تقرها الجماعة كالمعرفة الواصفة بالطب الشعبى والسحر أو على حد زعمهم لديه القدرة على المنح السحرى ، وهذا مرده إلى أن الزعيم ينبغى أن يمتلك قوة الـ Swem والتى بواسطتها يستطيع أن يحقق لتابعيه أزدهار الأرض والخصوبة والنمـاء للمحاصيل وتكاثر الحيوان وسقوط الأمطار ، بل وشروق الشمس فى أوقاتها فضلا عن تحقيق الأمن والاستقرار ... ويعتقدون أن هذه القـوة تتفاعل مع حاملها وقد تتغلب عليه إذا أحنث فى قسمه ولم يفى بعهـــــده أو ارتكب أحد الشرور والآثام ، بل قد تؤدى بحياته ؛ وقد يضفون على الزعيم صفات الكرم والثروه ٭ والشهامة والذكاء وتلك خصائص تعطيه القـدرة على التأثير فى تابيعيه وبالتالى إتخاذ القرارات (١)

٭ ٭ ٭

وعلى الرغم من أن البدنه تشكل الجوهر الأساسى للتجمع البشرى فإن العائلة بدورها تشكل جوهر المجتمع المحلى وتنتظم عادة فى تجمع لأكواخ فى

٭ ومن ثم القدرة على شراء العبيد خاصة فيما مضى .

(1) Middleton & David Tait , Tribes without Rulers ; Studies in African Segmentary Systems , Routledge & Kegan Paul Ltd . pp. 53 - 59 .

شكل دائرى حول كوخ الضيافة أو الاستقبال ويسمونه Ate ويعتبر بمثابة عالم الرجل ، كل زوجـة لها كوخ على بعد أمتار من الكوخ المستقل للرجل حيث تعد طعامها وتعيش مع أطفالها ، وترتب أكواخ النساء عاده وفقـاً لاقدميتهن فى الزواج فالأقدم ثم الأحدث فالأكثر حداثة ، والاسرة قوامها الزوج وزوجاته وابنائه ، ثم أكواخ الأخوة الذكور الأشقاء ثم غير الأشقاء ، ويرى Bohannan أن هذا الحشد من الأقارب إنما يشكل نوعا من البدنة الأولية Incipient Lineage ، فإذا أضفنا إلى ذلك أبناء العمومة وزوجاتهم وأبنائهم ، وما يترتب على هذا البناء القرابى من شبكة واسعة من العلاقات والإلتزامات العائلية والقرابية وعلاقات الجوار [1].

من خلال هذا النسق الإنفسامى نستطيع أن ندرك نوعا من العائلة التقليدية تقوم على أساس تعدد الزوجات يشابه هذا النمط الذى أشرنا إليه عند الحديث مجموعة قبائل الدنكا ـ إلا أن هناك دون شك اختلافا واضحاً ورؤية مغايرة سوف تتضح لنا بعـــد قليل ، مرد هذا الاختلاف إلى الشكل الذى أرتضته الجماعة القبلية كنمط مفضل للزواج وما يرتبط به من نظام الوصاية فضلا عن المهر النقدى ، وما ارتبط بذلك من نتائج بعيدة المـــدى تمثلت فى العلاقات الزواجية الهشة ، بل يمكن القول أن الزواج والعائلة لدى الـ Tiv يعتبران بمثابة المصدر الرئيسي لمشكلاتهم ومنازعاتهم وقضاياهم اليومية على نحو ما سنرى

وحتى تتيسر لنـا المزيد من الرؤية والوضوح ينبغى أن نعالج موضوع الزواج على مرحلتين الأولى ما قبل عام ١٩٢٧ والثانية تتمثل فى التغييرات

(1) Bohannan, op. cite p. 528.

التى أدخلتها الإدارة البريطانية والتى طرأت على أسلوب الزواج وطريقتـه ، ومن ثم يتسنى لنا أن نعرض للنتائج التى ترتبت على هذه التغييرات بل أن نقدم تبريرا لماذا أصبح الزواج والعلاقات الزواجية لدى الـ Tiv تشكل المصدر الرئيسي للمنازعات والخلافات فى حياتهم اليومية .

كان التيف حتي عام ١٩٢٧ يقرون ويمارسون نوعا من الزواج التبادلى Exchange Marriage . إذ جرى العرف أن تقوم البدنة الجزئية Sub Lineage أولئك الذين يعيشون فى منطقة جغرافية واحدة بتوزيع الفتيات على أفرادها من الذكور كنوع من الحماية أو الوصاية من جانب هؤلاء الذكور على الفتيات ومن ثم يحق للرجل تبادل الفتـــاة التى فى وصايته بأخرى من وصاية آخر ليتخذها زوجة له .(١)

وقد ذكر لنا R . East أن عملية التبادل هذه تتم بين مجموعة الأقارب العاصبين والتى أطلق عليها the Ingol group أو أولئك الذين يأكلون من « انجول واحد » ، فالرجل يبادل الفتاة التى في وصايته وقد تكون ابنتـه أو أخته أو ابنه أحد أقاربه العاصبين من أجل الحصول على زوجه أو من أجل الحصول على زوجة لأحد أقاربه ممن فى لايته أو ممن يعيشون معه فى وحدة معيشية واحدة . ولا يستطيع الحارس أو الوصى أن يتزوج بتلك التى فى وصايته وأن أى علاقة من هذا القبيل تعتبر نوعا من الزنا .

فأختيار الشريك لدى التيف رهن بوجود ثلاثة أطراف كل منهم على درجة من الأهمية ــ الزوج والزوجةوالوصي Tien ، وهذا الأخير يعتبر

(1) Bohannan , Paul , op . cite p. 525

بمثابة الخال بالنسبة للزوجة ويمارس نوعا من المسئولية تجـاه الفتاة التى فى وصايته .

وكانوا يعتقدون أن هذا النوع من الزواج التبادلى هو أفضل أنواع التبادل لأنه يحقق خصوبة المرأة ، وبالطبع فإنهم يدركون أنة لا بد من أن تكون العلاقـة على الرغم من هذا بين طرفين على درجة من التجانس ، ومع ذلك فإن Bohannan يرى أنهم يتحايلون فى حالة ما إذا رفضت المرأة ذلك الذى أرتضاه وصيها ، بأن تفر مع ذلك الذى تريده زوجا لها ، وأن هـذا الوضع يترتب عليه نوع من « الدَّين » بالنسبة لذلك الذى تزوجها فيصبح مديناً للوصي السابق عليها ، وقد جرى العرف على أن يقوم بسداد دينه عندما تكبر إحدى بناته من هذه الزيجة — إذا لم يكن لديه فتاه يقدمها لهذا الوصى فى حينه — وتصبح فى نحو السادسة عشرة أى سن الزواج ومع هذا فإن هذا الوصى لا يستطيع الزواج من هذه الأبنة وإن حدث هـذا فإنه يعتبر من قبيل الزنا أيضا . وإنما يصبح وصى لها يمكن أن يقدمها من أجل زوجـة له أو لأحد أقاربه العاصبين ، أن وصايته الطارئة هذه بمثابة نوع من التعويض عن الدَّين القديم قبل ابيها [١].

من الواضح أننا تجاه نظام للزواج على درجة عالية من التعقيد خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار تعدد الزوجات ، وأطراف العلاقه ونظام الأوصياء وعلاقات « الدَّين » المستمرة أو المتأخرات arrears وتلك جميعها تنسج شبكه قويه من العلاقات المستمرة .

(1) Ibid , p. 525

لقـد أقرت جماعة التيف Tiv هذا النـــوع من التبادل لسنوات طويلة واعتادوه طويلا حتى جاءت الإدارة البريطانيه وأعلنت فى عام ١٩٢٧ إلغاءه ، ولقد أعطى أحد هؤلاء الإداريين مبرراً للالغاء بأنه نسق معقد للغاية بالنسبة إليهم (الإداريين البريطانيين) ولا يمكن فهمه ، ولا يعتبر هذا الزواج التبادلى هو النوع الوحيد لديهم ، بل أن هناك أشكالا أخرى من الزواج لعل أكثرها شيوعا ما يسمى بزواج الـ Kem أى زواج المهر * وبمقتضاه يقدم الزوج بعض الهدايا على دفعات والتى تتمثل أساسا فى كتل أو مقادير من النحاس إلى الحارس أو الوصى ... ألغت الإداره البريطانيه هذه الأشكال من الزواج ونادت بأن زواج المهر التقليدى هو الشكل المشروع وأنه ينبغى أن يدفع الزوج مهراً لزوجته ، وقـد كان هذا بالنسبة لهم غير مألوف خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار عدم وجود الماشية على النحو السائد لدى العديد من القبائل المجاورة ، ومن ثم رأت الإدارة البريطانية أن يدفع المهر نقداً ، وفي الحقيقة أن هذا كان امتداد للسياسات الجديدة التى استهدفت إدخال الاقتصاد النقدى والتى قلبت رأسا على عقب الأوضاع المعتادة للسلع المتبادلة ، وكان له تأثير عميق على حقـــوق التبادل المتعلقة بالنساء ، فإذا أخذنا فى الأعتبار أن هذا المجتمع يعترف بتعدد الزوجات Polygynous Society ويحرص عليه ، كان هناك حاجة ماسة إلى بيع الإنتاج أو تقديم الجهد فى مقابل الأجر النقدى من أجل الحصول على المهر وأصبح من المعتاد لديهم أن يدفع المهـــر من أجل « إزالة الصدفة » صدفة حلزونية الشكل توضع حول رقبة الفتاه للدلاله على عذريتها (فى بعض الأحيان تحرص المرأه على وضعها حول رقبتها خاصة بعد

---

* وتلك ترجمة تقريبية ليست دقيقة ، والكلمة Kem تعنى فى لغة الـ Tiv الفعل « يتراكم » .

انقطاع الطمث) وبعد دفع المهر إلى الوصى يتم الزواج[١].

ومن ثم أصبح الزواج والعلاقات الزوجية من أكثر المجالات تعرضاً المنازعات والخلافات نتيجة لإلغاء تبادل الزوجات التقليدى عن طريق الأوصياء وعلى الرغم من استمرار المبدأ الأساسى المتمثل فى الزواج من خلال الجماعات القرابية العاصبية أو الـ Iugoy group إنهم مازالوا يوزعون فتياتهم بين أنفسهم ولكن بدلا من تبادل الفتيات اللائى فى وصايتهم مباشرة من أجل الحصول على زوجات ، أصبح هؤلاء الأوصياء يحصلون على المهور وعادة ماتدفع نقداً مرة واحدة أو على دفعات ، أى أن الوصى على المرأة يتقاضى مهرها بدلا من حصوله على امرأة أخرى فى تبادل مباشر ، وفى الحقيقة أن ضعف العلاقات وإثارة المنازعات مرده إلى أن نظام الأوصياء التقليدى كان يدعم العلاقات القرابية إلى حد بعيد ، بل أن عدم الوفاء فى عمليات التبادل بين الطرفين من « الدين » يجب الوفاء به إن آجلا أو عاجلا ، ومن ناحية أخرى فإن دعم العلاقات فى النظام التبادلي التقليدى مرده إلى وجود شبكة متداخلة من العلاقات الزواجية والقرابية (جماعة الأنجول Ingol group) والعلاقة التبادلية بين الأوصياء والتى تنعكس فى التعاقدات الفردية بين طرفى العلاقة على نحو مارأينا ، وتلك الأخيرة من الأهمية بمكان ففى كثير من الأحيان كان يمكن النظر إليها على أنها دعم العلاقات والروابط المستقبلية ، وقد ترتب على هذه التغييرات إحداث نوع فى الفصل بين علاقات القرابة والزواج من ناحية وعلاقة « الدين » بين الأوصياء من ناحية أخرى أو بمعنى آخر حذف تلك الأخيرة الأمر الذى ترتب عليه أضعاف العلاقات الزواجية عن ذى قبل وأصبح الانفصال بين الزوجين رهن فى كثير من الأحوال برد المهر Kem أو

---

(١) Ibib, p. 527,

الوفاء به على نحو ماسنرى فيما بعد » .

ويذهب Bohannan أي أن هناك تغييرات مرتبطة تمثلت فى أن التيف أنفسهم كانوا يشعرون بالقلق العميق تجاه الأوضاع المناسبة المرتبطة بزواجهم ودور الاقارب والأشقاء تجاه بعضهم البعض وانخفاض سن الزواج بالنسبة للرجل لارتباطه بالقدرة على الحصول على المهر ... الخ ، ولقد ساعد على انتشار ظاهرة تعدد الزوجات أن الفتيات اللائى فى سن الزواج تفوق نسبة الذكور ، وعلى الرغم من أن هناك نسبة كبيرة من المتزوجين بواحدة نحو ٧٠ ٪ إلا أن ٣٠ ٪ لديهم أكثر من زوجة فى وقت واحد ، ولا يعنى هذا أن ٧٠ ٪ لم يعرفوا التعدد بل أن نسبة كبيرة منهم قد عرفوه إلا أنهم آثروا الاحتفاظ بزوجة واحدة أو أن زوجاتهم رفضن الاستمرار مع زوجات أخريات إذ كثيراً ماتترك المرأة زوجها أما بسبب كراهيتها لزوجاته الاخريات ولا تستمر الزوجة فى العادة إلا إذا شعرت بالالفة معهن ، وأما لأنها تؤثر الارتباط بآخر (١) .

وقد أجمع الباحثون الثلاثة الذين اهتموا « بالتيف » على أن العلاقة الزواجية هشة brittle للغاية ويمكن انفصام عرى الحياة الزواجية بسهولة إذ ماقورنت بالعلاقة الزواجية عند الدنكا مثلا فإنهم لا يعرفون الطلاق بالمعنى التقليدى ، بل لا يسمحون به إلا فى حالات نادرة ، وأنه من الناحية العملية

* يمكن الرجوع إلى Paul Bohannan فى مقال له بعنوان Some principles and investment among the Tiv in American Anthropologist وإلى Laura B. In فى كتاب لها بعنوان Tiv Economy وكذلك الفصل الثالث من كتاب Ruppert East بعنوان Kiga 's Story .

(1) Bohannan, op.—cite. p. 228.

أمر متعذر للغاية .

وما أن تم الزواج فإن المرأة تحرص على إقامة علاقة طيبة مع حماتها وهذا أمر ميسور للغاية إذ يقضي العرف بذلك ، وعادة ماتقوم أصغر الزوجات وأحدثهن بأعمال البيت بينما تباشر الزوجة الأكبر والأقدم نوعا من المسئولية والسلطة فيما يتعلق بأعمال البيت والتوجيه والاشراف ومناشط السوق .

وكما هو الحال فى المجتمعات القبلية التقليدية فإن مركز المرأة يتدعم مع مرور الوقت خاصة بعد الانجاب ، حيث تستقر العلاقة بين الزوجين ... وإذا كنا قد أشرنا منذ قليل إلى أن البدنه Lineage تشكل الجوهر الاساسى لنمو الأسر وتجمعها ، فإن الأسرة بدورها كشكل جوهر المجتمع المحلى والتى فى نطاقها ينشأ الصغار منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، بل تذهب Loura إلى أن الاطفال فى الـ Tiv يدخلون فى علاقات واسعة النطاق خلال عملية التنشئة الاجتماعية لاتشتمل الآباء والأمهات فحسب وانما تمتد الى الأخوة الاشقاء وغير الاشقاء ، أنهم يعايشون أبناء عمومتهم وأقاربهم العاصبيين ، أنهم يعيشون فى نطاق عالم من الأقارب حيث تتعهد الأم طفلها بالرعاية خلال الأشهر الأولى من حياته ، فإذا مااشتد عوده فإن أخوته من الذكور أو الاناث يشاركون فى تربيته والاشراف عليه ، بل قد تصبح إحدى أخواته أو قريباته من النساء فى حالة تعذر وجود أخت له بمثابة الحاضنة ، وعادة ماتختار المرأة إحدى قريباتها من النساء لتقوم بهذه المهمة ، الامر الذى يترتب عليه قيام علاقات ودية وثيقة بين الطفل وحاضنته ، وتحرص الجماعة القرابية على دعم هذه العلاقة باستمرار وتأكيدها مراراً ، يقولون « أنها الأخت التى حملتك

على ظهرها » أو « أنها تلك التى حملتك عندما كنت طفلاً » وتقولى الحاضنه والأم مسئولية تربية الطفل واكسابه بعض العادات السلوكية * ولاتعتبر الحاضنه مسئولة عن فطام الطفل إذ تتولى الأم الحقيقية ذلك إذا مابلغ الرضيع نحو عامين ونصف ، ولايتم الفطام فجأه كما يحدث لدى بعض الجماعات ولكن تحرص الأم على تقديم بعض الأطعمة الانتقاليه بين لبن الأم ، والأنواع الأخرى التى يتناولها البالغون ، وفى اعتقادهم أن الطفل الصغير يمكنه أن يتناول أى نوع من الطعام دون أن يصيبه أى مكروه ، على النقيض من الكبار — إذ ينبغى أن يكونوا على حذر فيما يتنـــاولوه حتى يتجنبوا الأمراض .

وتتم عملية الختان ابتداء من سن السابعة وحتي السابعة عشره ، أما فيما عدا ذلك فليس لديهم أى نوع من شعائر التكريس الرسمية على النحو الذى نجده لدى الدنكا ، فالطهارة ضرورية قبل حصوله على مركز البالغين ولكنها لاتؤدى إليه ، ويحرص الـ Tiv على نوع من التشليخ على الوجه والأكتاف بالنسبة للذكور ، كما يحدثون ندبات على بطونهم بالنسبة للنساء وتلك الأخيرة قد تسبب الكثير من الآلام لدرجه أنهم يقارنون بينها وبين طهارة الذكور ، ولكنهم يحرصون عليها لأسباب متعلقة بالناحية الجمالية ، وليس لها أى علاقة بالمركز :

(*) تحرص الحاضنه على صمت الطفل وعدم بكائة ، إذ أن بكاءه من الأشياء المزعجة التى يجب إيقافها على الفور ولهم فى ذلك أسلوبهم كأن تضغط على فتحات أنف الطفل nostrils لإغلاقها فيضطر الطفل إلى التنفس عن طريق الفم بدلا من استخدامه فى البكاء ...

والجـــدير بالذكر أن الشبـان لدى الـ Tiv يشكلون قوة العمـــل الأساسية ، وكانوا إلي عهد قريب يشكلون طبقه المحاربين فضلا عن ممارسة مهن أخرى كالغزل والنسيج والزراعة وما إليها ، ولاتوجد لديهم مشاكل للمراهقة ، فمن ناحية يلقي على عاتقهم مسئوليات مرهقة في العمل الزراعى والمهن ، فضلا عن الزواج المبكر من ناحية أخرى ، وينتظم الرجال فى طبقات عمرية Kwagh كما وجدنا عند الدنكا وليس هناك أى نوع من الشعائر تصاحب الاعتراف بالطبقة ، وهى تتكون في العادة كل ٣ سنوات من بين الشبان الذين بلغوا سن الـ ٢٠ أو نحوها فى الـ Tar ، ومن ثم يصنف الذكور فى نحو ١٨ أو ٢٠ طبقة عمرية حيث يعرف — خاصة على النطاق المحلي — كل فرد الآخرين ممن ينتمون إلى طبقته العمرية ولاسيما البارزين منهم ، وعادة مايبحثون عمن سوف ينضم إلي الطبقة الجديدة ويتولى الإشراف علي ذلك بعض الرجال ممن ينتمون إلى طبقة عمرية أكبر ولكنهم فى نفس الوقت أقل سنا من الآباء ، وتسمى هذه الطبقة Igba ، ويتولي هؤلاء أيضاً مهمه تعليم وإرشاد وتوجيه الطبقة العمرية الجديدة وتبصيرهم بواجباتهم نحو بعضهم البعض ، والمساعدة المتبادلة والعون المالى ، وكيف يتعاملون مع العرافين، والأطباء الشعبيين ، وكيف يمارسون الطقوس والممارسات ، وتعتبر الطبقة بمثابه الحليف الأول وتنحصر وظيفتها فى :

(١) أن الانتماء إلى الطبقه العمرية يكسب الفرد القوة والمركز الاجتماعى .

(٢) التعاون المتبادل بين أفراد الطبقة العمريه الواحدة خاصة فى العمليات الزراعية وتنظيف الأرض وإعدادها ، حتي أنه يمكن القول أن معظم العمل

الزراعى يتم على هذا النحو ، حيث يتولى الضيف والمتقبل للعون تقديم الطعام والبيره ليصبح ملزما للعمل لنفس الفترة لأولئك الذين شاركوه إعدادالارض وزراعتها .

(٣) يلجأ الفرد لأولئك الذين ينتمى إليهم طبقيا للدفاع عنه وحمايته من السحره والعرافين أو للوقوف إلى جانبه فى حالة الاتهام والمساءلةأو اعتلال الصحة والمرض .

وبمجرد أن يتجاوز الفرد الأربعين من عمره فإن ارتباطه بالطبقة العمرية يضعف إلي حد بعيد ويصبح مجرد انتماء إلى فئة الكبار أولئك الذين يناط بهم حمايه الحقوق وتحقيق الأمن والسلام للجماعة القرابية بأسرها ، ونادراً مايلجأ الفرد إلى أفراد طبقته العمرية ، ويصبح الارتباط بها مجرد ارتباط عاطفى * .

* * *

(*) أنظر فى ذلك Poul Bohannan فى مقاله — Tiv of nigeria — ص٥٣٥ وأنظر أيضاً David Tait & Middleton فى كتابها Tribes Without Rulers ص ٥١ ومابعدها .

قبل أن نعرض للحياة الأقتصاديةوالنشاط البشرى للـ Tiv ينبغى أن ندرك أن ثمة عوامل محددة كالمصادر الطبيعية والمناخ والظروف البيئيـــة وكذلك المهارات والخبرات المكتسبة والمتوارثة فضلا عن الاهداف والقيـم السائدة ، كل هذه تلعب دورا هاما فى توجيه النشاط الاقتصادى ونوع السلع المستهلكة وكذلك فان التعقيد النسبى أو مدى كفاءة تكنولوجيا الحصول على الطعـام انما يعكس الى حد بعيد درجة الاتقان أو التقدم التى تميز أسلوبهـم لتحقيـق احتياجاتهم المادية ، ويعتمد التيف أساسا على الزراعة كما سوف نرى ، فى حين لا تقدم المنطقة تسهيلات بيئية أخرى لتربية الحيوان على نطاق واسع نظـراً لانتشار ذبابة الـ Tse Tse والتى تصيبها بمرض النوام المعـروف والذى يقضى عليها ، ومن ثم فان تربيتهم للحيوان محدوده للغاية ، ولا يعـولون عليه كثيرا ولا يعرفون إلا الماعز وبعض الضأن فضلا عن بعض الطيور .

أما الزراعة فهى الركيزة الأولي لاقتصادياتهم حيث تقع أرضهم فى منتصف الحزام النيجيرى والذى يمكنهم من قيام اقتصاد زراعى قوامه زراعة الحبوب فى الشمال ، واليام ومحاصيل جذرية أخرى فى الجنوب،ويمكن القول أن لديهم ثلاث محاصيل أساسية ، الذرة والسرغام (نبات يشبه الذرة تستخـــرج منه الذرة السكرية ، عصير سكرى) واليام (*) وقد يكون لديهم بعض الفائض يخزنونه فى باطن الأرض ويستخرجونه بالحفر عند الحاجه ... ويتم حصـاد الذرة فى أوائل يونيو واليام فى أغسطس والسرغام فى ديسمبر .

(*) يعتبر اليام Yam العنصر الغذائى الرئيسي ويستخدم كنوع من الخبز (يقشر ويسلق ويسحق) ـ أما الذرة أو السرغام فيصنع منها الثريد أو نوع من العصيده ، وقد يضيفون إليها بعض الخضر واللحوم .

وتعد الأرض للزراعة فى منتصف موسم الجفاف حيث يقوم المزارع واخوته وزوجاتهم وآخرون ممن ينتمون الى طبقته العمريه باعداد الأرض ونطهيرها من الأعشاب الضارة ، وتلك العملية تحتاج الي الكثير من الجهد ، وذلك مرده الي ضعف التربه (شأنها في ذلك شأن الأراضى الزراعية في كثير من الجهات المدارية) وذلك مرده الي عدم وجود شتاء طويـل حيث تتـوقف الاكسده لمادة « الدبال » Humus (*) الجزء العضوى من التربة، ومن ثم فانهم يقلبونها بواسطة فأس صغيره ، وتكوم فى أكام يصل ارتفاعها الى نحو قدمين أو يزيد ولاشك أن هذا الاعداد يتطلب جهدا ومشقة ، وبمجرد أن تسقط الأمطار تعد الروابى فى طرق وخطوط هندسية على درجة عاليه من التعقيد ، وبينما يقوم الرجال باعداد هذه الروابى تقوم النساء ببذر حبوب اليام على قمة الروابى وعادة ما تستخدم المرأة عصا الحفر Digging Stick (**) سواء فى زراعة اليام أو الذرة أو القطن ، ولا يقتصر عمل المرأة فى المجال الزراعى على تلك العمليات بل أنها تقوم أيضا بجمع الاعشاب الضاره فى حقول اليام كما تشارك فى الحصاد .

وتترك الأرض للراحة بعد عدة سنوات من ذراعتها حتى تسترد خصوبتها وفى أحيان أخرى يحاولون زيادة خصوبتها مستخدمين الأعشاب وبقـــايا النباتات وديدان الأرض لتقليبها فى التربة حتى يتحقق المزيد من الخصوبة .

(*) مادة تنشأ من تحلل المواد النباتية والحيوانية وتكون جزء من التربه .

(**) أن معرفتهم التكنولوجية محدوده للغاية وتكاد تنحصر فى الادوات الزراعية كالفأس اليدوية الصغيرة والتى تشبه الجاروف، وسكينة طويلة وعصا الحفر ، أما فيما عداد ذلك فليس ثمة أشياء ذات أهمية تذكر .

ولاشك أن مثل هذه الزراعة المتنقلة تملي علينا ضرورة معالجة حيازة الأرض عند الـ Tiv ، وقبل أن نستطرد في معالجة هذا الموضوع ينبغى أن ندرك أن أعضاء أى مجتمع لديهم من المفاهيم يتعاملون من خلالها مع الأرض التى يستخدمونها سواء من حيث الملكية أو حيازة الأرض Land Tenure أو العلاقات المكانية Spatial Relationship أو حق الاستغلال ، وبالنسبة « للتيف » نجد أن التنظيم الاجتماعى عادة ما يدرك من حيث النظر الى البعد المكانى والذى يرتبط أساسا بالبيئة الفيزيقية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان النسب أو الانحدار الجينولوجى لايعطى فقط الأساس للتجمعات العشائرية بل أيضا هناك صلة وثيقة بينة وبين المساحة المكانية ، بمعنى آخر أن هناك ارتباط واضح بين الانحدار الجينولوجى ومساحة محددة من الأرض فى فترة محددة من الوقت(١) . والأرض عند « التيف » ليست سلعة تخضع لقوانين البيع والشراء كأى سلعة أخرى كما هو الحال فى معظم المجتمعات الزراعية . وانما ينظر الي الأرض من حيث كونها بعداً مكانيا ، فعضوية العشيرة تعطيه الحق بسبب عضويته لأنه يزرع مساحة تفى باحتياجاته فى أرض البدنه التى تقيم فيها جماعته القرابية Tar ، ليست هناك ملكية خاصة ، الرجل أو المرأة لديه ما يمكن تسميته حيازة المزرعة ومن ثم حقوقا لزراعتها وجنى ثمارها ، وبمجرد تركها للراحة أو لعدم صلاحيتها يسقط حق المزارع فيها ، ومع ذلك فالرجل له الحق دوما بمقتضى خريطة الانحدار الجينولوجى Geneological Map لبدنته العاصبة فى الحصول على مساحة من الأرض فى

(I) Hammond, Peter, Cultural and Social Anthropolegy op. cite. p, 57

المنطقة الجديدة ، وهذا الحق لا يسقط ابدا ، فليست هناك ملكية ثابتة محددة وانما حيازة متغيرة وفقا للتجمعات القرابية المتنقلة[١] . فالرجـــل لديه حق الاستغلال في مزرعته والمرأة لديها حق الاستغلال فى مزرعتها ، كلاهما يزرع وينتج ، وبالتالى ارتباط كل منهما بالتزاماته – فالمرأة مثلا تملك وتسيطر على الانتاج وبالتالى يجب عليها أطعام زوجها وأبناءها من انتاج المزرعة ، وهذا يقتضى من الزوج أن يساعدها فى الزراعة ، وقد يستعين ببعض أقاربه أو أولئك الذين ينتمون الى طبقته العمرية كبير البدنة (٭) لديه بعض الحقوق فى الحصاد سواء في مزرعة المرأة أو مزرعة الرجل ، له حصة محدده لتفى باحتياجاته وباغراض الضيافة واقامة الشعائر ، ويمكن القول أن هناك ثلاث أنواع من الحيازة .

(ا) حيازة الزعيم وتشمل المساحة الكلية للأرض (نظريا) وهو الذى يتولى توزيعها على تابعيه ، وقد يتبقى لنفسه بعضا منها لاشباع احتيـــاجاته الخاصة ومن يعولهم .

(ب) حيازة الرجال وهؤلاء يشغلون المساحة الاكبر إذا ماقورنت مساحتهم من الأرض بتلك التى حصلت عليها النساء .

ويمكن لكل بالغ من الرجال سؤال الزعيم ليمنحه قطعة من الأرض يزرعها لتفى باحتياجاته ، فلكل الأرض التى تكفيه ، وأن تكون بلا أرض فان هذا يعنى انك بلا عشيرة .

(I) Bohannon. op, citè, pp, 5I7 - 520

(٭) والجدير بالذكر أن كبير البدنة أو الزعيم هو المحدد لحجم المزرعة سواء للرجل أو المرأة .

(ج) حيازة النساء ، كما أن هناك حيازة للأرملة لتغطى احتياجاتها وأطفالها (١) .

فاذا انتقلنا الي تقسيم العمل امكن القول أن هناك محددات ثقافية هى التى توزع العمل ، فى مثل هذا المجتمع نجد أن كل فرد يشارك فى الانتاج الاقتصادى ، وتقسيم العمل ينظر إليه كنوع فى تقسيم أو تحديد الوظائف من خلال الوحدة المعيشية Household ، مجموعة من الواجبات أو الالتزامات التى يجب على الفرد أن يقوم بها ، و« التيف » بصفة عامة يعملون بحيوية ونشاط ومع ذلك لا يعرفون ساعات محددة للعمل وانما يرتبط العمل بالمهمة أو الواجب الذى ينبغى القيام به فى فترة زمنية كتلك التى تتعلق باعداد الأرض للزراعة أو فترة تنقية الاعشاب والحشائش الضارة ، أو فترة اقامة الروابى ، أو بذر الحبوب ، بناء المساكن خلال موسم الجفاف وهكذا ، وعادة فإن الرجل يبذل جهدا أقل من المرأة وإن كانت تلك الأخيرة لا تتمتع بنفس القوة والحيوية التى يتمتع بها الرجل إلا أنها أكثر مثابرة واستمرارا منه ، وتشارك فى العديد من العمليات الزراعية وغير الزراعية وقد تنفرد بأخرى دون الرجل ، أما الرجل فقد يعمل لفترات طويلة متصلة ولكنه بين الحين والآخر يوجه معظم اهتماماته للمنازعات والخلافات أو مناشط اجتماعية أخرى .

ويمكن القول أن معظم « التيف » يعملون بالزراعة باستثناء قلة ممن تلقوا بعض التعليم فهم يعملون ككتبة أو وعاظ ومبشرين وآخرين بالتجارة ، أما أعمالهم الثانوية فتنحصر فى النسيج وصناعة السلال وبعض الصناعات اليدوية

---

(1) Hammond, op. cite pp. 57 - 58

الخشبيه البسيطه مثل صناعه الهاوية والمدقة والمقاعد والغليون والالواح التى تستخدم كأسرة ... الخ .

ويلعب السوق (ه) والتبادل السلعى دورا هاما فى اقتصاديات التيف ، بل يمكن القول أن ملامح النسق السياسى والاقتصادى والاجتماعى تنعكس فى لقاءات السوق ، يذهب William A, Schack ـ فى معرض حديثه عن النظم الاقتصادية الافريقية الى القول ، أن السوق على درجة من الأهمية، ولا ترجع أهميته الى ما يعقد من صفقات اقتصادية بل أن دوره يتجاوز ذلك من أجل دعم العلاقات القرابية مع دورته المتكررة ، انهم يلتقون للتغلب على انفصالهم المكانى ، وأن تجمعات السوق بمثابة نقط للالتقاء لأولئك الذين تربطهم روابط القرابة العاصبة والنسب والمصاهرة والجوار ... وحيث يمارس القاده والرؤساء السلطة والقوة والتأثير ، فضلا عن مناشط أخرى كالطقوس والشعائر تجاه الآلهة تلك التي ترتبط بالمرض أو السحر ، بالاضافة إلى بعض الممارسات الأخرى كالختان ... الخ وأن هذا ينطبق على قبائل Gurage جنوب غرب أثيوبيا كما ينطبق على Tiv فى شمال نيجيريا[1]. أما Peter Hammond فيذهب الى أن السوق والتسويق انما يستهدفان توزيع السلع والخدمات من خلال

(ه) عند الاقتصاديين يقصد به ، أى تنظيم يتم بمقتضاه الاتصال الوثيق والمباشر بين البائعين والمشترين ، وان شرط قيام السوق فى العرف الاقتصادى هو وجود اتصال وثيق بين المتعاملين .

(سعد ماهر حمزة ، علم الاقتصاد ، دار المعارف ، ١٩٠٣ ، ص ٨ ؛

(1) Shock, William, A.: The Gurage, international African Institutions, 1966, p. 75

عمليات التبادل وقد تستخدم النقود وتكون لها الاهمية الأولى في حين يكون تبادل السلع هامشيا أو محدودا ، وقد يقتصر على تبادل الهدايا بين الاقارب... بيد أن هناك مجتمعات أخرى يلعب التبادل السلعى دوراً رئيسيا لسد احتياجاتهم كما نجد عند الـ Tiv في شمال نيجيريا حيث يستخدمون قطع النحاس كوسيط من أجل الحصول على بعض الماشية أو الأدوية أو التعاويذ والتمائم السحرية أو الملابس وما إليها ، وكذلك الحال في جزر Rossel في المحيط الباسفيكى حيث يستخدم الاصداف في صفقاتهم التجارية ، فالسلال والأوعية مثلا مقابل الاصداف ذات القيمة المنخفضة ... ومن هنا فان الحاجة الي النقود محدودة طالما كان نظام التوزيع السلعي يقوم على التبادل [1] .

أما Bohannan فيرى أن السوق يلعب دورا حيويا في حياة التيف وأنه ينعقد دوريا في مناطق متفرقه ، على بعد أميال قليلة من الـ Tar ، بحيث يمكن القول أنه ينعقد يوميا في مكان ما ويتردد الناس عليه من حين لآخر ، ويتولى الاشراف عليه أحد الزعماء المحليين فضلا عن مجلس من كبار السن لتحقيق الأمن والاستقرار وحتى لا يحرز أحدهم ميزة على حساب الآخرين فضلا عن تحديد الأسعار . والجدير بالذكر أن مجال المساومة محدود للغاية ، ولا يقتصر دور السوق على الجانب الاقتصادى، بل يلعب دورا أساسيا في الحياة الاجتماعية تماما كما يلعب دورا هاما في الاقتصاد حيث يلتقى القادة والزعماء لمناقشة المشكلات والقضايا سواء داخل أسوار السوق أو خارجه واتخاذ القرارات ، أنه بؤره الاتصال ومحور الحياه اليومية وما تثيره من مشكلات ، يقصده

(1) Hammond; op. cite. p. 143

الأشخاص حيث الترفيه والتسلية ليجدوا الفكاهه والرقص والمشروبات المفضلة كالبيرة وما إليها من الخمور الشعبيه ، وحيث لقاء الاصدقاء والاقارب والجيران [١] .

٭ ٭ ٭

فإذا انتقلنا إلى نسق الضبط الاجتماعي لوجدنا أن هـذا المجتمع شأنه فى ذلك شأن بقية المجتمعات الأخرى لديه مجموعه من الجزاءات أو الاجراءات التي تستخدم لمواجهة الخروج عن المعايير ، وبالتالي مقابلة الاضرار التى قـد تحدث نتيجة لمثل هذا الخروج، ولاشك أن معرفه الكيفيه يتم بها تحقيق الضبط الاجتماعى يمكن أن يفيد إلى حد كبير إذا ماأردنا معرفة طبيعة العلاقات السائدة[٢] من هذا المنطلق يمكن القول أن الـtir لديهم مجموعه من قواعد السلوك الانسانى تدرك من حيث كونها ملزمه لأفراد المجتمع ، أى هناك أعترافا أو ادراكاً اجتماعيا لمجموعة القواعد العرفية السائده لديهم . فالنظام الانقسامي للبدنات يحمل فى ثناياه اداه الضبط الاجتماعى ، كل وحده أو منطقه ماتسمى بالـ tar تعرف حدودها وحقوقها وتحافظ عليها كما تعرف حدود وحقوق الوحدات الأخرى ، وتعرف نوع الجزاءات التى سوف تلقاها فيما لو أعتدت على وحده

---

(1) Bohannan, op. cite. p 529 .

(٢) د . فاروق اسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرفيه ، الهيئه المصرية العامه ، ١٩٧٦ ص ٢٢١ .

أخرى ، ولذا كانت الوحدات تحاول بقدر الامكان أن تتجنب الاعتداء على مخصصات الغير خشيه ماقد يؤدى إلى نشوب العداوات .

أما على مستوى الـ Tar فإن العرف القبلى يستهدف اعاده التوازن الاجتماعى ، والتحكيم أساس العملية القضائية Judicial Process ، وينبغى أن نشير منذ البداية إلى أن « التيف » كانوا إلى عهد قريب يعتمدون على مجالس كبار السن the Councils of the elders ولكن عندما شيدت الوحـدات والمحاكم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أصبحوا يحرصون على التردد على هذه المحـاكم والتى تعتبر فى الدرجة الرابعة Grade D.Court (*) وتقوم أساساً على سلسلة من اللقاءات لكبار السن يعملون على تهدئة النزاع ، وقد يشارك معظم كبار السن على مستوى البدنه الجزئيه فى المناقشات إذ طلبت منهم ذلك ويرأس هذه المحكمه الأهليه أن صح هذا التعبير رئيس يسمى الـ ter ومعناها حرفيا «الأب» يساعـده ثلاثة أو أربعة من القضاه الشعبيين ويسمون Mbatarv وهى نفس التسميه التى كانت تطلق على كبار السن من قبل ، أولئك الذين يناط بهم اتخاذ القرارات والفصل فى المنازعات ، كما تشمل المحكمه على نحـو ثلاثة من رجال البوليس المسلحين بالعصى فضلا عن أحد الكتبة ليقوم بتسجيل القضايا وحفظ السجلات القضائيه[1] (**) ويمكن القول أن أى اضطراب فى النظام الاجتماعى

(*) حيث خصصت محكمه فى الدرجه الرابعه لكل ٨٠٠٠ نسمه .

(**) توجد محكمه أخرى من الدرجه الثالثة Grade C. court وأخرى من الدرجه الثانية Grade B. court ثم من الدرجه الأولى ، ولكن تلك الاخيرة =

القائم كوقوع جريمه أو اعتداء أو اهانه ... الخ يجب تبليغه إلى Jir (وتعنى حرفيا المحكمه Tribunal أو كرسي القضاء) ويجلس القضاه Dbatarv ليشكلوا المنصه ويستدعى الشاكى ليعرض موضوع الشكوى grieuancé ويستفيض كيفما يشاء محاولا اقناع القضاه بدعواه ، كما يسمحون المدعي علية بأن يدلي بأرائه ، وقـــد يستدعى الشهود ليدلون بأقوالهم وفى أحيان أخرى يطلب « اليمين » Oath ، واليمين سمة مميزة يعتمد عليها إلي حد كبير فى كثير من المجتمعات الافريقية خاصه القضايا المجهولة أو تلك التي يتعذر وجود شهود لها كما فى حالات القتل والسرقه وادعاء الملكية والاغتصاب والشهادة Shieda(*) أو اليمين Bum يشكلان المبدأ القانونى الهام ، وعادة مايطلب الشهود بعد أن يدلى طرف النزاع بما لديها من أقوال خاصه فى حالات الخلاف على قيمة المهر

= نادرة ، وتختلف هذه المحاكم من حيث عدد القضاه ونوعيه القضايا التى تتناولها والأحكام التى تصدرها .

(١) انظر فى ذلك Margaret Mead فى كتابهـــا -- Cultural & — Technical Change. Unesco, Bublishers in 1963 by Un pp. 114 - 119 .

وانظر ايضـا . Paul Boh فى مقـالة Tiv fo Nigeria فى كتـــاب People fo Africa edited By James L. Gebbs, p 533 .

(*) يـذهب Paul Bohannon فى كتاب Justice and Judgement among the Tiv إلى أن الكلمة shieda ربمـا تكون مشتقه من كلمه Shahada السائدة لدى قبائل Hausa . أو الكلمه العربيه Shahada أو Shahed ، وعادة مايستعان بها فى حالات مثل دفع المهور أو الصفقات المالية .

عند الانفصال أو تباين الآراء فيما يتعلق بالصفقات المالية ، أما القسم فقد يلجأون إليه في نهايه المطاف ، ويترددون كثيرا قبل الإقدام عليه خشية اليمين الحانثة Sa arela وما قد يترتب عليها فى أضرار تلحق بصاحبها . ويتم القسم على مايسمونه بال « Swem » شيء يعتقد أن له قوة سحرية واكثر اشكاله شيوعا قدر صغير ملىء بالرماد وقطعه من الحطب Camwood ونوعين من الأوراق ، ويعتقدون أن كل الزعماء حاملين لهذه القوى ، وقد جرى العرف أن تحضر الهيئه القضائية Mbatarv لقدر الـ swem هذا ، ويبدى المتنازعان حذراً واضحاً من لمسه ، ولا يقترب منه أحد إلا إذا طلب منة أحد القضاه ذلك، وفى حالة ما إذا كان المؤدى للقسم أمراه فإن لمس القدر يعتبر كافيا لاداء اليمين ، هنا فإن أحد اعضاء الـ Mbatarv يردد أحدى العبارات والتى تفيد ، انك إذا أقسمت كذبا فإن الـ Swem سوف يلحق بك الضرر والاذى ، أما فى حالة الرجال فإن القدر يحمل ويمرر ليلمس القدم والركبه والبطن والرأس، فإذا ماكان حانثا فى يمينه تورمت قدماه و بطنه أنتفخت وأصابه نوع من الصرع المزمن وقد يموت ، ويرفض التيف فيما يقول يوهانان تحديد موعد لتأثير الـ Swem وقد يذهب البعض أن هذا التأثير لايلبث أن يظهر بعد نحو ثلاثة أو اربعة أشهر في حين يزعم فريق أخر أن هـذا الأثر لايظهر إلا بعد سنوات [١] .

وعاده مايقترح كبار السن من القضاه أسس التسوية على أطراف النزاع ، فإذا وافقا أنتهى النزاع وتمت التسوية للقضيه المتنازع عليها و يعتقد التيف أن القاضى العادل لايفرض التسويه بالاكراه ، بل يدفعهم إلي الاقتناع بعدالة

(1) IBid, p, 42 .

الحكم . ويقضي العرف القبلى inja أنه فى حالة الأختلاف ورفض القرار ويؤجل بحث القضية على أمل أن يقبل طرفا النزاع ماتوصلت إليه المحكمه أو أن يصلا إلى حل يتفقان عليه،وفى أحوال أخرى فإن الحاضرين الممثلين للمجتمع المحلى يمارسون نوعا من الضغط الاجتماعى على أحد اطراف النزاع خاصه الطرف التمرد Recalcitrant Litigant ليقبل القرار ، وأيا كان الأمر فإن قضاة التيف يهتمون إلى حد كبير بتسوية النزاع خاصة فى الحالات التى تحدث بين يستعيدو أولئك الذين ينتمون إلى بدنة واحدة أوحيث يوجد نوع من القرابة فإن هذا يدعم وحدة البدنه ويرأب الصدع هذا من ناحية ومن ناحية أخرى حتى علاقاتهم الوطيده بأناسهم أولئك الذين ينتمون إلى عدد من الزمر ويرتبطون معا بروابط القرابة أو المصاهرة أو الأقامة أو الجوار .

ومن ثم يتبين لنا أنه ليس هناك طبيعة تطوعية الزعماء أو القادة أو العواقل المساهمه فى تسويه النزاع ، فهناك أفراد معروفين Mbatarv يضطلعون بهذا الأمر ، وهذا على النقيض مما نجده مثلا فى مجتمعنا القبلى فى صحراء مصر الغربية ، إذ سرعان مايتطوع بعض « قوالة الخير » من المشايخ أو العواقل ، أو الأجاويد من بعض المجتمعات القبلية السودانية ... يستهدفون الوصول إلى تسوية وحل النزاع . وينبغى أن ندرك أن الحكم القضائى هنا ليس له صفة الالزام والقهر كما نجد فى القانون اوضعى (*) . ولكنه يميل إلى التفاوض أنه نوع من المساومة والأخذ والعطاء وتقريب وجهات النظر والتهديد

(*) قد يهدد القضاه بتصعيد القضية إلى محكمة الدرجة الثالثه

• Crade C. Court

باستخدام « القوة السحرية » إذا أقسم كذبا ... كل هذا يستهدف التسوية في أطار الانماط المعياريه المتعارف عليها بقصد استعاده التوازن .

وعند اجتماع الهيئة القضائية فإن القضاه الـ Mbatarv يأخذون مكان الصدارة،بالاضافة إلي طرفي النزاع وجماعيتهما القرابيتين Igba بالاضافة لأولئك الذين ينتمون إلى طبقة العمر والشهود فضلا عن كبار السن أولئك الذين لايتدخلون إلا إذا طلب منهم ذلك ،أما النسوة والعبيد والاطفال فلايتدخلون في المناقشة إلا إذاكان أحدهم طرفا في النزاع وتستمر المناقشه والتفاوض حتى لايكون هناك معارضه أو يؤجل إلى ميعاد أخر حتى يمكن الوصول إلي قرار بالتسوية .

والجدير بالذكر أن زعيم التجمع السكاني يمكن أن يتدخل بمبادرة ذاتية لاصلاح ذات البين ،وقد لايكون عضوا في المحكمة ، وكذلك المشرف على السوق فلها حق التدخل،وعلى الرغم من أن العرف القبلي يقضي بأن يسرع كبير السن لاشاعة السلام وفضي المشاجرات ، إلا أن تدخلة في أثناء مناقشة القضايا غير وارد إلا إذا طلب منه ذلك .

وبصفة عامة فإن الجرائم الصغيرة كالسرقات والاعتداءات البسيطة أو القضايا الشائعة ، قضايا استرداد المهر والانفصال ، الحرق العمد ، الاغتصاب وتقترن بالتعويض كما في حالة استرداد المهر Kemأو دفع غرامة كما في حالة الاستيلاء علىCassava من أرض الغير أو الاعتداء بالضرب أو السرقات ، ويمكن القول أن اكثر قضايا الـ Tiv شيوعا تلك التي تتعلق بالنساء كالرغبة في الانفصال أو هروب الزواجية أو استردادالمهر، وطبيعي أن تكون تلك القضايا قسمة مشتركة بين أطراف العلاقه الزوجية الزوج والزوجه والوصي

وقد حصر لنا Paul Boh. في كتابه Justice and Judgement among the Tiv عشرات القضايا والتى تمثلت فى مقاضاه الازواج للأوصياء طلبا لاسترداد المهر، أو الازواج ضد الزوجة لهروبها أو لزواجها من آخر أو ضد المرتكب للزنا أو الاوصياء ضد الأزواج ... فضلا عن قضايا أخرى (٥) . كالزواج غير الشرعى و bigamy (التزوج من رجلين معا ويعتبرونه نوعا من الغواية) . وفى هذا الأخير يفرضون غرامة على الوصى لقبوله مهرين لزوجة واحدة، وغرامة أخرى تفرض على المرأة « لوقاحتها » على حد تعبيرهم، ويعتبرون المرأة التى تفعل ذلك على درجة كبيرة من الابتذال .

وتقترن تسوية النزاع عادة بتقديم الـ Tia وهى حيوان يقدمه المدعى فى أعقاب تسوية موضوع النزاع، وعاده ما ينحر ويشترك الجميع فى تناول الطعام (طرفا النزاع والمؤيدين والمناصرين من الاقارب والقضاة (رمز لأصلاح ذات البين واعادة التجانس، كما تنحر الـ Tia أيضا فى حالة الوفاق بين الزوج والزوجة أو فى حالة استدعاء طبقة العمر للمشاركة فى مناقشه بعض القضايا والوقوف لدعم ذلك الذى ينتمى إليهم .

٭ ٭ ٭

---

(٥) من هذا القبيل قضايا الوصايا على الابناء فى حالة الانفصال خاصة فى حالة الفتيات اللائى عشن بعيدا بعد الانفصال ثم يحاول الاب استعادتها قبل زواجها .

ذهبنا منذ قليل الى أن العرف القبلي يستهدف الوصول الى حـــل يرضي الطرفين ويضع حدا للصراع ، ويضيف Max Gluckman أن الهدف الاساسي ليس استقرار النزاع في حد ذاته ولكنه تهدئه القوى أو العـوامل الخفيـة أو الغامضة Mystical factors التي تختفي وراء هذا النزاع أو تسببـه ، ومن ثم فإن تسوية النزاع يقترن دائما بممارسة نوع من الشعائر أما لتهدئة وتسكين النزاع وأما لدرء شرور هذه القوى الغامضة(١) .

ومن هذا المنطق نجد أن نسق المعتقدات انما يرتبط والى حد ما بنسق القيم السائد وخاصة المفاهيم الاخلاقية والتي تعطيهم الاساس لصنع الأحكام والتمييز بين الخير والشر ، الصواب والخطأ ، بنـاء الآراء والأفعـال ، من هنا يمكن القول أن دراسه نسق المعتقدات لدى الـ Tiv يمكن أن يلقى الضوء على المفاهيم الاساسيه لميكانيزم التفكير لديهم ، علاقتهم بالآخرين ، وبالقـوى الخـــارقه للطبيعة أو تلك التي يعتقدون أنها مسئولة عن القـدر وعن الأفعـــال الخيرة والشريرة .

ولاشك أن نسق المعتقـــدات يعكس الظروف والأوضاع الثقافيـــة والايكولوجية للمجتمع ، فالقدرة على السيطره أو عدم القدرة على السيطرة على البيئة انما يحدد درجة الاعتماد على القوى البشرية أو القوى الطبيعية أو غير البشرية ، أي يحدد النظرة الى العالم الخارجي . فعباده الإسلاف أو الآلهة لدى بعض الشعوب الأفريقية انما تعكس عدم الاطمئنان الايكولوجي Ecological Insecurity ومن ثم كان الاعتماد على القـوى الطبيعيـة أو غير البشرية نظرا لادراكهم لضعف القوى البشريه من حيث تأثيرهـا في الظروف

(1) Gulckman, Max, op. cite. p. 231

البيئية ، بيد أن هناك جماعات أخرى على درجة من الوعى بأهمية الجهد البشرى فى اقتصادهم الزراعى الانتاجى مثل التيف فإن معتقداتهم تتركز حول القوة التى يسمونها Tsav والتى خلقتها الآلهة إلا أنها تتعامل مع القوى البشرية، أنها تعكس الثقة بالذات والتى تعكس بدورها طبيعة العلاقة بين الانسان والبيئة[1].
وال Tsar هذه قوى سحرية يمتلكها بعض الأشخاص ، ومن ثم تمنحهم القوة والثروة والحظ والموهبة بل والشخصية القوية ، وهذا مرده إلى الدرجة التى يمتلك بها هذا الشخص هذه القوه ، أن الرجل يستطيع أن يحقق لنفسه من الانجازات بقدر ما لديه من هذه القوه بل أن الضرر الذى يصيب بعض الاشخاص مرده الي آخرين ممن يمتلكونها ، ومن ثم فان التخلص من هذه الأضرار انما تتم بواسطة العرافين أولئك الذين يمارسون نوعا من التحكم الدنيوى Secular Arbitration للبحث عن مبررات هذه الافعال السحرية ضد الآخرين ، ومن هنا فان ممارسة الطقوس أو الشعائر انما تستهدف الاصلاح كتحقيق الاستشفاء أو جلب الحظ أو استرضاء النفس من ناحية وايقاف أو تقييد وكبح أولئك الذين يحدثون القلاقل ويسيئون الي الآخرين[2]
فالعرافة انما يعمل من أجل وضع نهاية لسوء الطالع واستعادة الفرصة لتحقيق الخير ، وبالتالى فان استشارته ضرورة لتحديد الاسباب التى أدت إلى هذه الاضطرابات الخفية والتى بدت فى ظواهر عدة كسوء الحظ، أو المشاجرات أو المرض أو الموت (*) . وغيرها من الظواهر التى يمكن أن تحدث بالضرورة

---

(1) Middleton & Trait, op. cite. p. 24.
(2) Boh , Laura, op. cite. p. 54.
(*) لقد كتب H. A. Junod فى كتابه The Like of a South African Tribe أن العراف لدى قبائل Tsonga يستخدم مجموعة من العظام والاصداف والحصى والحجارة ... يلقيها على الارض محاولا قراءة الشكل الذى تتخذه هذه الاشياء فى علاقتها بعضها بالبعض الآخر ، ويرى أنها تمدهم بصورة فورية Instantaneous picture لما يحدث لهم لان هذه الاشياء أو

نتيجه للروابط والعلاقات المركبة طالما كان أعضاء البدنة يرتبطون معا فى طرق متباينة (١) .

هذه القوى Tsar انما توجه العشرات من القوى الاخرى والتى يسمونها Akombo ، وعلى الرغم من ادراكهم لها إلا أنها غامضة الى حد كبير ، فهم يعرفون أنها متعددة ومتغيرة وأنها قد تفقد مفعولها وتأثيرها ، وأن مهمة العراف هو تحديد أى نوع منها الذى تسبب فى هذه الشرور والاثام كالمرض والموت والنكبات والكوارث ، ويرون أن هذه القوى تنقسم الى قسمين الكبيرة والصغيرة ، أما القوى الكبير فانها يمكن أن تؤثر فى الجماعات الاجتماعيه أكثر من تأثيرها فى الافراد وقد تؤثر فى المحاصيل ، أعراضها وبائية عامة وليست فردية ، وقد يعزى إليها ويرتبط بها ما يقترن بالانسان من القتل الجماعى أو السحر أو الافعال المضادة للمجتمع ، أما الصغيرة فانها تؤثر فقط فى الافراد ويقدم لها فى العادة قرابين أقل حجما كالدجاج والماعز والفئران ، أما القوة الكبيرة Greo akomba فانها تتطلب نوعا من القرابين أو الضحايا البشرية قطعة محددة من جسم الانسان لاصلاح الموقف ، وإن كان هذا لا يحدث فى الواقع عن عمد . وأيا كان الامر فان مجلس كبار السن فى المجتمع سرعان مايجتمع بناء على دعوة أحد أفراد طبقة العمر أو ذلك الذى تعرض للمحنة (يسمى

= المواد التى يستخدمها تمثل الذكور والاناث والمراكز المتباينة ، والاعداء والاصدقاء والسحرة والأطباء والأسلاف والقوى الخافية والحظ السعيد والحظ العاثر والذكوره والانوثه والحمل والزواج والناصحون والمتخاف‍ـــون والطفيليون ... الخ .

(1) Ibid, p, 229

هذا التجمع Mbatsar) أى أولئك الذين يحملون قوى الـ Tsar السابق الاشارة إليها بقصد اصلاح التأثير الناجم عن هذه القوى وغالبا ما يقترن اجتماعهم بتقديم القرابين والضحايا(١) .

وتستخدم هذه القوى عادة akomlo لاغراض وقائية وليست علاجية كما هو الحال حين توضع فى المزرعة لحمايتها من اللصوص أو من السحر الضار أو الامراض المتطفلة التى قد تصيب المحصول ، وعاده ما تتمثل حزمة من الاعواد بالإضافة الي قطعة من ورق سعف النخيل المجدول، وقطعة من الحجر أو كثرة من أناء خزفى ، توضع جميعا اما على الارض أو تعلق على سارية فى وسط المزرعة ، ويعتقدون أنها كفيلة بان تلحق الضرر والاذى وتجلب سوء الحظ على من يدخل المزرعة ويتلف ما فيها أو يسىء إليها ، ويعتقدون أن هذه القوى يمكنها أن ترشد عن ذلك الذى سرق جزءا من المحصول مثلا ، ولهم فى ذلك أراء ونظريات ومواقف عن حقوق اقامة هذه الرموز السحرية إن صح هذا التعبير ، وقد تطلب المرأة أو الرجل أحيانا من شيخ البدنة أو الزعيم اقامة هذه الرموز لها فى أرضها ، ونادرا ما تقام فى الارض المراحه إلا فى حالات النزاع على ملكيتها .

والـ Tiv يعتقدون أن هناك خالق للكون يدعى Aonda وتعنى الكلمة حرفيا السماء ، ويعتقدون أنه بعد أن تم الخلق انسحب الا أنه تاركا الارض لتدار من المادة بواسطة البشر والقوى التى خلقتها والسابق الاشارة إليها Tsar ثم Akombo وتلك متمايزة عنه، ولئن كان للقوى الأولى قدرة التوجيه للقوى الأخرى، ويزعمون انها نوع تنمو وتظهر على قلوب المخلوقات سواء الانسان أو الحيوان، وهى حيادية من

(1) Ibid, p. 541.

حيث تحقيقها للخير أو إحداثها للشر ، تتجه نحو الخير إذا كان الانسان بطبيعته خيرا نشأ فى بيئة خيرة وتتجه نحو الشرور والاثام إذا ماكان الشخص مكروها أنانيا غير موثوق به نشأ فى بيئة لاتعرف الحب أو الخير .

والاعتقاد فى القوى السحريه هذه شائع لدى كثير من شعوب العالم كما نجده لدى بعض الهنود الأمريكيين مثل جماعة Fox (هنود السهول) اذ يعتقدون أن بعضهم لديه قوة Manitu وهى قوى مجردة نكتسب خلال الاحلام والرؤى ،وهى الوسيلة الرئيسيه التى يستطيع بها القادة أو كبار السن أن يكتسبوا شرعية حقهم فى السلطه على تابيعهم ويعتقدون تماما كما هو الحال لدى التيف أن هذه القوة متغيرة ومؤقتة [1] .

وليس لدى التيف معتقدات خاصة فيما يتعلق بالأرواح والاسلاف وهذه ربما تميز ايديولوجيتهم الدينة إلى حد كبير،إذ يعتقدون أن لكل شخص روح يسمونها Jijinji , والتى تبدو فى ظله أو حين ينظر إلى المرآة أو فى صورته المنعكسه فى المياة ، وأنها تنفصل عنه بعد الموت ، فالانسان الميت لا تصدر عنه ظلال ، أنها تصبح مجرد أشباح لا أرواح ، من هذا القبيل ظلال الأشجار أو الاشياء غير الحيه ، ويعتقدون أن هـذه الأرواح لاتفارق الجسم إلا حين وفاته وأنها تستقبل الأحلام والرؤى .

والتيف يميزون بين الروح Jijinji و بين خاصيتين أخريتين، الأولى وعاء الجسم أو مايسمونه Ikpa ويقصدون به الملامح الفيزيقة الخارجية للانسان ،

(1) Hammond' op. cite p. 282 ,

والثانية ما يسمونها Or Ijorna أي النفس أو الذات ، ويعتقدون أن هـذه الأرواح تصعد الي السماء عند الموت ، بيد أن هناك رأى آخر يبدو مناقضا الي حد بعيد حول مصير هذه الارواح إذ يرون انها تذهب الى أرض الموت Mbakuv حيث تخضع لتغيرات أساسية وتفقد خصائصها الآدمية[1] .

ولعل عزوفهم عن عبادة الاسلاف يعتبر سمة تميزهم عما عداهم من الجماعات القبليه الافريقية إذ تلعب أرواح الأسلاف دوراً هاما فى كثير من المعتقـدات لدى هذه القبائل وينظر اليها كما لو كانت أعضاء فى الجماعةالقرابية ، ويدركون مسئوليتها فى رفاهية الجمـاعة أو ما تتعرض له من مشكلات أو ما تصيبهم من فشل أو حظ عاثر ، ومن ثم فإنه يجب تقديم القرابين والضحايا فى الحالتين ولعل المثال الذى قد مناه منذ قليل عنالدنكايقدم لنا نموذجا لمثل هذهالعبادات بيد أنهناكجماعاتأخرى تبدولديهاظاهرةعبادةالاسلافAncestor Worship أكثر وضوحا مثل قبائل Lo Dagaa شمالي غانا والتي درسها Goody فى بداية الستينات (٥) ولا يختلف عن هذا ما وجدته لدى أحدى القبائل السودانيه فى

(I) Ibid, p: 532

(٥) اذ يتولي الابن الاكبر المبادره بعبادة روح أبيه المتوفى... وتقـدم الضحايا والقرابين خلال الممارسات الشعائرية وفق تقويم زمنى محـــدد أو فى مناسبات خاصة ، فالمرأة التى تحمل أو تلد طفلا ينبغى أن تقدم قربانا (دجاجة أو نحوها) الى منام سلفها الابدى حتى تضمن لرضيعهـــا سيولة لبن الثدى (Boh p.532) وعندما يصيبأحد الأفرادحظا وفيرامن الثروة كأنيصادف نجاحا فى الصيد فان الشكر ينبغي أن يقدم لارواح الاسلاف (جده من ناحية الاب) ... إذ فشل في أن يعبر عن شكره على هـذا الدعم فربمـا تعاقبه =

منطقة جبال الانقسنا حيث تحمل النسوة بعض الخبز أو الحطب أو الثمار وتضعها على الاحجار اعتقادا أن أرواح الاسلاف سوف تخرج على الفور لتناوله ... أما التيف Tiv فإنهم لا يعرفون شيئا عن عبادة الأسلاف ، لا شك انهم يذكرون اسلافهم على الاقل من خلال مراجعتهم لانحداراتهم الجينولوجية للبدنة أو حين يتذكرون أسلافهم من الموتى ، ويذكر لنا Bohannan أن هناك استثناء واحد يتمثل فى أنه إذا كان هناك خلاف لم يتم تسويته ثم مات أحد أطراف النزاع ، فإن الورثة ينبغى أن يعملوا على الفور لتسوية هذا النزاع ، هنا يحرصون على تقديم بعض القرابين وتتمثل فى طائر صغير ينحر ويلقى على قبر الميت دلالة على أن الاستقرار قد حل وساد الامن والسلام[١] .

وعلى هذا نجد أن نسق المعتقدات لدى التيف على درجة من البساطة ويستهدف فى المحل الأول تفسير وتبرير الأحداث والوئع ومن ثم وكما سبق الاشارة فإن ارتباط نسقهم الديني بمجموعه من الأفكار عن القوى الخارجة وارتباط ذلك بالممارسات أو الشعائر انما يستهدف فى المحل الأول تحقيق التجانس بين الانسان وعالمه المحيط .

أن نسق المعتقدات لديهم إنما تعكس فى النهاية نسق التفكير وكيف أن ما يحيط بهم من قوى خفية وهو المسئول الأول والأخير عما يصيب الإنسان من نجاح أو فشل فى الحياة .

٭ ٭ ٭

= وقد يصادف حادثا أليما أو مرضا حادا أو يتعرض أحد أطفاله للموت ، ومن ثم فلابد من تقديم القرابين للاسلاف من ناحية واتباع القواعدالسلوكية التى وضعها الاسلاف من ناحية أخرى . .

(أنظر Hammond ص ٢٦٦ ، ٢٦٧) .

(I) Ibid, p. 539.

الفصل السابع

نظرة تحليلية



ذكرنا منذ البداية أن مجال الانثروبولوچيا من السعه والعمق بحيث يشمل العديد من الاتجاهات ، وأن الانثربولوچيا الثقافيه قد تناولت العديد من الموضوعات سواء فى مجال الاركيولوچيا أو اللغويات أو الاثنولوچيا ، وأن الباحثين فى هذا الفرع الأخير كانوا طموحين إلى حد بعيد من حيث تناولهم للقضايا العديدة سواء تلك التى تتعلق بالمعتقدات فى القوى الخارقة للطبيعه أو النظره للكون أو شعائر التكريس أو نظـــام طبقات العمر أو عادات الزواج وتقاليده أو مركز المرآه التقليدى ، علاقات التحاشي أو التحريم ... إلخ إلى غير ذلك من الموضوعات العديدة ، ولقد أثبتت هذه الدراسات بما لايقطع الشك أن الثقافات تتباين تماما كما يختلف البشر من مكان لآخر .

ولاشك أن معظم أبحاث الانثربولوچيين الثقافيين والاثنولوچيين منهم بصفه تستهدف الوصول إلى تعميمات حول طبيعة الثقافه أو الابنية التقليدية المحددة ، بيد أن هناك أبحاث أخرى أستهدفت دراسة نظم أو انساق معينه واتخذتها كأساس للملاحظه على اعتبار أن دراسه الثقافه فى عمومها اتجاه طموح إلى حد كبير ، ومن ثم فإن الاتجاه إلى مجال أقل شمولا بدراسة نظم محددة يمكننـا من أن نلقى الضوء على النسق الداخلي لمجموعه القيم والمعايير أو العلاقات التى تسيطر على هذا النظام أو ذاك ، فعلاقات الدين Dedt Relations التى تحدثنا عنها عند التيف Tiv لاتحدث كيفما أتفق ، أنها تشكل جزءا من نظام أوسع يسمى نظام التبادل ، وهذا بدوره يشكل جزءا من النسق الإقتصادى بل والنسق الاجتماعى، بل أنها وثيقة الصلة بالنسق السياسى أو نسق الضبط الاجتماعي كما رأينا ، فأنت تدان إذا أقترضت ولم ترد ماعليك

أو أستخدمت أجيراً ولم تدفع له المقابل ؛ أو أتلفت ماشيتك زراعه الآخرين أو إذا تزوجت دون تقديم زوجه مماثلة للوصى على تلك التى أخذتها لك ،أو سداد ماعليك من مهر ، أو إذا لم تقدم الزعيم بعضا من أنتاج الارض ليفى بالتزاماته أو لم تقدم جهداً مماثلا لأولئك الذين سبق أن قدموا لك المساعدة والعون من قبل ... هنا نجـد شبكة واسعة من العلاقات الشخصية تمتد لتشمل أو تتخلل العديد من النظم الاجتماعية أو الإقتصادية أو السياسية...

وتشابه النظم أو الانساق من حيث خصائصها أووظائفها مردة إلى تشابه الاحتياجات الاساسية للانسان أينما كان، ومن ثم فإن كل الثقافات مهما تباينت واختلفت انها تسعى لتحقيق متطلبات أساسية (*) وبالتالى نجد أن كل ثقافة تشتمل على نسق من المعرفة كما سبق أن اشرنا من أجل تحقيق هذه الاحتياجات أو المتطلبات ، فالثقافه تزود الافراد بمجموعة من المفاهيم والآراء المدركة والمقبولة والمتسقه مع نسقهم المعرفى أن صح هـذا التعبير ، فالدنكاوى مثلا ينظرون إلي اضطراب المعدة على أنه ناتج عن تأثير آلهه العشيرة والمؤذية منها بصفه خاصه ، والتى لديها القدرة على أن تحل بالانسان وتستحوذ عليه وتبتليه

(*) المتطلبات الفيزيقيه كالطعام والشراب والمأوى والحماية من الامراض والحشرات والمحافظه على درجه حرارة الجسم ، أما المتطلبات السيكلوجية فانها تستهدف التخلص من التوترات والقلق ، أو تلك التى تتمثل فى القـدرة على مواجهة الحالات الانفعالية الحـادة كالحزن العمق العدوان ... أما المتطلبات الاجتماعية فتبدو فى أوضـح صورها فى عمليات التنشئه الاجتماعية والرعاية بالمواليد ، عمليات التكريس ... الخ

بالألم والمرض (أنظر معتقدات الدنكا) ، فى حين نجد أن قبائل Nyakusan الافريقية ترد اضطراب المعدة الى فعل أو تأثير العين الشريره[١] . أما قبائل التيف Tiv فى شمال نيجيريا فإنهم يرجعون اضطراب المعدة الى نوع من القوى السحرية Akombo ، هنا نجد أن كل ثقافه من الثقافات المشار إليها إنما تزود أفرادها بنسق من المعرفة لاستعادة الاتساق بين الإنسان ورغباته « الشفاء » ومن ثم تتباين الممارسات وتختلف من ثقافة لأخرى من أجل استعادة التوازن الفيزيقي أو السيكولوجى لدى الانسان ، فالدنكا مثل يقدمون القرابين الى الهة الشر Macardit درءاً لشرها أو استدرارا لعطفها ، وتتمثل هذه القرابين فى لحوم تشوى بطريقة خاصة ... أما قبائل Nyakusan فإنهم يبذلون جهدا كبيرا فى البحث عن أولئك الذين يحملون النية الشريرة بالنسبة إليهم ، ويمارسون نحوهم بعض الشعائر لمواجهة الموقف، أما التيف Tiv فإنهم يلجأون إلى العرافين الذين لديهم قوه الـ Tsar لتحديد أى نوع من القوى الخفية مصدراً لهذه الشرور وهكذا ... الخ .

ويمكن القول أن التنوع الثقافى مرده الى مجموعة من العوامل المتداخلة كالتسهيلات الايكولوجية والتطور التكنولوجي ومدى اسهامه فى النمو الاقتصادى وانعكاس ذلك على الاستقرار الاجتماعى والسياسى . فالثقافة الرعوية عند الدنكا حيث الجفاف والحرارة الشديدة وندرة المياه أو توفرها فى بعض المناطق وانعدامها فى مناطق أخرى، وحيث تتوفر الأعشاب الطويلة فالفرصة متاحة لرعى الأبقار وثمة حركة مستمرة تجاه المراعى الفسيحة ، أما من أجل المياه أو بحثا عن الغطاء النباتى . أن التركيب البيئى عند الدنكا يبدو

(1) Spradley, op. cite. p. 37.

كما لو كان يتيح الفرصة لظهور حياة الحل والترحال حيث يتوفر الغطاء النباتى ومياه الخيران وحيث توزيعات الخضرة فى مناطق دون أخرى ، فى حين نجد أن هذه الظروف الايكولوجية قد تحول دون نجاح الزراعة اذ أن غياب الأمطار ومعدلاتها وموعد سقوطها قد يحول دون الانتاج المناسب بل قد يؤدى الي خسائر فادحه ، ومن ثم فإن الفرصة متاحة للرعى وتربية الحيوان حيث تسود القيم وانماط السلوك الرعوية خاصة تلك التى تتعلق بحق ارتياد المراعى والجواد والضيافة ، وهذا على خلاف قبائل التيف حيث الظروف الايكولوجية المتاحة المتمثلة فى وفرة المياه والتربة الصالحة تعطى الفرصة لقيام نوع من الزراعة يفي باحتياجاتهم ، علي الرغم من ممارستهم لنوع من الزراعة المتنقلة ، فى حين تحول ظروفهم البيئية دون تربية الحيوان على نطاق كبير نظراً لانتشار ذبابة التسى تسى والتى تهدد ثروتهم الحيوانية وتحول دون تكاثرها .

وعلى هذا يمكن القول أن الظروف البيئية يمكن أن تقدم تسهيلات لظهور صيغ ثقافية معينة كما سبق الاشارة ، وقد تكون معوقا يحول دون ظهور صيغ ثقافية أخرى .

فى كلا المجتمعين نجد ظروفا طبيعية مميزة وأوضاعا ثقافيه متفاعلة ، فكلاهما يستجيب للآخر في طرق أو مسارات محددة وكما سبق أن أشرنا أن الأوضاع الطبيعيه تملى أو تصنع القيود على مسار الثقافة ، أن كلاهما يتبادلان التأثر والتأثير ، فنضوب الأراضى عند التيف وفقدانها لخصوبتها يدفعهم الي الهجرة أو التحرك الى المناطق المجاورة بحثا عن أراضى جديدة لزراعتها وهذا بدوره قد يؤدى الي انتهاك أراضي الغير وما يترتب على ذلك من صراع .

ولاشك أن التسهيلات الايكولوجيه المتاحة وثيقه الصله بالمعرفة التكنولوجية وبالتالى شكل الاقتصاد القائم ، فإذا ماأردنا فهما واضحاً فإنه ينبغى أن ننظر إلي هـذه المكونات فى تفاعلها معـا حيث تنعكس لنا صورة التكيف البيئي التكنولوجى ، فالتعقيد النسبي ومدى كفاءة تكنولوجيا الحصول على الطعام انما يعكس درجة الانقان أو التطور التى تميز أسلوبهم لتحقيق أحتياجاتهم المادية فعلى سبيل المثال نجد أن القبائل التي تعيش علي الحـل والترحال وراء العشب والماء من أجل المرعى لايوجـد لديهم الوقت أو الحاجة لبناء المأوى المستمر الدائم كما هو الحال لدى الدنكا الأن ، حيث يشيدون مساكنهم بالقرب من معسكرات الابقار فى فصول الجفاف بجوار الغيران والمستنقعات بقصدا لحصول على المياة ، ثم لايلبثون أن يعودوا أدراجهم إلى قراهم الاصليه . ومـع بلوغ المستويات الاكثر تقدما من المعرفه التكنولوجية نجد أن الفرصه متاحه للاستيطان الدائم كما هو الحال فى المجتمعات الزراعية المتقدمة ، فهم ليسوا فى حاجه إلي الحل والترحال ،انما يعيشون فى قرى مستقرة ، قد تشمل على بعض الغرباء ، وقد لايكترسون كثيرا بالتجمع على أساس عرقى أو سلالى،فالفرصه متاحه لإقامة أولئك الذين لاينتمون إليهم بصلة القرابة ، ولعـل ذلك مرده للاوضاع الإقتصادية التى قد تؤدى إلى وجود الفائض السلعى والذى يعطي الفرصة لاعادة التوزيع عن طريق التبادل أو النقد مباشرة،وأن كان استخدامهم للنقد فى مثل هذه المجتمعات التقليديه يتوقف علي نوعية السلع التى يحتاجون إليها من خارج المنطقة ، وطبيعية التعامل فى مثل هذه المجتمعات الخارجية من ناحية،وعما إذا كان هناك دافع للحصول على النقد ليفى باحتياجاتهم من ناحيه أخرى فلقد كان التيف فى نيجيريا على سبيل المثال لايعرفون النقد إلى حـين

أدخلت الادارة البريطانية نظام المهر ، ومن ثم كان حرصهم على بيع الفائض من الانتاج الزراعى أو تقديم الجهد البشرى من أجل الحصـول على النقـد ، وكذلك الحال لدى بعض قبائل شرق السودان فى منطقة جبـــال الانقسنا أولئك الذين كانت معرفتهم للنقد فى السنوات الأخيرة لتفى باحتياجاتهم من أجل الحصول على الملابس أو الوفاء بمتطلباتهم للانتقال الى المدينة القريبة أو لتغطية نفقات التعليم لأبنائهم أو الشراء لبعض السلع الضرورية... الخ والجدير بالذكر أن تقديم الجهد البشرى من أجل الحصول على النقـد لا يرتبط كثيرا بروابط الدم والقرابه فمع اتساع سوق العمالة يصبح المبـــدأ الأساسي تقديم الخدمة مقابل الأجر النقدى بغض النظر عن الروابط القرابية أو المكانية كما رأينا منذ قليل عند قبائل التيف .

وتبدو العلاقه أكثر وضوحاً بين الظروف الايكولوچية ومدى المعرفة التكنولوچية حيث نجد أن الجماعات التي لاتعرف سوى حد أدنى من المعرفه التكنولوچيه غالبا ماتكون فى حركه مستمرة وحـل وترحال فى بحث عن مصادرهم التقليديه للطعام .

وهذه أمور مسلم بها طالما كانت أدواتهم ومعداتهم قاصرة عن أن تفى باحتياجاتهم فى أستغلال الأرض والمصادر المتاحه،فالمعرفة التكنولوچية المحددة عند التيف تحول دون استقرارهم فهم لايعرفون نظما معقدة للرى أو التخصص فى الإنتاج ، وقد أنعكست تلك المعرفة القاصرة فى صعوبه التعامل مع التربه وتجديد خصوبتها ، ومن ثم فإن حركة أستقرارهم فى مكان ماتأتى مصادفه ، وليس ثمه حاجه إلى مأوى دائم لأنهم فى حل وترحال ـ شأنهم فى ذلك شأن الدنكا ـــ إذ أن الحاجه إلى المأوى الدائم مرتبط بخصوبه الأرض وعطائها ،

وقد يستمر عطاء الارض لديهـــم لسنوات فإذا نضبت الارض وضعفت خصوبتها فإنهم يتركونها للراحه ، وطبيعي أن ترتبط هذه الحركه المكانيه بنظرة خاصه للأرض والملكية وأن تعكس تلك الأخيرة طبيعه الأوضاع الاجتماعيه ، إذ أن ملكيه الارض أو حيازتهـا أو حتى مجرد الانتقال إلى منطقه جديدة رهن بإرادة الزعيم كما سبق الإشارة ، وحرصه على أن يكون لكل منهم مساحة من الأرض تفى بالتزاماته مقابل تقديم كميه محددة من الإنتاج رمزا للولاء القبلى وحتى يمكنه الوفاء بالتزاماته القبليه ... ومن ناحيه أخرى قد يرتبط هذا الإنتقال أو الهجرة الموسميه بتوزيع جديد للأدوار طالما كان المهاجرون — كما هو الحال عند الدنكا — إلى المرعى الجديد يمثلون نوعيه معينه من السكان .

وترتبط المعرفه التكنولوجيه المحدوده بضآله الخبرات والمهارات النوعية ومن ثم فإن تقسيم العمل يتبع الخطوط العريضه للسن والجنس فالمهارات محدوده لاتخرج عن كيفيه ممارسه الرعى أو قليل من الزراعه بالقرب من الخيران والمستنقعات ، والعمل يدوى إلي حد كبير ، ومصـــدر الإنتاج الأساسى لايخرج عن الأرض سواء لرعى الابقار أو لزراعه بعض المحاصيل، ومن ثم قصور الإنتاج وعدم تحقيق الإكتفاء الذاتى كما رأينا عند الدينكا حيث يعتمدون على المناطق الشماليه لتزويدهم بما يحتاجون إليـه فى حياتهم اليوميه ، أما حين يكون هناك وفره من الإنتـاج الزراعى فإن هذا يعطيهم الفرصه لوجود الفائض إما للتخزين ليفى باحتياجاتهم على مدار العام أو لإعادة توزيعه للغير مقابل الحصول على سلع أو مواد أخرى فى حاجه إليها ، أو للحصول على النقد مباشرة ، وهذا يعطيهم الفرصه لممارسة نوع من التخصص

الجزئى لإنتاج بعض السلع كالمنسوجات والسلال والأوانى وما إليها ، أو للعمل لدى الغير فى أوقات الفراغ للحصول على النقد مباشرة،إذ من المعروف أنه كلما زادت المعرفه التكنولوچية فإن هناك وقت أطول متاح للتخصص الجزئى وظهور الحرف ، ومع الزيادة المستمرة فى زمن العمل الجزئى أو المهن الثانوية تتسع قائمه المهن ويزداد الإنتاج ومن ثم إعطاء الفرصة المتزايدة لتبادل السلع من أجل الحصول على سلع أخرى يفتقدونها ، هنا تظهر التجارة أو العمليات التجاريه لارتباطها بالإنتاجيه المتخصصه .

وحين يصبح نظام الملكية أكثر وضوحا كما هو الحال عند التيف وتتضح فكرة حق هذا الفرد أو ذاك فى استخدام هذا الشىء ، وبالتالى فإن على الآخرين أن يمتنعوا عن استخدامه ، وما يرتبط بذلك من شبكه للعلاقات، تجعل هذا الشيء ممتلكا لشخص أو لجماعة دون أخرى ، هذا من ناحيه ، ومن ناحيه أخرى فان وضوح الملكية يرتبط بتراكم الثروة وبظهور الطبقه والتمايز الطبقي ، وارتباط هذا الاخير بالبناء السياسي ، حيث ترتبط الفئة المسيطرة بوظيفتها الاجتماعية المتمثلة فى قدرتها على السيطرة وتحقيق الضبط الاجتماعى بل وفى الاشراف على الحروب (٥) وارتباط ذلك بالولاء الاقليمى وحيث

---

(٥) والجدير بالذكر أن درجه العداء بين وحدات البدنه الانقساميه سواء عند التيف أو الدنكا أو غيرها من المجتمعات الانقساميه انما يرتبط إلى حد كبير بدرجه القرابه والبعد الاجتماعى وتلك تحدد :

(١) اسلوب الحرب والاسلحه المستخدمه كالسهام والحراب المسممة وما اليهــا .

=

لا يوجد تنظيم حكومى أو تنظيم رسمي فان السلطه فى أيدى أشخاص قلائل من كبار السن يناط بهم لقدراتهم الخاصه اتخاذ القرارات وتنفيذها كما رأينا منذ قليل عند التيف والدينكا ، فكلاهما لا يعرف السلطه السياسية المركزية Centralized Polticel authority وهما لا يختلفان كثيرا عما نجده لدى جماعات Mardari والـ Amba فى شرق أفريقيا وكذلك Konkomba فى غرب أفريقيه،و بصفه عامه يمكن القول أن العلاقات السياسيه لها سمه التعدد، ونقصد بالعلاقات السياسيه تلك العلاقات التى يدخل الاشخاص أو الجماعات بمقتضاها لممارسه القوة Power أو السلطه anthovit من أجل الحفاظ على النظام الاجتماعى فى المنطقه ، ويتمثل التعدد فى وجود علاقات بين الوحده والوحدات الأخرى وتصطبغ عادة بالنفوز والعداء الوحدات متساويه مرتبطه بنائيا كما هو الحال بين الاقسام القبليه المختلفه ، ثم هناك العلاقات الداخلية القائمه فى نطاق الوحدة السياسية .

من ناحيه أخرى فان بناء الجماعه المحليه فى مثل هذه المجتمعات الانقسامية يختلف من مجتمع لأخر من حيث درجه تشتت البدنات ، فقد ينعدم التشتت أو

= (ب) درجه العنف ، فلا يجب قتل أولئك الذين ينتمون لهم بصلة القرابة .

(ج) استمراريه الحرب ومـــدى جديتها والافعال المرتبطبه كاثارة والتحريض والخطف والسرقه وما إليها .

(د) درجة الغنم كالاستيلاء على الماشيه والإبقار فضلا عن الحرص واتلاف المحاصيل انظر ذلك الكتاب Tribes Without Rulers p. 50

أو التوزع للبدنات كما هو الحال لدى قبائل Amba و Konwomba و Tiv وأن وجد ففى أضيق نطاق ، فى حين نجد أن معدلات التشتت تبدو اكثر وضوحا لدى Dinka و Hardari و Lugbara ودرجه التشتت ترتبط بدورها بمجموعة من العوامل لعل أهمها مـدى كفاءة الأرض فى علاقتها بالكثافة السكانية ، وامكانية الحصول على الأراضى كلما كانت هناك حاجه ملحه إليها ، والتوزيع القبلى أو التمايز القائم بين الفروع القبليه وارتباط ذلك بوجد نوع من الوحده السياسية أو الزعامة المشتركه ، فضلا عن الهجرة والنظرة إلى الملكيه ... الخ، ويذكر لنا Middleton أن الارتباط بالاسلاف والاجداد ربما لا يعطه قدراً من الاهتمام إذا انعدمت الصلة بين الاسلاف والأرض ، ولكن يبدو اكثر وضوحاً ، درجه الارتباط ،إذا كانت الحقوق فى الملكية ذات القيمه مرتبطة بالبدنه،حيث الارتباط بين مؤسس البدنة ومن ثم الإسلاف والاجدادوملكيه الأرض (١) وعلى هذا يمكن القول أن قبيلة التيف تبدو كما لو كانت جماعات محليه مدمجه، تنتمى إلى أصل واحد ، الانحدادات الجينيولوجية يمكن أن تعكس إلى حد كبير حجم الجماعات المتعددة وارتباطها بسهولة وهذا على عكس الحال عند الدينكا حيث التشتت أو التوزع القبلي الواضح يحول دون ادراك الانتماء القبلى أو السلالي بسهولة .

فاذا ما نظرنا الي نسق المعتقدات والبناء الاجتماعى لوجدنا أن ثمة علاقة وثيقة بينهما ، فنسق المعتقدات لجماعة من الناس انما يرتبط بقيمهم وخاصـــة بالمفاهيم الاخلاقية والادبية والتى تزودهم بأساس لصنع الأحـكام والتمييز وبناء الأراء والأفعال وتوجيه السلوك لتحديد الصواب والخطأ ، والاختيار بين الطيب والقبيح والخير والشر ، أن دراسة هذا النسق لجماعة من الجماعات

هامه جدا لدارسي الثقافه لانها توضح بلاشك ميكانيزمات التفكير أو طبيعته لديهم ، ولاشك أن « الدنكاوى » حين يمارس بعض الأفعال أو الممارسات فإن له هدف محدد يستهدف أما تدعيم الشعيرة ذاتهـا أو لإمـدادهم بالوسيـلة التى يسيطرون بها أو يؤثرون بواسطتها فى علاقتهم بالآخرين من الأفراد أو بالعالم الخارجى أو القوى الخارقة والتي يعتقدون انها تحدد الخير والشر لهم ، ومن ثم فان المشتركين فى الشعائر أو الطقوس يستهدفون بناء علاقة أفضل مع القوى الخارقة عن طريق التضرع أو التوسل فعلى سبيل المثال ، أن محاولة الدنكاوى الاهتمام بالشعائر والممارسات المرتبطة ، بالاسلاف ، ونظرتهم لهم كما لو كانوا أعضاءاً بالجماعة القرابية ، لأنهم يدركون مسئوليتهم نحو رفاهية العائلة وسلامة الأفراد ، ومن ثم فان ممارساتهم وقرابينهم لهم درءا لشرورها وتلاشيا لغضبها حتى لا يتعثروا فى معيشتهـم فتصيبهـم الأمراض أو تفسد محاصيلهم .. الخ إذاً فان هناك علاقة تبادلية بين الاحياء والأموات ، وهى علاقة متوازية اذ يقدم الأحياء القرابين لأسلافهم مقابل أن تساعدهم هذه الأخيرة بما لها من قدرات خاصه فى درء المرض وابعاد شبح الموت أو سوء الطالع ، أن الأخفاق فى ارضائها سوف يترتب عليه أحداث مؤسفة يمكن تبريرها ، انها أى الاسلاف مسئولة عن المصائب والنكبات ، ولا يختلف هذا كثيرا عما نجده لدى جماعة Ifaluk فى جنوب الباسفيك أولئك الذين يعزون معظم الحظ العاثر إلى الارواح الحقوده لبعض الاسلاف من الأشخاص سيىء الطباع الذين استمرت ميولهم واتجاهاتهم السلبيه ضد المجتمع حتى بعد الموت يحـاولون جعل حياة اسلافهم صعبه ، ينشرون الفجور والفسوق والعدوان ، يسيطرون على الأفراد ويلحقون بهم الأمراض الجسمية والعقليه والخلقية (Spiro) ، ومن ثم فان شغل هؤلاء الشاغل تجنيد الأرواح الصديقه واستشارة

الكهنه فى محاولة لدرء شرورها ، لقد أوضح سابيرو أن خوفهم من الأرواح الحقودة يحقق بعض الوظائف الهامه لعل أهمها ايجاد التبرير أو لعله للمرض أو الفشل (فعل الاسلاف أو الارو ح الشريرة الحقودة) ومن ثم البحث عن طريقه للتغلب عليها (تجنيد الارواح الخيرة أو الكهنة) ولاشك أن مثل هذه الممارسات قد تجد فى غياب التفكير المنطقى لاستقرار الظروف والأحوال التى أدت إلي المرض أو الفشل أو الحظ العاثر ... أن أرواح الاسلاف الشريرة بمثابة قنوات مقبولة اجتماعيا للتعبير عن العـدوان فى مثل هذه الجماعات ، أى أنهم يخلعون عدوانيتم على أسلافهم كما رأينا عند الدينكا أو عند بعض قبائل منطقة جبال الانقسنا أو على القوى الشريرة أو آلهة الشر كما رأينا عند التيف، حقا أن تلك الأخيرة ليس لديها مثل هذا الاعتقاد فى أرواح الاسلاف كماسبق الاشارة ، إلا أن معتقداتهم تدور حول القوى الخفية التي يسمونها Tsav وهى مشتقة من القوة البشرية ، هنا تنعكس الثقه بالذات فى مجتمع يشعر بشيء من الاستقرار النسبى اذا ما قورن بالدينكا ، انهـم يركزون على العلاقه بين الانسان المنتج والارض ، وهذا يقودنا إلى القضيه الاساسيه والتى تتمثل فى أن السيطرة أو عدم السيطره على البيئه هو المحدد للنظرة إلى العالم الخارجى ، ومدى الاعتقاد بالغيبيات والاستغراق فيها ، هذا لاينفى بالطبع أن المجتمعات التى تعرف الزراعه المستقرة لديها نسق محكم من المعتقدات .

والخلاصه أن نسق المعتقدات لدى مثل هذه المجتمعات ترتبط إلى حد كبير بأزمات الحياة ، كالامراض أو الاوبئة أو موت الابقار أو الماشيه أو ضآلة الإنتاج أو فساد المحصول أو عدم سقوط الأمطار ، انهم يجدون فيه مايفسر الشرور والإضرار التى تلحق بهم ومن ثم يجب البحث دوما عن ارضاء لهذه القوى الغيبيه أو الخارقه لتحقيق نـوع من التجانس بـين الإنسان والعالم المحيط به .

* * *

المراجـع

أولا : المراجع العربية :

— أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، مدخل لدراسة المجتمع ، الهيئة المصرية العامة ١٩٦٥

« الفكر واللغة » مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى العدد الأول ١٩٧١

« أزمة البيئة » مجلة عالم الفكر ، المجلد السابع ، العدد الرابع ١٩٧٤

— أحمد الخشاب : الاجتماع الدينى ، مفاهيمه النظرية ، وتطبيقاته العملية ، مكتبة القاهرة ١٩٦٤

— أحمد عزت راجح : أصـــول علم النفس ، المكتب المصرى الحديث ، ١٩٧٣

— أيفانز بريتشارد : الانثربولوجيا الاجتماعية، ترجمة د.أحمد أبو زيد، الهيئه المصريه العامه ، ١٩٧٤

— حسب الله الحاج يوسف : « النيلون فى جنوب السودان » ملامح عن حياتهم وعاداتهم « مجلة الخرطوم ، العـدد العاشر ، أكتوبر ١٩٦٨

— حسن محمد جوهر وحسين مخلوف : السودان أرضه وتاريخه ، ١٩٦٧

— سعد ماهر حمزة : علم الاقتصاد ، دار المعارف ، ١٩٧٣

سليمان محمد سليمان : الدينكا والنوير بدون تاريخ

— فاروق اسماعيل : العلاقات الاجتماعيه بين الجماعات العرقية ،الهيئة المصرية العامه ١٩٧٥

التغير والتنميه فى المجتمع الصحراوى ، الهيئة المصرية العامه ١٩٧٦

— محمد عمر بشير : جنوب السودان ، ترجمه أسعد حليم بدون تاريخ

— محمد السيد غلاب : البيئه والمجتمع ، الانجلو المصرية ، الطبعه الرابعه ١٩٦٩

— محمد محمود الصياد ومحمد عبد الغنى سعودى : السودان ، دراسه فى الوضع الطبيعى والكيان البشرى والبناء الاقتصادى، الانجلو المصريه ١٩٦٩

— محمود زيدان : مناهج البحث الفلسفى ، البحترى أخوان ، بيروت ١٩٧٤

— وليام هاولز : ماوراء التاريخ ، ترجمه د. أحمد أبو زيد ، دار نهضه مصر ١٩٦٥

— يوسف سليمان : قبائل السودان الكبرى ، المطبعه الحكوميه بالخرطوم ١٩٦٩

— معجم العلوم الاجتماعيه : الهيئه المصريه العامه ١٩٧٥

— ملف التنميه : المركز العربى للدراسات الاعلاميه والتنمية والتعمير ، العدد ١٥ ، أكتوبر ١٩٧٨

المراجع الأجنبية

— Bidney, David, Theortical Anthropology, Schocken Books, N. Y. 1969

— Bohannan, Paul, Justice and Judgement Among The Tiv, Butler & Tanner, Ltd, London, 1968

— Bohannan Paul; « The Tiv of Nigeria » Peoples of Africa, Edited by James Gibbs, Holt Rienhardt and winston, Inc, 1965

— Bohannan paul; « Some principles and Investment Among the Tiv, American Anthropologist' II

— Buxton, Jean « The Mandari of the Southern Sudan » in Tribes without Rulers, Routledge & Kegan Paul.

— Clifton, James « Culture, Identity and Individual in the study of Culture Anthropology, by Haunter & whitten, Row publihers, 1976

— Deng M. Francis, the Dinka and Their Songs. oxford Library of African Literature, 1973

— Driver, Harold, Indian of North America, the University of of Chicago Press, 1969

— Driver and W. C. Massey, « Comparative Studies of north American Indians » Transactions of the American philosophical Society, 1975

— Fred and D. Bates, Cultural Anthropology, Alfred A. Knope Inc., N. y. 1976

- Gluckman, Max, Politics. Law and ritual in Tribal Societies, Great Britain, Blackwell and Mott, Ltd, 1965
- Hammond Peter; An Introduction to Cultural Anthropology, Macmillan Publishing Co. inc. 1971
- Harving Douglas G., Personal character and cultural milieu Syrocouse, Un. Press, 1965.
- Hoebel, The Law of primitive man; A study in Legal Dynamics, Harvard, 1954
- Kaplan, D. and Manners, R., Culture Theory, 1972.
- Kroeber and Kluckhohn, Culture: A Critical Review of Concepts and definitions, Vintage N.Y., 1952
- Kroeber, Anthropology, Cultural Patterns and process, Harbinger book, N.Y, 1958
- Lesli white, The Evolution of Culture, N.Y. Mc Graw, Hill Book Company, 1969
- Lienhardt, Godfrey; «The Western Dinka» in Tribes without Rulers, Edited by John middleton, D. Tait,
- Lienhardt, Godfrey, Divinity and Experience, The religion of the Dinka, oxford un. Press. 1967
- Linton, R., The Study of Man, Appleton, N.Y. 1936
- Lurie, Nancy; « Culture change » in introduction to Cnltural Anthoropology.
- Malinowski, B , Argonauts of the Western pacific, Routledge, London, 1922.
- Mead, Margaret; Cultural and Technical change, unesco, 1963

— Middleton and D: Tait (eds), Tribes without Rulers Routledgê, London,

— Murdock G. Peter; « The Common denominator of Cultures » in the Science of man in world Crisis Edited by R. Linton Clumbia un, I964

— Nair, B. M; Culture and Society, Thampson press, India, Limited publication Division, I975.

— Notes and queries on Anthropology, The Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, (6 th - ed) 1964.

— Park, R. « on Social Control and Collective behavior, The University of chicago press, I958

— Pelto, Perttie., Anthropological Research the Structure of Inquiry, Harper, N.Y, I970

— Powder, maker, H., Stranger and Friend, The way of An Anthropologist, N.Y, I966

— Schusky, Ernest; Mannual for Kinship Analysis. Holt, N.Y, I965

— Seligman, Races of Africa, oxford Un. press, I966

— Seligman, C. Pagan Tribes of the nilotic Sudan, Rout Ledge and Kegan Paul.

— Selltiz, Jahoda, Cook, Research Methods in Social relations, Holt rinehardt & winston, I966.

— Shack, William, N; The Gurage; International African Institutions I966.

— Smith, Kaj, Birkat, primitive man and his ways, Translated from the Danish by Ray Duffel, odhams press Ltd, London I966

- Spiro, Melford., « Culture and personality » International Encyclopedia of Social Science
- Spradley. G., Mc Curdy David; Anthropology The cultural Perspective, John wiley & Sons, Inc, N.Y, 1976
- Stocking, George W; « Cultural Darwinism and philosophical Idealism » in South western Journal of Anth. 1965.
- Thomas, Crowell., The Rise of Anthropological Theory, N.Y, 1968
- Thomas, David, predicting the past, An Introduction to Anthropological Archeology, Holtrinehart and winston, Inc, N.Y, Chicago, London, 1974
- Titiev, Mischa, The Science of man, Holt. rinehardt, 1969
- Tunhill, G. Culture and Biology, Burgers, publishing Company, Minnesota, 1973
- Tyler, Stephen, An Introduction to Cognitive Anthropology, by B.A, Tyler Holtrinehardt, winston. 1969
- Wiener, J. S; « Physical Anthropology ». American Scientists, Vol 12, 1957
- Williams, T. R. Field methods in the study of culture, N.Y. Holt Rinehart & Winston, 1967.

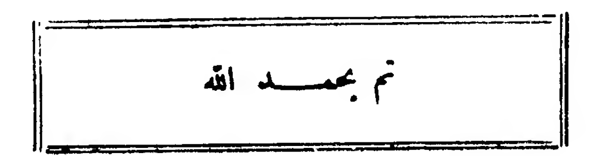
محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحه

الصفحه

الموضوع :

° ° °


تم بحمد الله




مطبعة الجيزة بالاسكندرية ت ٨٠١٠٢٦
محمد عوض - عبد الحميد احمد